إيڤان ترجنيف

الحب الأول

ترجم باشراف
نديم مرعشلي

توزيع مكتبة
محمد حسين النوري - دمشق
هاتف: ١٤٥٣٠

مقدمة

في تاريخ الأدب الروسي ؛ العريق بنفحاته الانسانية ؛ والضخم بقرائه القصصي الكبير ؛ وبدراساته العميقة للمجتمع والعواطف ، يعتبر ايفان كورغنييف ، أحد أئمة الأدب ، بل يأتي على قدم المساواة مع كل من ليون تولستوي ودستوفسكي وغوغول عمالقة القصة الروسية ؛ إلا أن ما يميزه عنهم تلك الروح الشعرية والطاقات الفنية الهائلة التي تتسم بها مؤلفاته ...

وبالرغم من ذلك فإن المام القارىء العربي بهذا العلم ، عملاق الفكر الروسي؛ المام سطحي جداً ؛ فلذا فقد رأينا ان نقدم نبذة موجزة عن حياته :

ولد ايفان كورغنييف في الاورال عام ١٨١٨ ... تابع دراساته الجامعية في كل من بطرسبرغ وسويسرا وايطاليا ... وفي عام ١٨٤٣ شغل منصباً هاماً في وزارة الداخلية ؛ إلا أنه سرعان ما سرح من وظيفته وابعد الى المنفى ؛ على أثر نشره مقالات نقدية ، وبعض مجموعاته الشعرية ، التي طبعت بروح النقد المرير لمساوىء نظام الحكم القيصري .

وقضى الموسكوفي الكبير – اللقب الذي اطلقه عليه جورج صاند – شطراً طويلاً من حياته في فرنسا ؛ كانت له فيها تجربة حب كبير مع بولين غارسيا ؛ التي امتلكت عليه عواطفه ... وكان قد عقد أواصر الصداقة مع عدد كبير من أدباء عصره : تولستوي ، زولا ، ورروديه . توفي عام ١٨٨٣ ؛ بعد اعتلال في صحته ...

من آثاره : اخبار صياد ، ديمتري رودين ، آباء وأبناء ، الحب الأول ، نفاق النبلاء ، دخان ، أخبار موسكوفية ...

الحب الأول ؛ رائعة فنية من عيون القصص الانساني؛تعتبر بذاتها دراسة عميقة للعواطف البشرية التي تولد مع ولادة الحب الأول ؛ وانطلاق أولى شراراته . كان لها عميق الصلة بحياة المؤلف ؛ وتجربته الأولى في هيكل الحب ...

تدور هذه القصة ، حول حياة فتى يافع غزت قلبه لأول مرة ، عواطف

امتلكت عليه تفكيره ؛ حينما علق بفتاة تكبره سناً ، ومن أسرة عريقة اميرية فقدت حظوتها ...

لم تكن الظروف التي تدور حوله لتسمح له بجني قطاف حبه وتذوق سلافة هيامه ؛ بتلك الفتاة زينايدا ؛ التي التف حولها لفيف من الرجال - منهم الشاعر والطبيب ، والكونت وضابط برتبة نقيب متقاعد ، الذين أحاطوا بهـا احاطة السوار بالمعصم - واكتووا بنار هواها ؛ لكن ما لبث ان وجد نفسه ينساق بتيار عواطفه حين انضم إلى حلقتهم ، تلك الحلقة المفرغة التي تتخبط في هوى الفتاة، التي جمعت في شخصها مجموعة النقائض : عمق الحكمة ورصانتها إلى طيش الروح ونزقه . « كانت تقبض على زمامهم وتبقيهم عند أقدامها . كانت تتلهى بالايحاء اليهم بالأمل والخشية بتعاقب ، وتجبرهم على التصرف كدمى حسب مزاجهـــا الآني » . لم تسلم قلبها إلى واحد منهم ؛ إذ لم تجد حسب تعبيرها ، الرجل القادر على ترويضها ، واسلاس عصيانها... إلا أنها اعترفت للشاب في احدى الامسيات الصافية الأديم: «ومن جديد يضطرم قلبي ؟ إنه يحب ، غير قادر على اللايحب»..

لم يكن ذلك القول ، اعترافاً منها بحب الفتى ؛ الذي بدأت تخامره الظنون وتتحرك في صدره النار تحت الرماد ؛ وإنما شعر شعوراً مبهماً ، بأن الفتاة حقاً تحب،وان له هناك منافساً خفياً خطراً،لا بد وانه قد امتلكها قلباً وجسداً...

تحركت النار تحت الرماد ، وانقلب بفعل ضرامها إلى اوتيلو الغيور الذي بـــدأ يتحسس بنيران الغيرة تحرق منه الأرم ، انه مستعد لأن يقتل وينتقم بصمت ... إلا انه سرعان ما اصطدم بالحقيقة ؛ بالحقيقة العنيفة المرة القاسية ، حينما عرف عن كثب بأن منافسه الخفي لم يكن سوى والده ، تلـك الشخصية الطاغية التي كانت مغلقة حتى على مفاهيم الابن ؛ والذي كان مبدأه كما سبق ان صرح له بـــه : « خذ ما تستطيع ؛ لكن لا تترك نفسك تؤخذ ابداً » . ذلك الانسان الذي جعلها تعرف الحب على حقيقته ، وتكتوي بناره ؛ بل تجـــد سعادتها في التضحية بسبيله ! » .

نديم مرعشلي

انصرف المدعوون منذ فترة طويلة . ودقت الساعة النصف بعد منتصف الليل . ولم يبق في البهو سوى سيرج نيقولايفيتش وفلاديمير بيتروفيتش .

دقّ الجرس صديقنا وأمر أن ترفع فضالة الطعام .

وأشعل سيغاراً وغاص في تراخ ، وقال :

– لقد اتفقنا إذن . لقد وعد كل واحد منا أن يروي قصة حبه الأول . عليك أن تبدأ أولاً يا سيرج نيقولايفيتش .

كان المخاطب رجلاً قصيراً ، أشقر ، منتفخ الوجه . نظر الى المضيف ، ثم رفع عينيه الى السقف ، وأجاب :

– لم يكن لي حب اول . اني بدأت بالحب الثاني مباشرة .

– وكيف ذلك ؟

– بكل بساطة . كانت سني في حوالي الثامنة عشرة تقريباً حين عنّ لي ان أغازل فتاة لأول مرة ، وكانت في الحق على غاية من الظرف. وتصرفت كأن الشيء لم يكن بالجديد بالنسبة لي ، تماماً كما فعلت فيما بعد مع الأخريات . ولكي اكون صريحاً ، فان حبي الاول – والأخير – يرجع الى العهد الذي كنت في السادسة . كانت تلك التي اشتعلت شهوة من أجلها هي الخادمة التي تعتني بي . وهذا يرجع الى عهد بعيد ، كما ترون . وقد امحت تفاصيل علاقاتنا من ذاكرتي . ومع هذا ، حتى

اذا ما تذكرتها . فمن هو اذن الذي يستطيع ان يهتم بها ؟

تشكى مضيفنا وهو يقول :

– ماذا نفعـــل اذن ؟ ان حبي الاول ليس مثيراً جـداً كذلك . اني لم اعرف الحب قبـل ان التقي بآنا إيفانوفنا ، امرأتي . وقد حدث كل شيء بصورة طبيعية جداً : ان أبوينا قد خطبانا لبعضنا البعض ، ولم تمض فترة طويلة حتى بدأ كل منا يشعر بالميل نحو الآخر . وتزوجنا بسرعة . ان قصتي بكاملهـــا تتلخص في كلمتين . وفي الحقيقة ، اني اذ وضعت هذه المسألة على بساط البحث يا سادتي ، فإنمـــا كنت اعتمد عليكما ، الشابين العزيزين .. هـذا ، إلا اذا ما انقذ فلاديمير بيتروفيتش الموقف ، وروى لنا ما يسلي :

قال فلاديمير بيتروفيتش ، بعد برهة تردد وجيزة :

– الواقع ان حبي الاول لم يكن حباً عادياً متداولاً .

كان الرجل في الأربعين من عمره ، بشعر اسود يخالطه المشيب ..

– « آه ! آه ! هذا أفضل !.. هيا ! اننا نصغي اليك ! »

– حسن اذن ، هذه هي .. بل ، لا . لن أقص عليـــكم . اذ انني لقاصّ رديء . وما أرويه عامة جاف ومتقطع ، او طويل وغير صحيح .. اذا كنتم لا ترون مانعـــاً ، فسأضع ذكرياتي في دفتر ، وأقرأها لـكم فيما بعد .

ولم يقبل الآخرون في البدء رغبته في تأجيل كلامه ، إلا ان فلاديمير بيتروفيتش أقنعهم في آخر الأمر .

وبعد مضي خمس عشرة يوماً ، اجتمعوا من جديد ، وبرّ بالوعد .

وهذا ما سطّره في دفتره :

- ١ -

كنت في ذلك الحين في السادسة عشرة من عمري . ان هذه الأحداث جرت في صيف ١٨٣٣ .

كنت مع أهلي في موسكو . وكانوا قد استأجروا فيـلا قرب باب كالوغسكي ، امام حديقة نيسكوتشني ، كنت استعد لدخول الجامعـة ، إلا اني كنت اجتهد قليلاً ، وكنت لا أنهمك في العمل .

لم يكن ثمة ما يحدّ حريتي : كان قد سمح لي ان افعل كل ما اشتهي ، خاصة بعد ان انفصلت عن المربي الأخير ، الذي كان فرنسياً ، والذي لم يستطع أبداً ان يتكيف مع الفكرة ، انـه قد وقع في روسيا ، كما لو وقــع في قبر ، والذي كان يقضي جلّ أيامه مستلقياً على سريره ، حانقاً ساخطاً .

كان أبي يعاملني بحنان وإهمال . بيـــنما أمي لا تعيرني أقل اهتمام ، رغم اني كنت وحيدها : كانت هي منهمكة في هموم من صنف آخر .

كان أبي شاباً وسيما ، قد تزوج « زواج عقل » - أي زواج مصلحة - . كانت أمي تكبره بعشر سنوات ، أمضت الى جانبه عيشة جد حزينة : كانت دائماً قلقة ، غائرة ، صموتة ، لا تجرؤ على اعلان ما تكابد وكشْف ما بها بوجود زوجهـا الذي تخشـــاه كثيراً .. وكان هو يبدي صرامة باردة ، تمنع من مؤالفته .. اني لم ألتق قط في حياتي رجلاً اكثر رصانة وأكثر هدوءاً وأكثر حزماً من والدي .

سأذكر دائماً تلك الأسابيع الأولى التي أمضيتها في الفيـلا . كان الجو رائعاً . كنا قد انتقلنا الى تلك السكنى يوم التاسع من الشهر الخامس ،

أي يوم عيد القديس نيقولا . كنت أقوم بنزهات في حديقتنا او في حديقة نيسكوتشني حاملا كتاباً من كتب الجامعة - محاضرات كايدانوف مثلا - إلا اني كنت لا أفتحه الا نادراً ، صارفاً أغلب وقتي في انشاد الشعر ، وكنت أحفظ عن ظهر قلب كثيراً من القصائد . كان دمي يضطرب ، قلبي يتحسر بغبطة عذبة . كنت أترقب حدثاً ، مذعوراً لا أدري ما هو ، مبلبل الفكر على الدوام ومستعداً لأي شيء .

كان خيالي يلاعب افكاراً ثابتة ويدور حولها ، كالسحابة عند السحر حول برج الاجراس . كنت اتحول الى حالم ، الى حزين ، بل أحياناً ، كنت أسكب الدموع . لكن خلال كل هذا كانت تتفتح حياة شابة فوارة ، كالعشب في الربيع .

كان عندي حصان ، كنت أشد السرج عليه بنفسي . أذهب عدواً بعيداً جداً ، بمفردي . وأتصور نفسي أحياناً فارساً يخوض الوغى ، - والريح تصفر في أذني ! - وكنت أحياناً أرفع وجهي الى السماء ، وتغمر روحي المتفتحة بأنوارها الصارخة وزرقتها الصافية .

لم يكن قد تداخل نفسي ، حتى ذلك الحين ، بوضوح ، صورة أية امرأة ، أو أي شبح للحب ، إلا انه كان في كل ما يعنّ بخاطري ، وفي كل ما كنت أشعر به ، كان يختبيء احساس نصف واع ومكنون ، معرفة غريزية سابقة لشيء بديء ، عذب عذوبة لا نهاية لها ، شيء انثوي ..

كان ذلك الترقب يتملك كياني بأجمعه : كنت أتنفسه ، كان يجري في عروقي ، في كل نقطة من دمي .. وبعد حين حدث ما أرضى انتظاري أتم الإرضاء .

كانت الفيلا التي نسكنها تحتوي على بناء رئيسي من خشب مع صف

أعمدة على الجانبين يفضيان الى جناحين واطئين ، كان يشغل الجناح الأيسر منيفكتورة صغيرة للورق الملون .. كنت أذهب اليه غالباً . كان فيه ما يقرب من عشرة غلمان هزلى ، شعورهم مشعثة ، على وجوههم أمارات الكحول المبكر ، يرتدون أسمالاً قذرة ، مطلية بالزيت ، يعملون وقوفاً على الرافعة الخشبية التي تدير مجموعة الطبعات المربعة . وكان ثقل أجسامهم الضعيفة ، تطبع رسوم الخطوط المتشابكة الملونة على الورق .

أما الجناح الأيمن فكان شاغراً ، معداً للايجار .

وفي يوم من الأيام ، بعد مضي ما يقرب من ثلاثة أسابيع على مجيئنا ، فتحت أبواب النوافذ بصخب ، ولمحت وجود نساء .

كان قد أصبح لنا جيران . واني أذكر ان أمي عند المساء سألت الطاهي الذي يقف على خدمة المائدة عمن يكونون القادمون الجدد .

ولما سمعت بأنها البرنسيس زاسيكين رددت على الفور بوقار :

– آه ! برنسيس .

ثم أضافت :

– باليقين ، فقيرة .

ولاحظ الخادم وهو يقدم الطعام باحترام :

– أنهن سيدات ، جئن في ثلاث عربات ، بلا أتباع ولا حشم . أما أثاثهن ، فلا يساوي شيئاً مطلقاً .

ردت أمي :

– حقاً ، إلا اني أفضل ان يكون الأمر على هذا الشكل .

نظر أبي اليها ببرودة ، فسكتت .

وبالفعل ، لم يكن للبرنسيس زاسيكين ان تكون ميسورة الحال : فالجناح الذى استأجرته كان عتيقاً ، صغيراً ، واطئاً ، الى درجة أن الناس الضعيفي الحال يرفضون السكنى فيه ..

ومن ناحيتي ، فاني لم اكن أعير لتلك الأقوال اقل انتباه . وبصورة خاصة اني كنت قد فرغت لتوّي من قراءة مسرحية « قطاع الطرق » لشيلر ..

- ٢ -

كنت قد اتخذت لنفسي عادة التجوال في حديقتنا كل مساء ، وبندقيتي تحت ذراعي ، أتصيد الغربان . وكنت دائماً اكره تلك الطيور الشرهة والحذرة الماكرة أشد الكره . وكعادتي ، نزلت الى الحديقة ، في ذلك المساء ، واجتزت جميع الممرات بلا جدوى : إذ صارت الغربان تعرفني ، وكان نعيقها الضار يصلني آتياً من بعيد جداً . كنت أسير على غير هداية ، واقتربت من السياج الذي يفصل « أرضنا » بشريط ضيق عن الأرض التابعة للجناح الأيمن .

كنت أمشي ، مطرق الرأس ، حين خيل اليّ أني اسمع صوتاً ، فألقيت نظرة من خلال السياج ، ووقفت مذهولاً ... اذ شاهدت مشهداً غريباً .

كان على بعد خطوات مني ، فوق الأرض الخضراء المزروعة بالفرانبواز ، كانت تقف فتاة طويلة ، ممشوقة القد ، ترتدي ثوباً وردياً مخططاً وتضع على رأسها منديلا أبيض . يحيط بها أربعة شباب . وكانت هي تضرب كل واحد منهم بدوره بزهرة من تلك الأزهار الرمادية ، التي لا يحضرني

اسمها ، إلا ان الأطفال يعرفونها جيداً : تلك الزهرة التي تتطاير أجزاء محدثة صوتاً عندما تصطدم بمـادة صلبة . وكان الضحايا يقدمون جبينهم بقدر كبـير من المبادرة والسرور ، وكان في حركات الفتاة (التي كنت أشاهدهـا جانباً) قدر عظيم من السحر ومن الحنان الآمر والهازىء ، ومن اللطف ومن الأناقة الى حـدّ كدت فيه أن أطلق صرخة مفاجأة واختطاف . . كنت اعطي أي شيء في العالم كي أظفر بضربة من تلك الأصابع المعبودة ، أنا ايضاً .

زلجت بندقيتي على العشب ، ونسيت كل شيء ، ورحت ألتهم بعيني تلك القامة الهيفاء اللدنة ، وذلك العنق الصغير ، تلك اليدين الجميلتين .. ذلك الشعر الأشقر المتشعث قليـــلا تحت المنديل الأبيض ، تلك العـين الذكية ، النصف مطبقة ، تلك الأهداب ، وذلك الخد المخملي ..

وعلى حين غرة قال صوت أمامي :

– قل اذن ، يا فتى ، هل تظن أنك تستطيع ان تتفرس على هذا الشكل في وجه الأوانس اللواتي لا تعرفهن ؟

ارتعدت.. وبقيت لا أستطيع حراكاً .. كان يحسني بعينيه الساخرتين شاب بشعر أسود قصير جـداً . ومن الطرف الآخر من السياج ، وفي اللحظة نفسها دارت الفتاة عينيها نحوي .. وشاهدت أنا عينين واسعتين رماديتين في وجه يتحرك بغتة بهزة خفيفة ، ثم انفجرت بضحكة عالية ، كاشفة عن أسنان بيضاء ، وقوس حاجبا الفتاة بشكل غريب . احمر وجهي بشكل يثير الشفقة ، والتقطت بندقيتي ، وهرولت راجعـــاً ، وأصداء الضحكات تلاحقني . ووصلت الى غرفتي ، وارتميت على السرير ، وخبأت وجهي بين راحتي .

كان قلبي يخفق خفقاناً جنونيـــاً . كنت أشعر بالخجل والغبطة ، وأنا فريسة اضطراب لم أشعر له من قبل مثيلا .

وبعد ان استرحت ، سرحت شعري ، ونظفت بالفرشاة ثيابي ، ونزلت لشرب الشاي .

كانت صورة الفتاة تموج أمام بصري ، وكان قد هدأ روعي ، لكن قلبي كان منقبضاً بعذوبة .

سألني أبي فجأة :

– ماذا بك ؟ هل رميت غراباً ؟..

كان بودي ان اروي لـــه كل شيء ، إلا أني تماسكت واكتفيت بالابتسام ضمناً . وقبل ان اذهب الى النوم درت ثلاث دورات حول الغرفة على رجل واحدة – دون أن أدري لما – وطليت رأسي بزيت الشعر . ونمت أعمق النوم . واستيقظت لحظة قبــل بزوغ الفجر ، ورفعت رأسي ونظرت حولي – واليمن يغمرني – وعدت الى النوم .

– ٣ –

كانت اول فكرة خطرت لي عندما أفقت من نومي :

« كيف أصنع لأتعرف إليهم ؟ »

نزلت الى الحديقة قبل تناولي الشاي ، لكني تجنبت الاقتراب من السياج ولم الاحظ أي انسان يتنفس . وبعد الشاي رحت ورجعت ، ومررت امام « جناحهم » عدة مرات ، محاولا أن اكتشف من بعيد سر النوافذ المغلقة .. وفي لحظة ، ظننت اني لمحت وجهاً وراء الستار ، فأسرعت في الابتعاد .

قلت لنفسي ، وأنا اتجول دون غاية على الهضبة الرملية التي تمتد امام نيسكوتشني :

« يجب من كل بد أن أتعرف اليها . لكن كيف ؟ هذه هي المسألة .. »

كنت استعيد تفاصيل لقائنا مساء الأمس ، بأدق أجزائه ، وأستعيد المغامرة كلهـا . كان ضحكها الذي استثارني اكثر من أي شيء ومـا أدري لماذا ..

بينما كنت أتهوس وأتخيـل جميع أصناف الخطط ، بينما القدر قد تكفل بايجاد المنفذ .

فأثناء غيابي تلقت امي رسالة من جارتنا . كانت تلك الرسالة مكتوبة على ورقة رمادية ، عادية جداً ومختومة بالشمع الأحمر ، كما يوجـد مثله عادة في دوائر البريد ، او على شجب زجاجات الخمر من النوع الرخيص، وفي تلك الرسالة الركيكة العبارات ، الكثيرة الأخطاء اللغوية والإملائية، والرديئة الخط ، طلبت البرنسيس من امي ان تمنحهـا عوناً وحماية . اذ ان امي – حسب رأي جارتنـا – متصلة أشد الاتصال بشخصيات لهـا نفوذهـا ، ومنوط بهم مصير البرنسيس وأولادهـا ، اذ كانت طرفاً في دعوى ضخمة ، وكتبت :

« انا أتوجه اليكم ، كإمرأة نبيلة الى امرأة نبيلة . ومن الجهـة المقابلة يسعدني ان انتهز تلك المناسبات .. »

وفي الختام ، رجت البرنسيس ان يسمح لها ان تحضر لزيارة أمي .

بدت أمي متضايقة من هذه المسألة . كان أبي غائباً ، ومـا كانت تدري من تستشير . ومن المفهوم أن أمر ترك رسالة « امرأة نبيلة » بلا جواب لأمر غير وارد – وخاصة انها برنسيس ، فوق ذلك كله ! لكن ما العمل ؟ كان يبدو أن كتابة كلمة بالفرنسية شيء في غير محله ، وكان إملاء أمي بالروسية ليس على مـا يرام . وكانت هي تعرف ذلك ، ولا تريد ان تحرج موقفها .

وقعت عودتي – في نفس أمي – موقعاً مناسباً . فقد طلبت إلي أن أذهب من فوري الى عند البرنسيس وأن أشرح لها ، بأنه يسعدنا دائماً ضمن نطاق امكانياتنا ان نقدم خدمة الى صاحبة السمو ، وانه يشرفنا أن نستزار في ما بين الظهر والساعة الواحدة .

كان التحقيق المباغت لرغبتي الخفية ، قد غمرني فرحاً وخوفاً مبهماً . لكني لم أترك أساريري تنم على شيء . وقبل ان أذهب لأداء المهمة صعدت الى غرفتي ووضعت ربطة عنق جديدة ، وارتديت بذلة رسمية . اذ كنت أرتدي في المنزل سترة قصيرة، برقبة منخفضة ، رغم احتجاجي.

– ٤ –

دخلت الدهليز الضيق وغير المعتنى به ، دون ان أتمكن من السيطرة على ارتعاش لا إرادي . والتقيت بخادم كهل تنسمه الشيب ، بوجه برونزي وعينين باهتتين صغيرتين كأنهما عينا خنزير . كان على جبينه وعلى صدغيه أخاديد عميقة لم أشاهد لها مثيلا من قبل . كان يحمل بين يديه صحناً فيه حسك سمكة ، حين شاهدني دفع برجله الباب المفضي الى الغرفة الثانية ، وهو يسألني بصوت خشن :

– ماذا ترغب ؟

سألت مستفسراً :

– هل البرنسيس زاسيكين في منزلها ؟

صرخ صوت مبحوح من وراء الباب :

– بونيفاس !

أدار الخادم لي ظهره بصمت ، وبسط أمام ناظري ثياب الخدم الرسمية

التي يرتديهـا والمهترئة بفظاعة عند مشطي الكتف ، وقد سقطت أزرارها إلا زر واحد صدىء عليه وسم البرنسيس ، ووضع الصحن على الارض ، وتركني وحدي .

سأل الصوت المبحوح :

– هل ذهبت الى مخفر الشرطة ؟

أجاب الخادم متمتماً ، فقالت له :

« تقول .. هنا شخص ؟.. أين الملاك المجاور لنا ؟.. أدخله ! »

ظهر الخادم أمامي من جديد ، وانحنى ليلتقط الصحن ، وهو يقول :

– تفضل بالدخول الى البهو .

أصلحت هندامي بسرعة ودخلت « البهو » .

كنت في حجرة صغيرة ، غير نظيفة ، مؤثثة بفرش فقير وبارتجـال وعجلة . كانت امرأة في الخمسين من عمرهـــا ، جالسة على مقعد كبير مكسور الذراعين ، الى جانب النافذة . كان ترتدي ثوباً عتيقاً بلون اخضر ، وملفحة رقبتهـا بقطعة شال مبرقش من الوبر . كانت تلتهمني بعينيها السوداوين الصغيرتين التهاماً ..

اقتربت منها وحييتها :

– هل لي الشرف بمخاطبة البرنسيس زاسيكين ؟

– نعم .. أنا هي . وانك نجل السيد ف .. ؟

– نعم ، يا برنسيس .. لقد عهدت والدتي إلي ان أنقل رسالة اليك .

– أجلس اذن ، أرجوك .. بونيفاس ! أين هي مفاتيحي .. ؟ ألم تشاهدها في مكان ما ؟

ونقلت اليهـــا جواب أمي . أصغت إلي وهـــي تنقر على زجاج

النافذة بأصابعها المتورمة الحمراء . وعندما انتهيت ، راحت تتفرس في وجهي من جديد . ثم قالت أخيراً :

– حسن جداً . سأجيء بكل تأكيد . كم أنت يافع ! كم هي سنك اذا لم يكن في سؤالي تطاول ؟

أجبت في تردد لاإرادي :

– ستة عشر عاماً .

أخرجت البرنسيس من جيبها بعض الأوراق ملطخة بالدهن ، ومخربشة الخط ، وقربتها الى أنفها وراحت تفك حروفها .

ثم التفت فجأة نحوي ، وقالت ، وهي تهز كرسيها :

– السن الجميلة ، أرجوك ، لا تتكلف الرسميات ، كل شيء عندي بسيط ..

قلت في نفسي :

« بسيط الى أبعد حد »

وألقيت نظرة تقزز على قامتها الوسخة .

وفي تلك اللحظة بالضبط ، فتح باب آخر ، وظهرت فتاة البارحة على العتبة . ورفعت يدها وأضاءت وجهها ابتسامة هزء .

قالت البرنسيس وهي تشير بمرفقها :

– انها ابنتي . رينوتشكا ، هذا نجل جارنا السيد ف .. ما اسمك أيها الشاب ؟

تمتمت .. وقد تملكني الخجل ، وأنا أهب واقفاً :

– فلاديمير .

– ولقبك هو؟

– بيتروفيتش .

– عجيب ! لقد عرفت مفوضاً في الشرطة اسمه كذلك فلاديمير بيتروفيتش . بونيفاس ! لا تبحث عن المفاتيح : لقد وجدتها في جيبي .

كانت الفتاة تتأملني بنظرتها الهازئة ، وهي تغمز بعينيها بنعومة ، ورأسها مائلاً قليلا على جنب .

ثم خاطبتني قائلة :

– لقد سبق لي ان رأيتك يا سيد فولديمار .

أرجفتني نبرة صوتها الفضية رجفة عذبة . وأضافت :

– أنت تريد ان أناديك هكذا ، أليس كذلك ؟

– تلجلجت قائلا :

– وكيف اذن !

سألت البرنسيس :

– أين رأيتيه اذن ؟

لم تجبها الفتاة . انما سألتني من جديد :

– هل عندك متسع من الوقت ؟

– نعم يا آنسة .

– هل تريد ان تساعدني على حل كبة الصوف ؟ تعال من هنا الى غرفتي ..

خرجت هي من « البهو » وهي تأتي بحركة من رأسها . فاقتفيت خطاها .

كان أثاث الحجرة التي دخلناها مرتب بذوق اكثر من « البهو » .

لكن ، لكي أكون صريحاً ، اني لم ألاحظ الفارق بينهما : اذ كنت امشي كالذي يمشي أثناء النوم ، وأحس في كل كياني بنوع من الحمية تكاد تلامس الحماقة .

تناولت البرنسيس الصغيرة كرسياً ، وجاءت بكبة صوف احمر وحلتها بعناية ، وأشارت لي على مقعد امامهــا ، ووضعت الصوف بين يدي المبسوطتين .

كان في كل حركاتها بطء مرح ، وكانت الابتسامة نفسها ترتجف على جانب شفتيها المتفتحتين . وبدأت تلف الصوف على ورقة مطوية ، حين شعت فجأة عليّ بنظرة خاطفة ومنيرة ، أخفضت لها طرفي رغماً عني . بينما كانت عيناهــا اللتان ، هما في العادة ، نصف مغلقتين تنفتحان بكل وسعهما ، كان وجهها يتغير في الحال كأن شعاع الشمس قد غمره .

سألتني بعد فترة من الزمن :

– ماذا فكرت عني البارحة يا سيد فولديمار ؟ اني اراهن انك حكمت علي بصرامة ..

تمتمت وأنا كالضائع :

– أنا برنسيس .. لم أفكر بشيء اطلاقــاً .. كيف استطيع ان اسمح لنفسي ان ...

ردت عليّ تقول :

– اصغي إلي جيداً . انك لا تعرفني بعد . أنا رعنــاء .. نصف مخبولة . انت في السادسة عشرة ، أليس كذلك ؟ انا في سن الواحــدة والعشرين .. اني اكبرك كثيراً جــداً . لذلك ، يجب عليك ان تقول لي الحقيقة دائماً ..

وسكتت ، ثم اضافت :

– وأن تطيعني ، هيــا ، انظر إلي جهاراً . . لماذا تخفض عينيك طيلة الوقت ؟..

كان اضطرابي قــد ازداد الى ابعد مدى ، بيد اني رفعت رأسي .

كانت تبتسم دائماً ، لكنه كان ابتساماً من نوع آخر ، ابتسام الاستحسان والرضا ..

قالت خافضة الصوت بنبرة رقيقة :

– انظر إلي جيداً .. اني لا استكره ان تنظر إلي .. ان هيئتك تعجبني ، وأحس اننا سنغدو صديقين كبيرين ..

وختمت قولها بمكر :

– وأنا ، هل أعجبك ؟

شرعت أقول :

– برنسيس ..

– اولاً ، نادني زينايدا أليكسندروفنا .. ثم ، ما هي هذه العادة التي يألفها الأولاد ؟.. معذرة ، أريد ان أقول الشبان – في إخفاء عواطفهم الحقيقية . ان ذلك صالح للاشخاص الكبار . اني اعجبك ، أليس كذلك ؟

كنت أحب ، في الحق ، صراحتها ، بيد اني كنت مكدراً تكديراً طفيفاً . وكي أريها انها لا تتعامل مع صبي ، اتخذت ، قدر ما كان ممكناً لي ، مظهر الرصانة والطلاقة :

– أي نعم ، انك تعجبيني كثيراً ، يا زينايدا اليكسندروفنا ، ولا أريد ان اخفي مشاعري ..

هزت رأسها بهدوء ، وسألتني :

– هل عندك مربي ؟

– لا ، لم يعد عندي ، منذ زمن بعيد .

كنت اكذب كذباً فاحشاً : كان قد مضى اقل من شهر على رحيل الفرنسي ..

– أوه ! انت إذن شخص كبير تماماً .

وضربتني ضربة خفيفة على أصابعي :

– أبقِ راحتيك مبسوطتين !

وراحت تلف الصوف باتقان ..

انتهزت عندمـــا أخفضت بصرها لأتفحصها خلسة اولاً ، ثم بصورة جريئة اكثر فأكثر . وبدا لي وجهها اكثر فتنة مما بدا لي في عشية اليوم الفائت ، كان كل ما فيه دقيق ، ذكي ، جذاب .. كانت تدير ظهرهـا للنافذة المسدل عليها ستاراً ابيض ، كان خطاً من شعاع الشمس يتسرب من خلال فرجة القماش ، ويغمر بالضياء شعرها الدخاني والذهبي . كانت رقبتها بريئة ومستديرة فوق كتفيها ، وصدرها حنون وصاف . . كنت أتأملها .. وكم كانت عزيزة عليّ وقريبة مني ! كان يخيـل إلي اني اعرفها منذ زمن بعيد ، واني لم اعرف شيئاً ، ولم أعش قبل رؤيتي لها .. كانت ترتدي ثوباً قاتم اللون ، بالٍ ، ومطرز . وكنت أود لو أحس بنعومة كل شيء من ثنايا ثيابها . كنت اواجهها ، وقد عرفنا بعضنا البعض ..

كنت اقول في نفسي :

« ان مقدمة رجليها يطلعان بشيطنة من تحت تنورتها . ليتني استطيع ان اعبدها جاثياً على ركبتي .. يا لسعادتي ، يا إلهي !

وكدت أقفز من السرور ، لكني تمكنت من ضبــط اعصابي ورحت أهز ساقي ، كما يفعل طفل وهو يتلذذ بالحلوى .

كنت سعيداً كسمكة في الماء ، ولو تركت وشأني ، لما غادرت تلك الحجرة أبداً .

ارتفعت أهدابها بنعومة ولمعت عيناها بضياء عذب ، وابتسمت لي من جديد . قالت لي وهي تهددني باصبعها :

– كم انك تنظر إلي !

استحال لوني الى قرمزي . وقلت في نفسي متفجعاً :

« انها تدرك كل شيء . انها ترى كل شيء . لكن هل كان من الجائز ان تكون الحال على شكل آخر ؟ »

وبغتة جاء صوت حركة من الحجرة الملاصقة ، جلجلة سيف .

نادت البرنسيس الأم :

– زينا ! بيلوفزوروف جاءك بقط صغير .

هتفت زينايدا :

– قط صغير !

وهبت واقفة ورمت بكبة الصوف على ركبتي وخرجت مسرعة .

نهضت انا ايضاً ، ووضعت الصوف على حافة النافذة واتجهت نحو « البهو » ، وتوقفت مدهوشاً على عتبة الباب . كان قط صغير أنمر جالساً وسط الغرفة يديه منفرجتين . بينما زينايدا جاثية على ركبتيها امامه ، تحاول ان ترفع رأسه باحتراز . ووقف الى جانب الأم بين النافذتين ، شاب وسيم من فرقة الفرسان ، اشقر الشعر متجعده ، وردي اللون ، بارز العينين .

كانت زينايدا تردد :

– ما أعجبه من قط ! فعيناه ليستا رماديتين ابداً ، انما خضراوين .. وكم اذنيه كبيرتين !.. شكراً فيكتور ايغوروفيتش . انت غرام .

وعرفت انا في الفارس احد الشبان الذين كانوا في رفقتها المساء الفائت. ابتسم لها منحنياً وهو يحرك مهمازه وسيفه .

– لقد عبرت البارحة عن الرغبة في اقتناء قط صغير أغر بأذنين كبيرتين . ان رغباتك لهي اوامر .

وانحنى من جديد .

كان القط الصغير يموء مواء ضعيفاً ، ثم راح يسبر الارض بلسانه .

صاحت زينايدا :

– أوه ! انه جائع .. بونيفاس .. سونيا ! بسرعة ، لبنا !

ودخلت الحجره خادمة ترتدي ثوباً عتيقاً اصفر وشالاً حال لونه حول رقبتها ، حاملة بين يديها كأس لبن ، ووضعته امام الحيوان الصغير. كان القط يرتجف ، ثم أغمض عينه وراح يلعق ما في الاناء .

أحنت زينايدا رأسها حتى كاد يلامس الارض ، ولاحظت :

– كم لسانه صغير وفاقع الاحمرار !

لما شبع القط راح يخر . نهضت زينايدا وأمرت الخادمة ان تحمله ، بلهجة اهمال تام .

ابتسم الفارس وهو يعطف بنيته الرياضيه القوية في بذلته العسكرية الحمراء الجديدة . وقال لها :

– هاتي يدك لقاء القط الصغير .

أجابت زينايدا :

– بل خذ يدي الاثنتين .

وبينما كان هو ينحني ليقبل يديها ألقى عليّ نظرة من وراء كتفيها .

كنت واقفاً هناك ، لا أدري ان كان يجب علي ان اضحك او ان اصدر حكماً او ان أصمت .

وبغتة لاحظت من شق الباب المفتوح تيندور ، خادمنا ، واقفاً في الدهليز يشير إلي . فخرجت اليه بصورة آلية .

وسألته :

– ماذا تريد ؟..

أجاب همساً :

ـ أمك أرسلتني لأبحث عنك . انهـــا عاتبة عليك لأنك لم تحضر لها الجواب .

ـ وهل انا هنا منذ مدة طويلة ؟

ـ اكثر من ساعة .

أعدت دون ارادتي :

ـ اكثر من ساعة !

لم يبق لي إلا ان ادخـــل « البهو » واستأذن للانصراف . سألتني البرنسيس الصغيرة ، وهي تثبت نظرها في عيني من جانب كتف الفارس:

ـ الى أين ؟.

ـ يجب أن أعود إلى المنزل .

وأضفت موجهاً كلامي إلى الأم :

ـ سأخبر إذن انك وعدت بالحضور حوالي الساعة الواحدة .

ـ هو كذلك يا شاب .

وأخرجت علبة تبغ واستنشقت نشوقاً وعطست عالياً بضجيج ، وأعادت علي وهي تغمض عينيها الدامعتين وتهر :

ـ هو كذلك .

حييت مرة أخرى ، وتركت الحجرة مضطرباً ، ككل فتى يشعر بانظار مصوبة على ظهره .

صاحت زينايدا وهي تنفجر بالضحك :

ـ زرنا من جديد يا سيد فولديمار !

تساءلت وأنا ألحق بتينيدور وأتجاوزه :

« لماذا تضحك طوال الوقت ! »

كان الخادم يمشي على بعد خطوات ورائي ، ولا يقول شيئاً ، إلا أني كنت أحس أنه كان غير راض .

أنبتني أمي ، وأظهرت دهشاً لتأخري عند البرنسيس كل ذلك الوقت . لم أجب بشيء ، وصعدت غرفتي .

وعلى حين غرة غمرتني أمواج صاخبة من الضيق .. كنت أحبس دموعي التي كانت تترقرق في محاجري .. كنت غيراناً من الفارس بفظاعة .

- ٥ -

جاءت البرنسيس لزيارة أمي كما وعدت . انها لم تعجبها . لم أحضر المقابلة ، إلا أن أمي أخبرت أبي على مائدة الطعام انها أحدثت لديها الانطباع الذي تعطيه « امرأة عادية جداً » . وانها أسأمتها بشناعة بالحاحها في الرجاء على أن تتوسط لها عند البرنس سيرج ، وانها عالقة في دعاو كثيرة « قضايا مالية هائلة » ، وعليها أن تكون مماحكة كبيرة إلا أن أمي أضافت بأنها رغم ذلك دعت البرنسيس في مساء الغد إلى تناول العشاء برفقة ابنتها . (حين سمعت انا « مع ابنتها » أغرقت أنفي في صحني) . وبررت أمي تلك الدعوة بانها جارة و « من فصيلة النبلاء » فوق ذلك .

أجاب أبي بأنه قد عرف في شبابه البرنس زاسيكين . وكان رجلاً مهذباً جداً ، إلا أنه كان طائشاً ، بلا عقل . وكان اصدقاؤه ينادونه « الباريسي » لأنه أقام في العاصمة الفرنسية مدة طويلة . كان

في البدء واسع الثراء ثم أفلس في القمار . وتزوج – ولم يعرف السبب مطلقاً ، ربما من أجل المهر – ابنة قاض . (وعلى هـــذا أضاف أبي معلقاً انه كان في وسعه ان يتزوج امرأة أفضل) . ولعله بعد زواجه راح يعمل في البورصة ، وأفلس افلاساً باتاً .

أطلقت أمي زفرة طويلة وهي تقول :

– أرجو ألا تأتي لزيارتي لتقترض مني مالاً .

لاحظ أبي بهدوء :

– ليس في هذا ما يدعو إلى الاستغراب . هل هي تعرف الفرنسية ؟

– بشكل رديء جداً .

– في الحقيقة ، ليس لهذا أهمية .. قلت لتوك ، أظن ، انـــك دعوت ابنتها معها . لقد أكد لي انها فتاة لطيفة ومثقفة جداً .

ردت أمي :

– كيف ! يجب الاعتقاد إذن أنها لا تشبه والدتها .

– ولا والدها . فقد كان متعلماً ، إلا انه كان غبياً .

تحسرت أمي من جديد ، وغرقت في خواطرها . وسكت أبي . كنت وحدي متضايقاً أشد الضيق طوال ذلك الحوار .

وبعد ان فرغت من الطعام ، نزلت الى الحديقة ، لكن دون ان احمل بندقيتي معي . كنت أقسمت ألا أقترب من « سياج زاسيكين » ، إلا ان قوة خفية كانت تدفعني . وقد كان ثمة سبب !

وما كدت اصل حتى لمحت زنايدا . كانت وحدهـا في ممر ضيق ، في يدها كتاب ، وقد سرحت مع خواطرها . انها لم تفطن لوجودي . وكدت اتركها تمر ، إلا اني صحوت في آخر لحظة وأصحت .

التفتت هي دون ان تتوقف ، وازاحت بيدها شريطـــاً ازرق عن

ردائها ، ونظرت إلي ، وابتسمت بنعومة وعادت الى قراءتها .

ورفعت قبعتي عن رأسي ، وابتعدت معتصر القلب ، بعد فترة تردد .

وتساءلت بالفرنسية ، ولست أدري لماذا :

« من أنا بالنسبة اليها ؟ »

سمعت وقع اقدام أليفة وراء ظهري . كان ذلك ابي الذي لحق بي بمشيته الخفيفة والسريعة .

سألني :

– أتلك هي البرنسيس الشابة ؟

– نعم ، انها هي .

– انت تعرفها اذن ؟

– نعم ، رأيتها هذا الصباح عند والدتها .

ووقف أبي في مكانـــه ، ودار على عقبيه ورجع على أثره . وحين حاذى الفتاة حياها بأنس . فردت عليه التحية ببساطة ممزوجة بالمفاجأة ، وتركت كتابها . ولمحت انا انها تتبع ابي بنظراتها .

كان أبي يرتدي دائماً ثياباً أنيقة منتقاة ، إلا أنها كانت بسيطة تماماً . لكنه قط لم يبد لي رشيق القوام ، قط لم تكن قبعته الرمادية مغطية رأسه الذي وخطه المشيب بتلك الأناقة .

وعدت أدراجي واقتربت من زنايدا ، إلا انهـــا لم تجد علي حق بنظرة . انما عادت الى كتابها وابتعدت .

- ٦ -

أمضيت الأمسية وصبيحة اليوم التالي في حالة من الخـــدر الحزين . حاولت ان اجتهد ، جربت ان اطالع كايدانوف ، لكن دون جدوى : كانت صفحات الكتاب ، وسطور الصفحات تمر امـام عيني دون ان تخترق حدود النظرة العابرة السطحية . عشر مرات متتالية ، أعدت قراءة هذه الجملة :

« كان جول سيزار مشهوراً بخوض المعارك .. »

كنت لا أفقه كلمة مما كنت أقرأ . وطبقت الكتاب ، وقبل العشاء ، أعدت تسريح شعري ، وطليته بزيت الشعر من جديد ، وارتديت بدلتي الرسمية ، وعقدت ربطة العنق الجديدة .

وسألتنى أمي :

ـ علام هذا ؟ انك لست في الكلية بعد . الله وحده يعلم ان كنت ستدخلها يوماً . لقد أخطنا لك سترة ، ولن تتركها لغيرها لبضعة ايام .

تمتمت ، واليأس يكتنف قلبي :

ـ لكننا ننتظر ضيوفاً .

ـ أوه ! لعظمة قيمتهم !

كان يجب ان أطيع . فخلعت بدلتي الرسمية وارتديت السترة الصغيرة ، إلا اني احتفظت بربطة العنق .

جاءت البرنسيس وابنتها نصف ساعة قبل الموعد . كانت الأم قـد وضعت شالاً أصفر فوق ثوبها الأخضر الذي كنت أعرفه . وحملت على رأسها قبعة بطل زيها بأشرطة نارية .

منذ البدء شرعت تتحدث عن أوراقها ، متحسرة ، تشكي بؤسها ، تئن أنيناً يذيب الوجدان شفقة عليها . وتستنشق نشوقها وتعطس بصخب ، كما فعلت في بيتها . كانت تبدو وكأنها نسيت لقب البرنسيس الذي تحمله ، وهي تهتز على كرسيها ، وتلتفت ذات اليمين وذات اليسار ، والى كل ناحية ، وتحدث لمضيفيها أثراً سيئاً .

وعلى العكس ، كانت زينايدا متكبرة أعظم التكبر ، بصرامة وعبوس. كانت تتصرف كأميرة حقيقية . كانت ملامحها باردة ، جامدة وجدية . كنت انكرها - وأنكر نظرتها وابتسامتها . لكنها كانت تبدو لي معبودة ايضاً ، في ذلك الوضع الجديد .

كانت ترتدي ثوباً خفيفاً ، سداته من قنب ولحمته من قطن ، رسمت عليه خطوط زرقاء قاتمة . كان شعرها مسدلاً على كتفيها ، يشكل اطاراً لوجهها . كانت تلك التسريحة تلائم أشد الملائمة تعبير ملامحها الباردة .

كان أبي جالساً الى جوارها ، ويحدثها بذلك الأنس الناعم والطليق . وكان يثبت نظره في عينيها من حين الى حين ، وكانت هي تتفرس في وجهه بنظرة غريبة تكاد تكون معادية .

كانا يتحدثان بالفرنسية ، واني اذكر ان لهجة الفتاة الصافية وتلفظها الصحيح أثار منتهى اعجابي . .

أما البرنسيس العجوز فكانت تتصرف بلا كلفة ، تأكل بنهم ، أكلا يكفي لأربعة اشخاص . وتطري أي طعام يقدم اليها .

كان وجودها يضايق أمي ، التي كانت تجيب على اسئلتها بنوع من الترفع المفعم . وكان أبي يقطب حاجبيه أحياناً ، لكن على صورة لا تكاد تبين .

ولم تنل زينايدا ، كالبرنسيس العجوز ، أي قبول لدى أمي .

فقد أعلنت في اليوم التالي :

– انها متكبرة ، متعجرفة ، وليس ثمـة من موجب ، بسيمائها على هيئة عاملة مغناج .

رد ابي على أمي :

– انك على الأغلب لم تشاهدي قط عاملة مغناج .

– ليحفظني الله من هذا المنظر ! ومع هـــذا لست أشعر ان حالي لذلك بأسوأ .

– ان حالك ليست هي بأسوأ ، بالتأكيد . لكن كيف اذن تعتقدين انك تستطيعي إصدار حكم ؟

وطيلة فترة الطعام لم تتنازل زينايدا ان تعر اقـل انتباه لشخصي المسكين . وبعـــد الحلوى شرعت الأم في توديع مضيفيها . قالت وهي توجه كلامها الى أبوي بالجاف وبصوت مبكت :

– اني اعتمد على حمايتيكما ، يا ماريا نيقولاييفنا ، ويا بيوترفاسيليفيتش. ماذا تريدان ؟ انتهت ، الأيام الجميلة !

وقهقهت قهقهة منفرة وأضافت :

– اني احمل لقب صاحبة السمو ، لكن مـا جدواه ، اني اسألكما ، ان كانت معدتي فارغة !

وحياها ابي باحترام مفرط وشيعهـــا حتى الباب . كنت أقف الى جانبـه ، في سترتي الضيقة ، خافض الرأس انظر الى قدمي ، كمن حكم عليه بالموت . فالطريقة التي عاملتني زينايدا بها سحقتني سحقاً . كم كان استغرابي عظيما ، عندمـــا مرت هي امامي وهمست لي بسرعة وفي نظرتها دلع :

ـ تعال غداً في الساعة الثامنة مساء . هل تسمع ، احضر ولا تنسى..

وفتحت ذراعي على مصراعيهما من الشدة . لكنها كانت قد انصرفت بعد ان ألقت على شعرها منديلها الأبيض .

- ٧ -

في الساعة الثامنة تماماً ، كنت مرتدياً بدلتي الرسمية ومسرحاً شعري تسريحة الديك ادخل دهليز جناح البرنسيس .

تفرس الخادم فيّ بعين كئيبة ولم يكد يتحرك لاستقبالي او يتحرك عن مقعده . ووصلني اصوات بهجة من « البهو » . ففتحت الباب وتراجعت مشدوهاً .

كانت زينايدا واقفة على كرسي ، وسط الحجرة ، تحمل في يدها قبعة كبيرة ، يحيط بهـــا خمس رجال ، يحاولون ان يضعوا أيديهم في القبعة التي كانت هي ترفعها الى اعلا ، وهي تهزها بعزم .

عندما لمحتني صاحت فوراً :

ـ انتظروا ، انتظروا ! هـــذا هو مدعو جديد .. يجب ان تعطوه ورقة صغيرة ايضاً !

وقفزت عن كرسيها واقتربت مني وسحبتني من كمي :

ـ تعال اذن !.. لماذا تمكث هنا ؟ يا اصدقائي ، أقـدم لكم السيد فولديمار ، نجل جارتنا . وهؤلاء السادة الذين تراهم هم : الكونت ماليفسكي ، والدكتور لوشيه ، والشاعر مايدانوف ، ونيرماتسكي نقيب متقاعـــد ، وبيلوفزوروف ، الضابط في فرقـة الفرسان الذي سبق لك ان شاهدته البارحة . آمل ان تتفاهم معهم .

اني لم احجب احــداً من جراء ارتباكي . لم يكن الدكتور لوشلين إلا الرجل الأسمر الذي سامني درساً قاسياً في يوم سابق في الحديقة. وكنت لا أعرف الآخرين .

عادت زينايدا تقول :

– كونت ! احضر ورقة صغيرة للسيد فولديمار .

كان الكونت شاباً بهي الطلعة ، غايـــة في الأناقة ، مشدوداً بأربعة دبابيس ، بشعر فاحم ، وعينــين بنيتين جذابتين ، وأنف دقيق ، وشوارب صغيرة تعلو شفة دقيقة . فاعترض قائلاً :

– هذا ليس بعدل فهذا السيد لم يراهن معنا .

ووافق على اعـــتراضه كل من بيلو فزوروف ، الذي قدم لي كنقيب متقاعد ، وصاحا معاً :

– بكل تأكيد .

كان النقيب المتقاعد في الأربعين من عمره ، له وجـــه موسوم بآثار الجدري ، أجعـــد الشعر كاعرابي ، مقبقب الكتفين ، مقوس الساقين . كان يرتدي بدلة عسكرية ، بلا رتبة على الكتفين ، وقد انفكت أزراره .

أعادت الفتاة :

– أحضر الورقة بما اني أقول لك . ما هذا التمرد ؟ انها المرة الأولى التي نستقبل بها السيد فولديمار في رفقتنا ، ولا يليق بنـــا ان نطبق القانون عليه بصرامة شديدة . هيا ، لا تدمدم . اني اريد ذلك !

أتى الكومت بحركة فيهـــا ملامة ومعارضة ، بيد أنه أحنى رأسه بإذعان ، وتناول ريشة في يده البيضاء بأصابعها المغطاة بالخواتم ، وانتزع قطعة ورق ، وشرع يكتب .

تدخّل لوشين متهكما :

– اسمحي على الأقل ان نشرح اللعبة الى السيد فولديمار .. إذ أنه ضائع بيننا لا يفقه من الأمر شيئاً .. اسمع يا شاب ، اننا نلعب لعبة الرهان . فالبرنسيس هي المغرّمة ، والذي سيقع الحظ عليه وتسحب ورقته يكون الرابح ، ويحق له أن يقبل يدها . هل فهمت ؟

ألقيت عليه نظرة غامضة ، وبقيت واقفاً في مكاني جامداً ، ضائعاً في حلم متعب . وقفزت زينايدا من جديد على كرسيها ، وراحت تحرك القبعة . وكان الآخرون يتهافتون من حولها . وفعلت انا مثلهم .

خاطبت زينايدا شاباً طويلاً ، نحيل الوجه ، بعينين صغيرتين ، حسير النظر ، بشعر أسود طويل جداً ، قائلة :

– مايدانوف ! مايدانوف يجب ان تقوم بعمل خير ، بزكاة وأن تتخلى عن ورقتك لصالح السيد فولديمار ، كي يكون له حظان بدلاً من حظ واحد .

حرك مايدانوف رأسه بالنفي ، ونثرت هذه الحركة لحيته الكثيفة .

كنت أنا آخر من يسحب الورقة . وفضضتها .. أوه ! يا إلهي ، قبلة ! ليس في وسعي ان أعبر عما شعرت وأنا اقرأ تلك الكلمة .

صرخت رغماً عني :

– قبلة !

صفقت البرنسيس لي :

– برافو ! هذا يبهجني !

ونزلت عن كرسيها ، ونظرت الى عيني بعذوبة مطمئنة حتى هلع قلبي وسألتني :

– وأنت ، هل أنت مبتهج ؟

وتمتمت :

ـ أنـــا ..

همس بلوفزوروف لي :

ـ بعني ورقتك . اني أدفع لك مئة روبل .

أجبته بنظرة ساخطة ، صفقت لها زينايدا ، وصاح لوشين :

ـ حسناً فعلت !

ثم أضاف :

ـ ومع هذا ، وبصفتي مدير الاحتفالات ، يجب ان أسهر على تطبيق جميع القواعد بدقة . ضع ركبتك على الارض يا سيد فولديمار : انـــه الشرط ..

كانت زينايدا واقفة أمامي ، مائلة رأسها على جنب كأنها تريد ان تراني بصورة افضل . ومدت لي يدها بوقار . كنت لا أرى بوضوح .. كنت أريد ان اضع ركبة على الأرض ، لكني وقعت على ركبتي ، وقربت شفتي من يد الفتاة بخراقة أخدش أظفرها أربنة أنفي .

ساعدني لوشين على النهوض ، وهو يقول :

ـ تماماً !

وبدأت لعبة الرهان . وأجلستني زينايدا الى جانبها .

أية غرامات يمكن ان تخطر على بال لم تستنبطها ! وفي مرة ، مثلت هي نفسها التمثال ، واختارت كقاعدة له نيرماتزكي القبيح ، وأرغمته على أن يستلقي على الارض وأن يخبىء وجهه في حضنه ..

كنا لا نكف عن الضحك ، والقهقهة . كان كل تلك الضجة ، وكل ذلك الصخب ، وذلك السرور المعربد والفاحش تقريباً ، وكل تلك العلاقات

غير المنتظرة مع أشخـــاص لا أكاد أعرفهم - أحدث كل هـذا في نفسي انطباعاً عظيما، خاصة وأن التربية التي كنت نشأت عليها، جعلت مني دباً متوحشاً، صبياً منعزلاً زاهداً، بورجوازياً مستقيما شامخاً. كنت أشعر بالثمل دون أن أشرب. كنت أضحك وأصيح أعلى من الآخرين، الى درجة ان البرنسيس العجوز، الـتي كانت في الحجرة المجاورة تستقبل رجل قانون من باب إيفرسكايا، والذي سبق لها أن دعته للتشاور معه، أطلت برأسها من الباب، ووجهت إليّ نظرات قاسية.

كانت سعادتي كبيرة الى حـــد لم يكن يهمني معه أن اكون مثاراً للضحك، أو أن أفقد اعتباري. كانت زينايدا مستمرة في إعزازي وإكرامي، ومحتفظة بي الى جانبها. وأمرنا احد «المراهنين» أن نغطي رأسينا، هي وأنا، بشال واحد، وأن أعترف لها «بسري». والتقى وجهانا فجأة وحدهما، منعزلين عن باقي العالم، متدثرين في عتمة خانقة، غير شفافة، معطرة. كانت عيناهـــا تلمعان كنجمتين، وكانت شفتاها منفرجتين تفوحان برطوبتهما، تكشفان عن أسنانها البيضاء، كان شعرها يلامس وجهي ملامسة خفيفة، ويحرقني. كنت ساكتاً، وكانت تبتسم لي ابتسامة غامضة ساخرة.

وفي آخر الأمر، همست لي:

- وبعد؟..

كنت لا أستطيع سوى أن أرتبك وأحمر، ان أقهقه، أن أدير رأسي، ساحباً أنفاسي بمشقة.

ومللنا لعبة الرهان، وانتقلنا الى لعبة الخيط. يا إلهي، كم كان فرحي عظيما عندما ضربتني بقوة على أصابعي لتعاقبني على لحظة شرود.. وتعمدت بعد ذلك ان أشرد وأسهو، إلا أنها لم تمس أصابعي، وكنت

أمدها لتنزل عليها العقاب ، إلا انها كانت تكتفي بمداعبتي !

أي شيء لم نقم به خلال هذه السهرة : بيانو ، أغان ، رقص ، عيد غجري . تنكر نيرماتزسكي بثياب دب وأسقي ماء مالحة . لعب الكونت لعبة المشعوذ بأوراق اللعب ، وبعدها خفق الورق ووزعه علينـا كا في لعبة الويست ، إلا انه احتفظ بالأوراق المتشابهة بألوانها لنفسه . على هذا، أعلن لوشين ان « له الشرف ان يهنئه » . وأنشد مايدانوف لنا مختارات من قصيدته الاخيرة : « القاتل » . (كانت المدرسة الرومانطيقية هي السائدة حينئذ) . وكان في نيته نشرها بغلاف أسود والعنوان بلون الدم القاني . وسرقنا قبعة رجل القانون ، وأرغمناه على ان يرقص لنا رقصة روسية ليفك أسر قبعتـه ، وأرغم بونيفاس الكهل على ان يغطي رأسه بقبعة نسائية ، بينما وضعت زينايدا على رأسها قبعة رجل .. والشرح يطول .. اني اكف عن كل الحماقات اللطيفة التي خطرت لنا ونفذناها ..

كان فيلوفزوروف وحده جالساً في زاويــة مكفهراً ، وكان لا يخفي سوء مزاجه .. كانت عيناه تحمران أحياناً من احتقان الدم ، ويصير وجهه قرمزي اللون . ويبدو هو كأنـــه على وشك ان ينقض علينا ويطرحنــا على الارض ، كما يقلب اللاعب الدمى . لكن كان يكفي ان تنظر مضيفتنا اليه نظرة قاسية ، وأن تنذره باصبعهـا كي ينسحب من جديد الى وحدته .

وفي النهاية بلغ الإعياء بنا مداه ، حتى ان البرنسيس العجوز نفسها – التي كانت قد أعلنت لنا بانها لا تتعب ، وان الصخب مهما اشتد لا يزعجها – اعترفت لنا انها تعبت ..

وقدم العشاء ، عندما مرت ابرة الساعـة على الحادية عشرة . وكان

مكوناً من الجبن الجاف وبعض النقانق ، التي وجدتها من أطيب لحوم العالم . وكان هناك زجاجة نبيذ واحدة ، ومن الصنف الشاذ ، في الحقيقة. كان لون الزجاجة اسود تقريباً ، لها عنق واسع ، وفيها نبيذ له رائحة زيت الدهان . ولم يشرب أحد منها .

وحين استأذنت للانصراف ، كنت سعيداً تعباً .. وعندما ودعتني زينايدا ، شدت على يدي بقوة ، وعلى فمها ابتسامة معماة .

كانت أنفاس الليل الثقيلة والرطبة تصفع خدي الناريين . كان في الهواء رائحة الزوابع . والسحب القاتمة تتجمع في السماء ، وتزحف ببطء ، مغيرة أشكالها . والرياح خفيفة تُرجف الأشجار السوداء ارتجاف القلق . وفي مكان ما من بعيد ، كان الرعد يزأر ، أصماً وحانقا.

دلفت الى غرفتي من باب الخدم . كان خادمي نائماً أمام الباب، وكان عليّ أن أخطو فوقه . وأفاق من نومه ولحني ، وأخبرني ان أمي غاضبة جداً عليّ ، وأرادت ان ترسل من يرجع بي الى البيت ، إلا ان أبي أمسكها ..

كان من عادتي ألا أذهب الى النوم قبل ان أتمنى لأمي ليلة سعيدة ونوما هنيئا ، وأن أطلب اليها بركتها . اما في تلك الليلة فكان الوقت بصورة ظاهرة ، قد فوت أوان ذلك .

أعلنت للخادم اني أستطيع يقيناً ان أخلع ثيابي بنفسي ، وأن آوي الى السرير وحدي ، وأن أطفيء الشمعدان .

وفي الواقع ، جلست على كرسي ومكثت فترة طويلة جامداً ، كأني تحت تأثير السحر . إن ما كنت اشعر به كان جديداً ، عذبا .. كنت لا آتي بحركة ، أكاد لا انظر حولي ، أحبس أنفاسي وأرسلها ببطء . كنت أحيانا أضحك ضحكا خافتاً وانا استرجع ذكرى حديثة، وكنت

احياناً ارتجف وأنا افكر اني كنت عاشقا ، وان ما اشعر بـــه هو ، بالفعل ، الحب .

كان وجه زينايدا الجميل ، ينبجس امـام عيني في الظلام : يخفق بنعومة ، ويتنقل ببطء ، لكنه ما كان يغيب .

كانت شفتاها في خيالهـــا ترسمان ابتسامتها الغامضة نفسها . عيناها تنظران إليّ خلسة ، مستفسرتين ، متفكرتين ، رقيقتين ، مداعبتين .. كما في لحظة الوداع .

وفي آخر الأمر ، نهضت ومشيت عـلى مقدمة قدمي الى سريري ، متلافياً اية حركة مباغتة ، خشية ان افسد الصورة . ووضعت رأسي على المخدة ، بدون ان انزع ثيابي ..

ثم اضجعت لكن دون ان أغمض عيني ، وفطنت بعد فترة الى ضياء باهت يتسرب الى غرفتي بين الفنينة والفينـــة .. ورفعت رأس لألقي نظرة من خلال النافذة ..

قلت لنفسي :

« انها العاصفة »

وبالفعل كانت العاصفة تهب ، لكنهـــا كانت بعيدة لا يسمع صوت رعيدها . انما كان يشاهد فقط بعض البروق تبرق في السماء دون ان تنفجر ، والضياء يختلج كجناح طير كبير جريح كسير ..

ونهضت واقفـــاً واقتربت من النافذة . وبقيت على حالي تلك حتى السحر .. كان الضياء يجرح الفلك .. بقيت جامداً وصامتاً أتأمل الرمال الممتدة ، وكتلة الشجر القائمة في حديقة نيسكوتشني ، وأوجه أبنية المنازل التي بدت لي مرتجفة ايضاً مع كل لمعان البروق .

كنت أتأمل ذلك المشهد ، ولا استطيع ان اصرف بصري عنه : ذلك البرق الصامت والكتوم متوافق مع النزوات السرية لروحي .

كان الفجر قد بدأ يطلع في الشفق القرمزي . ولمعان الضياء يبهت ويخفت لاقتراب بزوغ الشمس . كانت رعشات الضياء تتباعد اكثر فأكثر الى ان غابت اخيراً مغمورة بالنور الواضح والصريح للنهار الساطع ..

وفي روحي ايضا سكنت العواصف . . أحسست بتعب لامتناه ، وبسكينة كبيرة ، بيد ان صورة زينايدا الطافرة كانت تتسلط علي دائما . هي تبدو اكثر صحواً وإشراقاً في تلك الفترة ، منفصلة عن كل رؤى غير مرضية ، كالبجع يرفع عنقه الطويل الأنيق فوق أعشاب المستنقعات . وفي اللحظة التي غرقت فيها في سبات ارسلت اليها قبلة زاخرة باعجاب مطمئن .

أيتها العواطف الحية ، أيتها الألحان العذبة ، ايتها الصراحة والطيبة لروح عاشقة ، أيتها البهجة المتمادية لحنان الحب الأول ، اين انت ؟

- ٨ -

في صباح الغد ، حين نزلت لشرب الشاي ، أنبتني أمي - تأنيباً أقل مما كنت أنتظر - وطلبت إلي ان أروي لها كيف أمضيت سهرة العشية . أجبتها باختصار ، مغفلاً الكثير من التفاصيل ، محاولا ان أعطي الكل صفة لا قيمة لها .

ختمت أمي الحديث قائلة :

- لك ان تقول مـا تشاء ، فإنهم ليسوا أناساً كما ينبغي .. كان الأولى بك ان تحضر امتحانك على الذهاب الى عندهم .

وبما اني كنت أعلم ان حسن الالتفات كله الذي كانت امي توجهه الى دراستي مقتصر على هذه الجملة ، لذلك لم أجد من المفيد الإجابة عليها.

أما أبي فإنـه أخذني من ذراعي بعد الشاي ، وقادني الى الحديقة ، وطلب إلي ان أروي له رواية مفصلة عن كل مـا شاهدت عند آل زاسيكين .

أي نفوذ عجيب كان يبسطه علي ، وكـم كانت علاقاتنا غريبة !

كان أبي لا يهتم عمليـاً بتربيتي ، لا يحرجني أبداً ويحترم حريتي . كان « مهذباً » معي ، إذا جاز القول .. لكنه يبقى بعيداً عـني بصورة جلية ، كنت أحبه ، كنت معجباً به ، وقد جعلته مثلي الأعلا ، لقد تعلقت بـه بشغف وحمية لولا انه كان يدفعني عنه طوال الوقت . لكنه حينما يريدني بجـانبه يستطيع ان يوحي إلي بثقة لا حدود لها ، بكلمة واحـدة ، وبحركة واحـدة تتفتح روحي له كما تتفتح لصديق يفيض بالحس السليم ولمربٍ فهيم رحيم .. ثم فجـأة كانت يده تردني بعيداً عنه ، دون عنف ، لكنها كانت على كل حال تقصيني ..

كان يحدث أن تنتابه نوبات حبور ، وعندهـا يكون مستعداً ليجن معي ، ليلهو كتلميذ (كان أبي بصورة عامة يكلف بالتمارين العنيفة) .
وفي يوم من الأيام - في يوم واحد فقط - داعبني بفائض الحنان الى ان كدت انفجر بالبكاء . ومع الأسف ، كان حبوره وحنانه يذوبان بسرعة ولا يتركان أثراً . وكان تفاهمنا العـابر لا يبين في علاقاتنا المستقبلة ، كأنها كانت فيما يراه النائم ..

كنت أحياناً أتأمل وجهه البهي ، الذكي ، الطليق .. فيرتجف قلـبي

ويندفع كياني كله نحوه .. كان يكافئني بلمسة حنونة عـابرة ، كأنه يفطن لما كنت أشعر به نحوه ، ومن ثم ينصرف الى شيء آخر ، ويتظاهر بفتور ، يملك سره وحـده . وأنا ، من ناحيتي ، كنت أتجمع على بعضي وأتقلص وأفتر .

كانت نوبات حنانه النادرة لا تحدثها تضرعاتي الصامتة ، انما تحدث على حين غرة ، ودائماً بصورة غير متوقعة .

وبعد مضي زمن على هذه الحـال ، فكرت في طبيعته ، وتوصلت الى النتيجة التالية : كان أبي لا يهتم بي كما كان لا يهتم بالحياة العائلية بصورة عامة . كان يحب شيئاً آخر . ومـا كان يحبه قد نجح في تملكه والتملي به الى أعمق حد .

قال لي في يوم من الأيام :

– خذ ما تستطيع .. لكن لا تترك نفسك تؤخذ أبداً . ان سر الحياة كله هو في هذا : ان لا يملـّك الانسان نفسه – لأحد مـا أو لشيء ما – إلا لنفسه . ان يكون هو سيد نفسه .

وفي مرة أخرى ، كنت أخوض مجادلة حول الحرية ، بمفهوم الفـتى الديمقراطي الذي كنت حينئذ . (حدث هـذا في وقت كان فيه أبي « طيباً » ويمكنني التحدث معه في أي شيء) . رد علي بقوة :

– الحرية ؟ لكن هل تدري فقط ماذا يستطيع ان يمطيها الانسان ؟

– ما هي إذن ؟

– إرادته ، ارادتك . اذا كنت تعرف استعمال ارادتك تستطيع اكثر من ذلك ايضاً : ان تملك السلطة . اعرف ان تكون حراً ، وتستطع ان تقود وتأمر .

كان أبي يريد فوق كل شيء ان يتمتع بالحياة ، ولقد فعل .. ربمـا

كان يشعر بأنه لن يعيش طويلاً : وفي الواقع فقد قضى نحبه في الثانية والأربعين .

قصصت عليه تفاصيل زيارتي لآل زاسيكين بشواردها ووارداها. كان يستمع إليّ حاضر الانتباه وغائبه بالتتالي . وهو يرسم خطوطاً عريضة بطرف سوطه على الرمـال . كان أحياناً يطلق ضحكة صغيرة عابثة ، ويشجعني على ان أستزيده بسؤال صغير أو باعتراض . وكنت لا أجرؤ في اول الأمر ان ألفظ اسم زينايدا ، لكن بعـد حين لم أعد أستطيع ان اتمالك ، وزججت نفسي بتلك القصيدة الغنائيـة . كان أبي يبتسم على الدوام . ثم غاص في خواطره ، وتمطى ، ونهض .

وقبل ان يذهب ، أسرج حصانه . كان أبي فارساً ممتازاً ، ضليعاً في فن ترويض أشد الخيول جموحاً وشدة .

– هل أرافقك يا ابي ؟

أجاب ، وقد عاد الى وجهه تعبيره العادي العذب والمهمل :

– لا ، اذهب وحدك إن شئت . سأقول للحوذي اني باق .

وأدار ظهره لي وابتعد بخطوات كبيرة . وغاب وراء السياج . كنت أشاهد قبعته من وراء السياج تسير . ثم دخل جناح زاسكين .

لم يمكث مدة أطول من ساعة . لكن بعـــد تلك الزيارة ذهب الى المدينة ولم يعد إلا في السهرة .

وبعد الغداء ، ذهبت انا نفسي الى عند البرنسيس . كانت الأم وحدها في « البهو » ، عندما رأتني حكت رأسها من تحت قلنوستها بصنارة الغزل وسألتني مباشرة ان كنت استطيع ان انقل لها استدعاء .

أجبت وأنا اجلس على حافة الكرسي :

– بكل سرور .

مدت البرنسيس لي يدها بورقة سبق لها أن خربشت عليها ، وقالت :
– حاول ان تنسخ بأحرف أكبر . هـل تستطيع ان تنجزها في هذا اليوم ؟
– بكل تأكيد ، يا برنسيس .

فتح باب الحجرة المجاورة بهدوء ، وأطل وجه زينايدا ، وجه شاحب ، مبلبل الفكر ، بشعر مطروح الى الوراء . نظرت إليّ ببرود بعينيهـا الواسعتين الرماديتين ، عادت وأغلقت الباب بهدوء .

نادت البرنسيس العجوز :
– زينا !.. زينا !..

لكن زينا لم تجب .

حملت الاستدعاء معي ، وأمضيت السهرة في نسخه .

– ٩ –

بدأ تاريخ « هيامي » اعتباراً من ذلك اليوم . اني لأذكر اني أحسست باحساس مماثل لشعور موظف قبض لتوه اول راتب : اني لم أكن شاباً فحسب ، انما كنت عاشقاً أيضاً .

لقد قلت ، ان تاريخ هيامي بدأ اعتباراً من ذلك اليوم ، وأستطيع ان أضيف أن آلامي بدأت في ذلك التاريخ أيضاً .

كان سقمي باديا حين تكون زينايدا غائبـة : كنت اشعر بفراغ ، يفلت كل شيء من يدي ، وأمضي ايامى مفكر فيهـا . . كنت مضنى بعيداً عنهـا .. ولم تكن حالي احسن بقربها .. كانت الغيرة تلتهمني ..

وكنت شاعرا بعدم معناي . كنت اغتاظ من لاشيء ، وألزم بحماقة وضعاً لئيما . ومع هذا ، كانت قوة خفية تدفعني الى الجناح الصغير ، رغماً عني . كانت تغمرني الغبطة لمجرد اجتياز عتبة « بابها » .

فطنت زينايدا بسرعة الى اني كنت احبها . ثم اني ما كنت لأخفي عواطفي . كانت هي تتلهى بي ، وتضحك من هيامي بها ، تسخر مني ، وتذيقني أمر العذاب . أية لذة تعادل الشعور لدى المرء بأنه المصدر الوحيد ، والعلة المستبدة ، وغير المسؤولة لبهجة الآخرين وتعاستهم ؟ وذلك بالضبط ما كانت هي تفعله . . وأنا لم اكن إلا شمع طيع بين أصابعها القاسية . .

اني لم اكن وحدي الذي كان يتعشقها : ان جميع الذين كانوا يقربونها ، قد وقعوا في شراك هواها . وكانت هي ايضاً تقبض على زمامهم ، وتبقيهم عند أقدامها . . كانت تتلهى بالإيحاء لهم بالأمل ، والخشية بتعاقب ، وتجبرهم على التصرف كدمى حسب مزاجها الآني . (كانت تسمي ذلك « جعلهم يصطدمون ببعضهم ضد بعض ») . وكانوا لا يفكرون حتى بالمقاومة ، ويخضعون برضى وعن طيب خاطر لجميع أهوائها الفجائية .

كان جمالها وحيويتها يشكلان مزيجاً عجيباً من الدهاء والتعفف ، من التصنع والسذاجة . كان يشع اصغر حركاتها وأقوالها الأقل مرمى نعومة جذابة عذبة ممتزجة بجد ودعابة .

وكان وجهها المتغير الملامح يعبر ، في الوقت نفسه تقريباً ، عن السخرية والصرامة والاندفاع . كانت اشد العواطف اختلافاً تمر في عينيها وعلى شفتيها بالسرعة التي تمر بها ظلال السحب في يوم شمس وريح .

كانت زينايدا تحتاج الى كل واحد من المعجبين بها .

فبيدلو فزورروف ، الذي كانت تدعوه مرات بـ « حيواني الضخم » أو « السمين » فقط ، كان يقبل ان يرمي بنفسه في النار من اجلها . كانت لا تركن كثيراً الى ملكاته ومواهبه ، ولا الى ميزاته الأخرى ، إلا انه تقدم اليها ببساطة ليتزوج منهـا ، ملمحاً الى ان الآخرين لا يسعون في علاقاتهم بها الى هذا الهدف النبيل .

وكان مايدانوف يتجاوب مع ميول روحها الشاعرية . كان رجلا على قسط كبير من البرودة ، ككثير من الكتاب ، وانه لكثرة ما كان يردد لها : انه يعبدها ، انتهى الآن به ، هو نفسه ، الى تصديق مــا كان يردد والاعتقاد بمـا كان يقول . كان قد غناها في أبيات طويلة لا تنتهي ، وكان يقرأها لها في حالة نشوة عامرة هاذية ، وبخالص الاخلاص . كانت زينايدا لتشفق عليه ، وترأف بأوهامه ، إلا أنها كانت تهزأ بــه ، ولا تعامله معاملة جيدة . وكانت ، بعد أن تعير لنجواه أذناً صاغية ، تطلب اليه ان ينشد لها اشعار بوشكين ، وتقول بجد :

– كي نغير الهواء قليلا ، وندخل هواء صحيحاً !

وكان الدكتور لوشين شخصية لاذعة ، ساخرة . انــه كان يعرف زينايدا تمام المعرفة ، وكان يحبها اكثر من أي واحد منا – إلا ان ذلك ما كان يمنعه من ان يغتابهـا ، ويطعن فيها في غيابها وفي حضورها على السواء . كانت تقدره حق قدره ، لكنها ما كانت تغفر له كل لذعاته ، وكان يطيب لها ان تتلذذ بلذة صادية وأن تشعره بأنه هو ايضا ، ليس غير دمية تشد خيوطها .

صرحت لي في يوم بحضوري :

– أنا ، مغناج ، بلا قلب ، صاحبة مزاج ممثـلة .. وأنت ، أنت تزعم

انك رجل صريح .. لنمتحن صراحتك .. أعطني يدك ، سأغرز فيها دبوساً .. وانك ستخجل من هذا الشاب ، ولن تظهر ان هذا يوجمك .. انك تضحك يا سيدي ، صراحة !.. اني آمرك !

احمر وجه لوشين ، وعض على شفته وأدار وجهه . إلا انه مد يده في النهاية .. وشكت زينايدا الدبوس .. وراح يضحك ، فعلا .. كانت بدورها تضحك ايضاً ، تغرز الدبوس الى أعمق ايضاً في اللحم ، وهي تنظر في عينيه .. وكان هو يتلافى نظرها ..

كان اكثر ما يدهشني علاقات زينايدا بالكونت ماليفسكي . حقاً ، كان ماليفسكي شاباً وسيما ، ماهراً ، نجيباً ، ومع ذلك كنت ارى جلياً – حتى انا ، الذي كنت في السادسة عشرة – ان فيه قدراً من الغش والكذب والبلية ليس باليسير . كنت استغرب ان الفتاة لم تفطن الى ذلك . ربما انها كانت عالمة بذلك وما كانت تتظاهر بمعرفته ؟

كانت معارفها المقصرة ، والناس الذين تعاشرهم ، وعاداتها الغريبة ، ووجود امها المستمر ، وفوضى المنزل وبؤسه . كان كل هذا – بدء من الحرية التي تتمتع بها ، وبشعورها بالرفعة على كل ما يحيط بها – اقول: لقد كان كل هذا ينمي في وجدانها نوعاً من الطلاقة فيها الاحتقار للغير وفيها نقص في المعيار الاخلاقي .

كان أي شيء يحدث : اذا ما اعلن بونيفاس ان السكر نفذ، مثلا ، او اذا ما وصل الى علمها بالنمائم الجارحة التي تذاع عنها . او اذا ما تناحر المدعوون في منزلها ، فانها كانت تكتفي بهز جدائل شعرها وتعلن :

– ايه ! حماقات ، حماقات !

كنت اكاد اخرج من جلدي غيظاً كلما كنت أشاهد مالينفسكي

يقترب منها بهيئته التي تشبه الثعلب الماكر . ويستند بخفة ولباقة على ظهر كرسيّها ، ويهمس في اذنها وعلى فمه ابتسامة المعجب بنفسه الصلفة . كانت تنظر اليه بثبات ، مكتوفة اليدين ، هازة رأسها بنعومة ، وترد عليه بابتسامة .

وفي يوم ، سألتها :

– اي سرور تجديد في استقبال السيد ماليفسكي هذا ؟

فردت علي :

– أوه ! ان له شارباً صغيراً فاتناً ! ثم ، هل تريد ان اقول لك بصراحة ، انك لا تفقه شيئاً .

وفي يوم آخر ، قالت لي :

– هل تعتقد اني احبه ! اني لا استطيع ان احب رجلا انظر اليه من أعلا ، الى اسفل .. اني بحاجة الى شخص يقدر ان يحنيني ، يستطيع ان يروضني .. لله الشكر ، لن التقي بهذا الشخص ابداً !.. اني لن اترك نفسي تؤخذ ! أوه ، لا !

– اذن ، انك لن تحبي أحداً ابداً ؟

ضربتني ضربة خفيفة بطرف قفازها على أرنبة انفي ، وقالت :

– وأنت ؟ ألست أحبك ؟

أي نعم ، كانت تتسلى كثيراً على حسابي . اي شيء لم تحملني على القيام به خلال تلك الأسابيع الثلاث التي كنت اراها كل يوم !

كانت نادراً ما تأتي لزيارتنا ، وكان ذلك لا يكدرني كثيراً . إذ انها ما كانت تدخل حتى تتخذ هيئة الأوانس الكبار ، اوضاع البرنسيس . وكنت اشعر بحياء فظيع .

كنت اخشى ما اخشاه ان ينكشف ما في نفسي امام امي : كانت

امي تنفر منهـا غريزيا ، وكانت تترصدنا بفظاظـة . كنت اتهيب من ابي أقل من تهيبي من أمي . كان يتظـاهر بعدم اعارتي انتباهـه . أما مع زينايدا فكان يتكلم قليلاً ، لكن بتوقد وألمعية .

كنت انقطعت عن الدرس وأغلقت الكتب . وكففت عن النزهات ، ونسيت فرسي . كنت أدور وأدور حول الجناح الصغير . كأن قدميّ كانتـا عالقتان بخيط الصنارة . وكنت مستعد لأمضي عمري كله ..

لكن التوفيق لم يحالفني في ذلك : إذا كانت أمي تدمدم وتتـذمر بلا انقطاع ، وكانت زينايدا هي نفسها تطردني أحياناً . وكنت عندها التجىء إلى غرفتي ، وأغلق دوني الباب بالمفتاح ، أو أذهب إلى أقصى الحديقة . وهناك أجلس فوق معصرة خربة وأبقي على حـالي طوال ساعات ، متأمـلاً الشارع ، ناظراً دون أن أرى أحياناً . وكانت فراشات بيضاء ترفرف بكسل على نبات النـار المغبر بالقرب مني ، وكان عصفور دوري دعب يجيء ويقف على آجرة عتيقـة ويزقزق بغضب ، قافزاً في موضعه ، ناشراً ذنبه الصغـير . وكانت الغربان على حذرها الدائم تنعب على قمة شجرة باسقة عاريةمن أوراقها ، وتتـلاعب بصمت بين أغصانها المتباعدة أشعة الشمس والريح . ومن بعيـد ، كان يدوي رنين أجراس دير دونسكوي ، بكآبة وطلاقة

وكنت أنا ماكثاً هناك أنظر وأسمع واملىء نفسي بعاطفـة ، فائقة الوصف ، فيها الجحيم وفيها النعيم ، فيها الرغبة وفيها القلق ، وفيهـا أمواج خوف مبهم .. كنت لا أفهم شيئـاً ، ولم يكن في وسعي أن أسمي بدقة ما كان يتهدهد في نفسي .. بل ، على الأصح ، بلى ، كان يمكنني مناداته باسم واحد .. اسم زينايدا .

أما عن البرنسيس الشابة ، فقد كانت دائبة على اللعب في ، لعب القط بالفأرة . كانت أحياناً مغناجاً ، وكنت أذوب في نشوة عكرة ، وكانت أحياناً تردني عنها ، وكنت لا أتجرأ على الدنو منها ، بل حتى النظر إليها من بعيد .

كانت هي تظهر لي ، منذ عدة أيام ، بروداً بصورة خاصة . وكان ذلك ما أحبط همتي وجعلني لا أزور الجناح إلا لماماً في زيارات قصيرة وخاطفة ، جاهداً في الجلوس مع البرنسيس العجوز ، رغم أن مزاج تلك المرأة ، كذلك كان قاتلا ، كانت تشتم وتصرخ أكثر من العادة : كانت قضاياها لا تسير على هواها . وكان قد استدعاها مفوض الشرطة مرتين .

وفي مرة ، كنت أتسكع بجوار السياج المعروف حين لمحت زينايدا جالسة على العشب ، مستندة على ساعدها ، جامدة تماماً . كنت على وشك الابتعاد على مقدمة قدمي عندما رفعت هي رأسها بغتة ، وأشارت إلى إيماءة آمرة . وقفت مصعوقاً ، غير فاهم ما كانت تريد مني . أعادت هي إيماءتها . فقفزت من فوق السياج ، واقتربت منها راكضاً ، سعيداً . أوقفتني بنظرة ، مشيرة إلى الممر ، على بعد خطوتين منها . كنت مرتبكاً لا أدري ما أصنع ، فجثوت على ركبتي على حافة الطريق . كان يبدو على الفتاة شحوباً كبيراً وحزناً مراً وتعباً عميقاً ، وشعرت بقلبي ينقبض ، وتمتمت رغماً عني :

– ما بك ؟

مدت يدها ونزعت غصناً دقيقاً ، وغضت عليه بين أسنانها ، ورمته بعيداً . وأخيراً سألتني :

– أنك تحبني كثيراً ! نعم !

لم أجب بشيء ، وما الفائدة ؟

استأنفت تقول وهي تتفرس في وجهي :

– نعم ، نعم .. العينان نفسها ..

وخبأت وجهها بين راحتيها . وتابعت :

– ان نفسي لمشمئزة من كل شيء . أود لو أكون في آخر العالم ... اني لا استطيع ان اتحمل هذا .. اني لا استطيع ان أتعود عليه .. والمستقبل ، ماذا يطوي لي ؟ . آه ! اني لجد تعسة . . . يا إلهي ، كم أنا تعسة !.

قلت بحزن :

– لماذا ؟

هزت اكتافها ولم تجب .

كنت جاثماً على ركبتي انظر اليها بعذاب لا نهاية له . لقد ثقبت كلماتها قلبي ، كل كلمة ثقباً ثخيناً . كنت مستعداً أن أعطي حياتي كي أوقف عذابها .. كنت غير مدرك سبب شقائها .. وكنت أتخيلها قافزة لتوها الى آخر الحديقة ، ومنهارة فجأة على الأرض ، مصعوقة من الألم .. كان كل شيء حولنا أخضر ووضاء . كان النسيم يداعب اوراق الأشجار ويحرك غصناً طويلاً من الفرانبواز فوق رفيقتي . وفي مكان ما كان الحمام يتناجى ، والنحل يدندن ، وفوق رأسينا كانت السماء عطوف وزرقاء .. وأنا كنت جد حزين ..

قالت زينايدا وهي تتكىء على العشب :

– انشد لي شعراً . أحب ان أسمعك . انك لا تعرف ان تنشد . لكن هذا لا يهم . أنشدني « على هضاب جورجيا » ، لكن اجلس أولاً .

ر   وأنشدتها ..

رددت الفتاة بعدي :

- « ومن جديد ، يضطرم قلبي ؛ انه يحب ، غير قادر الا أن يحب..» ان في هذا لجمال الشعر الحقيقي : فبدلاً من ان يتحدث عما يكون ، يغني شيئاً أسما الى غير حد من الواقع ، ومع هذا انه يماثله اشد .. غير قادر ألا أن يحب .. انه ليتمنى ، بيد انه لا يستطيع ..

وسكتت من جديد ، ثم قفزت واقفة .

- تعال ، مايدانوف هو عند امي . انــه جاءني بقصيدته . وانا التي تركته .. هو ايضاً يجب ان يكون موجعاً حزيناً .. مــا العمل ؟ سيأتي يوم ، تعلم فيه كل شيء .. لكن ، لا تحقد علي !

وشدت على يدي بحيوية وعدت امامي .

ودخلنا الجنــاح ، وراح مايدانوف لفوره ينشد « قاتلة » الذي طبع حديثاً . كنت لا اصغي اليه . كان يقرض شعره بصوت غنائي ، وكانت القوافي تتتالى بجلجلة فارغة . كنت أنظر الى زينايدا محاولاً ان اكشف معنى كلماتها الاخيرة .

وعندما صاح مايدانوف بصوته الخنّ :

« أو إن منافساً خفياً

فتنك على حين غرة .»

تشابك نظري بنظر الفتاة . غضت هي طرفها ، واندفع دم خفيف في وجنتيها . تجمد دمي . كنت أحس بالغيرة منذ زمن طويل . لكن خاطرة بارقة غمت كياني :

« يا إلهي ! انها تحب ! »

- ١٠ -

منذ ذلك الحين ، بدأ عذابي الحقيقي . كنت أعصر دماغي ، وأقدح زناد فكري ، وأراقب زينايدا في كل ساعة من ساعات النهـــار ، وانا متخفياً قدر استطاعتي . انها كانت قد تغيرت كثيراً . لم يكن في ذلك أي ظل للشك . كنت أراها طيلة ساعات طويلة تتجول بمفردهــا . او انها كانت تحبس نفسها في غرفتها وترفض مقابلة أحد ، وذلك ما لم يسبق ان حدث لها من قبل ابداً .

كانت بصيرتي تشحذ ، او على الأقل كنت اعتقـــد ذلك . كنت أستعرض في خيالي جميع المعجبين بها وأتساءل :

- « هل هو هذا - أم أنه هو ذاك ! »

كان الكونت ماليفسكي يبدو لي أشد خطراً من الآخرين (بيــد اني كنت أخجل ان اعترف بذلك ، احتراماً لزينايدا) .

ان نفاذ بصيرتي لم تذهب الى ابعد من ذلك . ثم ان سري لم يكن لغزاً على احد . على كل حال ، سرعان ما أدركه الدكتور لوشين . الحق يقال ، انه هو ايضاً قد تغير كثيراً منـــذ بضعة ايام : كان ينحل في الظاهر ، وكان ضحكه اكثر خبثاً ، وقصراً وتقطعاً . وقد أعقب هزؤه الناعم ووقاحته المصطنعة نوعاً من العصبية .

وفي أحد الأيام ، وجدنا نفسينا وحدنا في بهو آل زاسيكين : لم تكن زينايدا قد عادت بعد من نزهتها . وكانت البرنسيس العجوز تتخاصم مع الخادمة في الطابق العلوي . فسألني :

- قل لي يا شاب : لماذا تقضي كل وقتك في الاجترار هنــا ! انك

تحسن صنعاً اذا درست ما دمت شاباً ، وليس هذا ما تفعله تماماً في هذه الآونة ؟

أجبته بصوت حادّ ، دون ان أتمكن من اخفاء بعض اضطرابي :

- انك تتحدث عما لا تعرف . من يقول لك اني لا اجتهد في البيت ؟

- لا تكلمني عن الدراسة ! ان في رأسك شيئاً آخر . اني لا ألح .. ففي أيامنا ، أنها عملة متداولة .. اتركني أقول لك فقط انك وقعت شر وقعة .. ألا ترى أي نوع من البيت ؟

- اني لا أفهم ..

- انك لا تفهم ؟.. إذن ، حيفاً وخسارة ! لكن من واجبي ان أحذرك . أما نحن ، العزاب الكهول ، الصلبين ، ففي وسعنا ، دون خشية ، ان نرتاد هذا البيت : ماذا تريد ان يصيبنا ؟ نحن القدامى ، القساة ، لا يفزعنا شيء . لكن انت ، ان جلدك ما يزال ناعماً . صدقني ، ان الهواء هنا لا يلائمك . احذر من العدوى !

- كيف ذلك ؟

- لكن ببساطة كلية .. هل انت معافى الآن ؟ هل تجد نفسك في وضع طبيعي ؟ هل تتصور ان عواطفك الحالية تستطيع ان تجديك لشيء نافع ؟

أجبت مماحكاً ، وانا اعترف ضمناً بأن الدكتور كان على صواب :

- وما هي بربك عواطفي الحالية ؟

قال ، وهو يتكلم بعمان جارحة :

- آه ! يا شاب ، يا شاب ، هيا ، لا تلعب لعبة الحذر . ان وجهك

يخونك .. ثم ، ما جدوى جدالنا ؟ هل تظنني أدخل هذا البيت لو لم .. (وصر على أسنانه) لو لم اكن اكثر خبلاً منك . . ان شيئاً واحـــداً يدهشني . كيف يمكن ألا ترى ما يجري حولك ..؟ مع انك صبي ذكي ؟

قلت ، وأنا أتظاهر بالانتباه :

– وماذا يحدث اذن ؟

نظر الدكتور اليّ نظرة شفق باسمة .

وقال بصوت منخفض كأنه يخاطب نفسه :

– كم يمكنني ان أكون غبياً .. ما جدوى التحدث اليه ؟

وختم قوله رافعاً صوته :

– الخلاصة ، أن هذا الجو غير صالح لك ، قـــدتقول . . انــه يعجبك ، ثم ماذا ! إن هواء المصري عابقة بالأعراف إلا أن أحداً لا يستطيع أن يعيش فيها .. اصغي إليّ ، افعل ما أقوله لك وعـد إلى كتبك ..

وما كاد يتم جملته حتى عـــادت البرنسيس العجوز إلى « البهو » ، وراحت تتشكى من ألم ضرسها ، وجاءت زينايدا بعد فترة وجيزة .

قالت الأم :

– إسمع يا دكتور ، يجب عليك أن تؤنبها ، إنها تمضي وقتهـا في شرب الماء مع الثلج . إن هذا لضار جداً للرئتين .

سأل لوشين :

– لماذا تفعلين هذا ؟

– ماذا يمكن أن ينتج عن هذا ؟

– يمكن أن تصابي ببرد وأن تموتي .

– حقاً ؟ هذا غير ممكن !.. بل إن هذا إذا ما حدث فخير !

دمدم الدكتور قائلا :
– آه ! آه ! لقد وصلنا إلى هذا المستوى إذن .

انسحبت العجوز .

ردت زينايدا :

– أي نعم ، هل تظن أن الحيـــاة مسرة دائماً ؟ أنظر قليـــلا حواليك .. هل يسير كل شيء على مـــا يرام ؟.. هل تعتقـــد أني لا أفطن لذلك ؟ إن هذا يسرني أن أشرب ماء الثلج . وأنت تأتي لتعلن لي أن حياة كهذه لا تساوي المجازفة بها من أجل لحظة لذة .. إني لا أتحدث عن لحظة سعادة ..

قال لوشن :
– نعم ، نعم .. نزوات عابرة واستقـــلال .. هاتان الكلمتان تلخصان خصالك .

ضحكت زينايدا بعصبية :

– إنك لم تصب كبد الحقيقة يا عزيزي الدكتور ، وإنـــك سيء الملاحظة .. نظارتين .. لم يعد مزاجي منصرفاً إلى النزوات العابرة .. هل تظن أني أجد تسلية لي في الدورات حول نفسي وفي الضحك على نفسي ؟ أما فيما يتعلق بالاستقلال ..

وضربت الأرض برجلها ، وخاطبتني :
– يا سيد فولديمار ، لا تتخذ هـذا الوجه الحزين . إني أكره أن يُشفق علي ..

وانصرفت بخطوات كبيرة .

قال لوشين :

– سيء ، سيء جداً .. إن الجو هنا لا يصلح في الواقع لك مطلقاً ، يا شاب ..

- ١١ -

وفي مساء ذلك اليوم نفسه اجتمعت العصبة بكاملها عند آل زاسيكين . وكنت أنا في عدادهم .

جرى الحديث عن قصيدة مايدانوف . وأطرتها زينايدا بأخلاص ، وقالت :

– إنما لو اني كنت أنا شاعراً ، لكنت اخترت مواضيع أخرى .. قد يكون ما أقوله الآن سخيفاً ، لكن أحياناً ، يخطر على بالي خواطر غريبة ، أثناء الليل بصورة خاصة . في مرات حينما أعاني الأرق ، وفي مرات أخرى عند بزوغ الشمس عندما تغدو السماء وردية ، شهباء .. وعلى هذا ، مثلا .. لكنكم لن تضحكوا علي ؟

أجبنا كلنا بصوت واحد :

– لا ، لا .

شبكت ذراعيها على صدرها ، وأمالت برأسها :

– لكنت أظهرت جماعة من الصبايا ، في الليل ، في مركب يتهادى على نهر هادىء .. البدر منير ، الصبايا ثياب بيضاء ، يجلل رؤوسهن أكاليل أزهار بيضاء ، ويغنين .. شيئاً كنشيد . أنتم ترون ماذا أريد أن أقول .

تمتم مايدانوف حالماً :

– نعم ، نعم ، إني أتبعك .

– وبغتة ضجة ، ضحك ، مشاعل ومصابيح وطبول على الشاطىء ... ربات متجمهرات يتدافعن بصخب وغناء . إلى هنا أترك الكلام لك ، يا سيدي الشاعر .. كنت أريد مشاعل فاقعة الاحمرار ، وكثير من دخان .. وعيون الربات تبرق تحت التيجان ، وتكون التيجان بلون قاتم .. ولا تنسى جلود النمور ، والأواني . والذهب .. أكوام من ذهب !

سأل مايدانوف وهو يرمي بلمّته إلى الوراء ويوسع منخريه :

– أين يجب أن أضع الذهب ؟

– – أين ؟ على أكتافهن ، في أذرعهن ، في أرجلهن . يقال أن النساء في العصور القديمة كن يحملن أساور ذهبية حول كعوبهن .. وتنادي الربات صبايا المركب ، اللواتي كففن عن الإنشاد ، إلا أنهن لا يتحركن .. ويقترب مركبهن بهدوء ، وتنهض إحدى الصبايا ببطء – انتبه ، فان هذا المقطع يتطلب الكثير من الحنان ، إذ ينبغي وصف حركات الصبية بجلال ، في ضوء القمر ، وذعر رفيقاتها .. انها تنزل على اليابسة ، وتحيط الربات بها إحاطة السوار بالمعصم ، ويحملنها إلى الليل ، إلى الظلام .. تصور دخاناً كثيفاً متصاعداً ، وبلبلة عامة .. ولا يسمع سوى صرخات الربات الحادة ، ولا يظهر من المشهد في النهاية سوى التيجان الملقاة على الشط ..

سكتت زينايدا .

قلت لنفسي من جديد :

– « أوه ! إنها تحب ! »

سأل مايدانوف :

– هل انتهيت ؟

– نعم ، انتهيت .

أعلن الشاعر بعجرفة :

– ليس في هذا مادة كافية لقصيدة . بيد أني سأستوحي مما قلت مقطوعة غنائية .

سأل ليفسكي :

– أمن النوع الرومانطيقي ؟

– طبعاً ، على طريقة بايرون .

رد الكونت الشاب بفتور :

– أما أنا فاني أجد هوغو أفضل من بيرون .. وأوجب للاهتمام ..

قال مايدانوف :

– حقاً ، ان هوغو لكاتب من الطراز الأول ، وأن صديقي كوموتو ، في قصته الاسبانية (ايل تروفادور) ..

تدخلت زينايدا سائلة :

– القصة التي وضعت فيها نقط الاستفهام مقلوبة ؟

– هي بعينها . إنها العادة ، عند الأسبان .. قلت أن كوموتو إذن ..

قاطعته الفتاة من جديد قائلة :

– أوه ! انك ستخوض من جديد المعركة بين الكلاسيك وبين الرومانطيق ! إن من الأفضل أن نلعب لعبة ما ..

اقترح لوشين :

– لعبة الرهان ..

– اوه ! لا ، انها قاتلة ! لنلعب على الأصح لعبة التشبيه !

كانت تلك من اختراع زينايدا . وفحوى اللعب هي اختيار غرض ، ومن يجد التشبيه الأوفى له يكون الغالب .

اقتربت زينايدا من النافذة . وكانت الشمس قد غابت لتوها ، وبعض السحب تصعد عالياً في السماء .

سألت زينايدا :

– ماذا تشبه هذه السحب ؟

ودون أن تنتظر رداً ، أجابت هي نفسها :

– أما انا فإني لأجد انها تشبه تلك الأشرعة الشقائقية اللون التي كانت كليوباتره قد رفعتها على صواري سفينتها ، يوم ذهبت لملاقات أنطونيو .. هل تذكر يا مايدانوف ! انك حدثتني عنها بالأمس .

احتذونا جميعنا حذو بولونيس في هاملت ، وقررنا باجماع ان السحب بالفعل تشبه تلك الأشرعة ، وأنه لا يمكن قول تشبيه خيراً منه .

وكم كانت سن أنطونيو حينئذ ؟

قال ماليفسكي :

– أوه ! كان بلا شك حينئذ شاباً غض الآهاب .

قال مايدانوف بيقين :

– نعم ! كان في عنفوان الشباب .

أعلن لوشين :

– اعتذر ، كان عمره اكثر من اربعين سنة .

رددت زينايدا وهي ترميه بنظرة سريعة :
- أكثر من أربعين سنة .

رجعت بعد قليل إلى منزلي . كانت شفتاي تتمتمان بصورة آلية :
- « انها تحب .. لكن من ؟ »

- ١٢ -

كانت الأيام تمر . وتزداد غرابة أطوار زينايدا أكثر فأكثر . وجدتها مرة في بيتها جالسة على كرسي خيزران مسندة رأسها على حافة الطاولة . رفعت نظرها إلي .. كانت الدموع تسيل على خديها .

قالت بحرارة :
- آه ، هذا أنت . تعال إلى هنا .

اقتربت منها . وضعت هي يديها على رأسي ، وقبضت على خصلة من شعري وراحت تشدها .

صرخت بعد فترة :
- أخ ! هذا يوجعني !
- آه ! هذا يوجعك ! وأنا ، ألا تعتقد اني أتعذب بما يكفي ؟

وصاحت حين رأت انها انتزعت طاقة من شعري :
- اوه ! ماذا فعلت ! بالسيد فولديمار المسكين !

وبعد أن فرزت الشعر لفته حول أصبعها .

وقالت لتسري عن نفسي ، وعيناها طافحتان بالدمع :

- سأضع شعرك في الاطار الصغير الذي أحمله في جيدي ، وسأحمله دائماً . أرجو أن يخفف هذا من غضبك علي .. الآن ، الوداع ...

عـــدت إلى منزلي . كانت الأمور في منزلي ليست على مـــا يرام كذلك . كانت أمي قد تشاجرت لتوها مع أبي ، انها كانت تلومه على شيء ما ، لمرة جديـدة . وكان هو لا يقول شيئـاً . وظل ، حسب عادته ، بارداً في وضع لائق . وخرج هو بعد قليل . لم أتمكن أنا من سماع ما كانت أمي تقوله . ثم اني كنت غارقاً في مشكلتي الخـاصة . اني أذكر انها دعتني إلى غرفتها بعد ذلك النقاش وكلمتني بحـــدة عن زياراتي - المتكررة كثيراً - إلى البرنسيس العجوز ، وقالت لي عنها : « أنها امرأة حقيقية بارتـكاب أي شيء » .

قبلت يدها ، (كانت هذه طريقتي لأنهي مقابلة معها) وصعدت إلى غرفتي . كانت دموع زينايدا قد أفقدتني رشدي تمامـــاً ، وما كنت أدري كيف أعللها . وكنت على اهبة البـكاء ، أنا أيضاً - إذ كنت ما أزال ، وأنا في السادسة عشرة ، طفلاً بالفعل .

كففت عن التفكير في مـاليفسكي . ورغم أن بولوفزوروف كان خطره يزداد يوماً بعد يوم ، وكذلك الكومت الماهر الذي كان ينظر اليها نظرة الذئب إلى الحمل فاني لم أعد أفكر فيه أيضاً . لأقول الحق ، اني كنت لا أفكر بشيء أو في أحـد معين . كنت أضيع نفسي في فرضيات ، وأبحث عن الأمكنة المنعزلة .

كانت لي هواية خاصة للآثار الخربة ، واتخذت عادة تسلق حـائط عال صعب ، وأن أجلس عليه بانفراج الساقين كمن يمتطي صهوة جواد .

كنت شقياً ، وبائساً يمتلكني شعور بالضياع ، إلى حد يثير على نفسي

الشفقة ، وكنت أجد في ذلك المكان عزاء عذباً ، حزيناً .

وفي يوم ، كنت جالساً هنـاك ، أنظر إلى بعيـــد ، وأسمع قرع أجراس الدير ، فطنت ، على حين غرة ، إلى حفيف خفي : لم يكن ذلك من جراء اهتزاز الريح ، إنما كان تردد أنفاس ، أو ، على الادق ، شعرت بوجود شخص .. فأخفضت عيني .

كانت زينايدا تمشي في الممر مسرعة الخطى . كانت ترتدي ثوبـــاً خفيفاً ، أشهب اللون وتحمل على كتفها مظلة من اللون نفسه . لمـــا رأتني رفعت رأسها ونظرت إليّ بعينين مخمليتين .

سألتني بابتسامة استغراب :

– ماذا تفعل على هذا الارتفاع ؟ . نعم ، ماذا تنتظر ؟.. فبدلاً من ان تمضي وقتك لتقنعني بحبك لي ، اقفز اذن من حيث انت ، ان كان ذلك حقاً ..

وما كادت تنهي كلامها حتى ألقيت بنفسي الى أسفـل ، كأن يداً دفعتني من ظهري دفعاً . كان علو الحائط سبعة أمتار تقريباً .

هبطت عند قدميها ، لكن الصدمة كانت قوية لذلك لم استطع الوقوف على قدمي فوقعت وفقدت صوابي بضع لحظات . حين استعدت وعيي ، أحسست ، دون ان افتح عيني ، ان زينايدا كانت حانية عليّ ..

كانت تقول بقلق وحنان :

– أيها الصغير العزيز ، ايها الصغير العزيز . كيف استطعت ان تفعـل هذا ، كيف استطعت ان تسمح لي ؟ احبك .. انهض .

كان صدرهـا يرتفع وينخفض مسنداً رأسي عليه ، كانت يداهـــا تلامسان خدي .. وبغتة ـ يا الله ، أية عذوبة ـ غطت شفتاها العذبتان والنديتان وجهي بالقبل .. ومستا شفتي مسّاً رفيقا .. وفي تلك اللحظة،

رغم اني كنت احاول ألا أفتح عيني ، فانهـــا ارتابت بلعبي ، واستوت واقفة ، وهي تقول :

– انهض ، ايها المجنون الكبير .. ماذا تصنع هنا معفراً بالتراب ؟

فأطعت ..

– اعطني مظلتي .. انظر اين رميتهـــا .. ولا تنظر الي هكذا .. يا للتفكير الأحمق ! .. هـــل مسك ضر ؟ .. أقول لك ألا تنظر إلي بهاتين العينين ..

وأضافت كأنها تخاطب نفسها :

– انه لا يريد ان يفهم ، لا يريد ان يجيب ..

ثم قالت ، بعد فترة :

– ارجع الى بيتك يا سيد فولديمار . نظف ثيابك ، ولا تجري ورائي، وإلا فاني سأغضب ، وأبداً لن ..

ولم تتم جملتها . وابتعدت مسرعة .

جلست انا على حافت الممر .. كانت رجلاي ترفضان حـــلي . كنت أحس بوجع في ظهري ، وكان رأسي يدور . ومع كل ذلك كنت احس بهناءة كما لم اشعر بمثلها قط فيما بعـــد . كانت كخدر عذب وأليم يسري في عروقي اولاً ، وانتهت الى ان انطلقت من عقالها على شكل طفرات وصيحات حماسية ..

حقاً ، كنت لا أزال صبياً !

-١٣-

هل اقول غبطتي وكبريائي طيلة ذلك اليوم ؟ كانت قبل زينايدا حية على وجهي . كنت أتهلل طرباً ، واستعيد في كل فترة كل كلمة من كلماتها، وكنت متمكناً بمسرتي الجديدة الى درجة كنت اخاف معهـا ، بحيث لا اريد ان اعود فأرى التي كانت سبب تهيجي .

كان يخيل إلي اني لم اعـد انتظر المزيد من القضاء ، وان الساعة قد حانت « كي اغيب جرعة الهواء الاخيرة » وان أموت !

وفي اليوم التـالي ، عندما ذهبت الى عند آل زاسيكين كنت اشعر ببلبلة عظيمة ، قنعتها بقناع طلاقة متواضعة « للسيد ـ الذي ـ يريد ـ ان يُفهم ـ الآخر ـ انه يعرف ـ ان يحتفظ ـ بسر . »

استقبلتني زينايدا ببساطة وبلا أقل انفعال ، مكتفية بأن تهـددني بأصبعها ، وان تسألني إن كان جسمي قد ارتض .. وذابت كل طلاقتي ومؤامرتي في غمزة عـــين . إني كنت لا أنتظر شيئـــاً خـارقاً ، لكن أخيراً .. كان هدوء الفتاة يحدث في نفسي تأثير حمـــام بارد . وأدركت اني لم أكن بالنسبة إليها سوى طفل ، واغتممت !

كانت زينايدا تروح وتجيء ، وكانت ابتسامة عـــابرة تنطبع على محياها كلما كانت عيناها تقعان عليّ ، إلا أن أفكارها كانت بعيدة — كنت أرى ذلك جيداً .

« هل أكلمها عن البارحة ، وان أسألها من أين كانت غاديـــة مسرعة ، وان أعرف أخيراً ؟ »

عدلت عن إلقاء سؤالي واتخذت لي مكاناً قصياً .

وبدا لي وصول بولدفزورروف في غضون ذلك في محله أكثر من أي وقت ، ومناسباً أكثر من أي شيء .

– لم أتوفق في أن أجد لك حيواناً ألوفاً .. هناك فرساً يأخذها فرايتاغ على كفالته ، لكني لا أضمنها أنا . أني أخاف .

سألت زينايدا :

– وممّ تخاف ، لو سمح أن يلقى عليك هذا السؤال ؟

– مم ؟ لكنك لا تعرفين ركوب الخيل ، ليحفظنا الله ، سرعان ما تقع مصيبة ! أي هوى غريب هذا عصف برأسك ؟

– هذا شيء يخصني أنا وحدي يا سيدي الأحمر .. وإذا كان الأمر كذلك فاني سأتوجه بطلبي إلى بيوتر فاسيلييفيتش ..

كان ذلك الاسم اسم أبي ، وقد فوجئت انها تتحدث عنه بذلك اليسر ، كأنها كانت متيقنة انه سيقبل تقديم خدمة لها .

قال بيلوفروزوف :

– ها ها ، إذن انك مع هذا السيد ستمتطين الخيل !

– سواء كان معه ام كان مع غيره ، فهذا امر لا يعنيك . على كل حال ، اني لن أذهب برفقتك .

رد الفارس الخيال :

– ليس برفقتي .. ليكن .. سأجد لك فرساً .

– انتبه على الأقل كي لا تكون بغلة . . . إذ اني انذرك بأني سأركبها عدواً .

– اصنعي ما بدا لك ، ان كان ذلك يطيب لك .. ألن تذهبي برفقة ماليفسكي ؟

– ولماذا لا يكون برفقته ، ايها النقيب الباسل . هيا ، هدىء من روعك ،

ولا تجحظ عينيك على هذه الصورة ، وكأنك تريد ان تحرق الناس جميعاً بها .. سأسمح لك بمرافقتي يوماً . . اما ماليفسكي . . فانك تعـلم علاقتي به .. والآن .. هيا افرنقع !

وهزت رأسها .

دمدم بيلوفروزوف :

– انك تقولين هذا كي تعزيني .

أطبقت زينايدا نصف أجفانها ، وصاحت ؛ كأن الألفاظ لا تؤاتيها :
– ان أغريك ؟ أوه .. أوه .. أوه ؟ أيهـا النقيب الشهم ! وأنت ، يا سيد فولديمار ، هل تريد ان يأتي معنا ؟

تمتمت دون ان ارفع عيني :
– ذلك .. اني لا أحب .. ان اكون .. برفقة جمع من الناس .

قالت في زفرة :

– آه ! آه ! انت تفضل خلوة الاثنين . . كما تشاء . . انك لا تريد اذن .. اذهب ، يا بيلوفزروف ، الى الصيد .. ينبغي لي من كل بد فرساً في الغد !

تدخلت البرنسيس العجوز قائلة :

– نعم ، لكن من أين يأتي بالمال ؟

قطبت زينايدا حاجبيها :

– اني لم أطلب اليك شيئاً .. فيولوفزوروف يأتمنني .

دمدمت الأم :

– يأتمن .. يأتمن ..

وفجأة صاحت بأعلى صوتها :

– دونياشا .

قالت زينايدا :

– ماما ، لقد اشتريت لك جرساً لتنادي به الخدم .

نادت البرنسيس العجوز من جديد :

– دونياشا .

استأذن بيلوفروزوف للانصراف . وخرجت معه . لم يحاول أحد ان يمسكني ..

-١٤-

وفي اليوم التالي استيقظت مبكراً ، شذبت عصاً ، وذهبت بعيداً عن المدينة . كنت اريد ان اتجول بمفردي ، وان أجتر أساي . كان الجو رائعاً ، رائقاً ، معتدل الحرارة . وكان النسيم رخاء ، عليل . مشيت طويلاً في الغابات والهضبات والسهول على غير هدى ، وكانت غايتي من تجوالي ان أغوص في أحزاني ، لكن فتوتي ، والشمس الصاحية ، وعذوبة الهواء ، ولذة المشي السريع ، ومسرة الاستلقاء على العشب الكثيف بعيداً عن العيون ، تغلب كل هذا على حالي فأنساني كآبتي .

ثم استولت على روحي صدى كلمات زينايدا وذكرى قلبها . كان يرضيني ان اقول لنفسي اني أجبرت الفتاة على الاعتراف بقوة عزيمتي وجرأة اقدامي .. وقلت لنفسي :

« انها تفضل الآخرين .. حيفاً ! . ان هؤلاء الأشخاص ، ليس عندهم

من الشهامة غير ادعائها . . امـــا انا ، فاني قدمت برهاني . . اني اقبل بتقديم تضحيات اخرى ، اشد خطراً ، اذا اقتضى الحال ! »

كان خيالي قـد أطلق عنانه : كنت أراني أنقذ الفتـــاة من ايدي اعدائها ، انتشلها من السجن ، وأنا جريح تنزف دمائي ، ثم ألفظ أنفاسي الأخيرة عند قدميها . .

كنت استمد تلك الصورة لاشعورياً من لوحـــة معلقة على حائط غرفة طعامنا : ما لك – أديل خاطفاً ماتليدا .

واستغرقت بعد ذلك مباشرة في تأمل جرذ أبقع يحفر جذع شجرة ، وهو يلقي نظرات ذاعرة ذات اليمين وذات اليسار .

ثم رحت اغني : « ليست هي الثلوج البيضاء . . » ومنهـا انتقلت الى أغنية كانت مشهورة في ذلك الزمن : « اني لأنتظرك اذا ما النسيم المرح . . »

كنت أجهر صوتي في دعاء آرماك الى النجوم» من مأساة كومياكوف ، محاولا ان ارتجل ابياتاً عاطفية ، وتوفقت الى إعـــادة نظم المقطوعة الأخيرة وحرفتها وقفلتها « بابه يا زينايدا ، يا زينايدا » .

وهبطت الوادي ، كان ثمـــة ممر ملتوٍ متعرج يفضي الى المدينـــة فسلكته . .

وبغتة سمعت وقع حوافر خيل ورائي . التفت ، ووقفت جامداً في مكاني رافعاً قبعتي بصورة آلية . . كان ذلك ابي وزينايدا . كانا يخبـان جنباً الى جنب . كان ابي ينحني على فرسها ويقول لها شيئاً مبتسما واضعاً يده على رقبة فرسها . . كانت الفتاة تسمع له دون ان تجيب ، خافضة العينين ، صارّة على أسنانها . . اني لم اشاهد في البدء سواهمـــا . . بعد لحظـات ظهر بيلوفزوروف من منحرف بسترة الفرسان الحمراء . . كان جواده الأسود الجميل يزبد ويقطر عرقاً ويرفع رأسه ، ويشخر من منخريه،

ويثب وثباً متواتراً . كان الفارس يشد على لجام جواده ، كابحاً جماحه ناكزاً اياه بمهمازه .. واختبأت انا .. عاد ابي وقبض على زمام جواده وابتعد عن زينايدا وفرسها ، وراحا كلاهما يعدوان .. كان بيلوفزوروف يتعقب آثارهما ، وسيفه يحدث قرقعة ..

قلت لنفسي :

« انه احمر كجراد البحر .. لكن هي .. لماذا هي على كل ذلك الشحوب ؟.. هل لأنها أمضت الصبيحة كلها على ظهر الخيل ؟»

حثثت خطاي ، ووصلت الى البيت قبل بدء الطعام مباشرة .. كان ابي قد غير ثيابه جالساً على مقعد بجوار أمي يطالع الجريدة (صحيفة المباحثات السياسية) بصوت متساو عال . كانت امي تصغي اليه سارحة الفكر . لما رأتني بادرتني سائلة أين كنت غائباً ، وأضافت انه يغضبها ان تراني أتشرد حيث يعلم الله اين ومع من . كدت أجيب : « لكني كنت اتجول وحيداً » حينما تشابك نظري بنظر ابي ، فسكت ، ولا ادري لماذا .

-١٥-

لم أشاهد زينايدا خلال خمسة او ستة أيام . كانت تزعم انها مريضة (وكان ذلك لا يمنع المداومون على عيادتها وعلى « ان يسهروا على صحتها » كما كانوا يقولون) . كان جميعهم يحضر باستثناء مايدانوف الذي كان يغرق في كآبه حين لا يجد باعثاً مثيراً لحماسته . كان بيلوفزوروف يمكث كالحاً في زاوية ، مشدوداً في بدلته العسكرية ، زاراً سترته حتى الذقن ، قرمزي اللون . كانت ابتسامة سوء تبتسم على وجه الكونت

ماليفسكي ، كان قد فقد حظوته ، وغضب عليه ، وكان يحاول ان يقوم بخدماته الى البرنسيس العجوز بنشاط وتذلل . ألم تصل الحـــال به الى مرافقتها في عربته الى الحاكم العام ؟ الحق ، ان الزيارة لم تكن مجدية ، بل وانها انتجت مكاره بالنسبة للكونت : فقد ذكر بقصة حدثت له في الماضي مع ضابط في سلاح الهندسة . وكان عليه ان يدافع عن نفسه ، وأن يعترف بأنه برهن على عدم كفاءة .

كان من عادة لوشين ان يحضر مرتين في النهار ، لكن زياراته كانت قصيرة . ومنذ محادثنا الأخيرة بـــدأ يوحي الي بخوف مبهم وبودّ عميق في الوقت نفسه .

وفي يوم ما ، تجولنا كلانا في حديقة نيسكوتشني معاً . كان هو غاية في اللطف معي ، وكان يعدد لي اسمـــاء النبات وخواصها . وضرب على جبينه على حين غرة ، وصاح بما لم يكن له ارتباط بحديثه :

– « يا للغباء الذي كنت عليـــه ، لاعتقادي انها مغناج !.. يجب الاعتقاد ان ثمة نساء يجدن سعادتهن في التضحية ! »

سألته :

– ماذا تريد ان تقول ؟

أجاب فجأة :

– لا شيء .. لا شيء ، على الأقل يعنيك ، او يمكن ان يهمك .

كانت زينايدا تتحاشاني . كان مجرد وقوع نظرها علي يثير نفورها . كنت لا استطيع ان أدرك ذلك .. كانت تدير عينيها بسرعة آلية عني. ولأن الحركة كانت بسرعة آلية كان يشملني يأس أسود ..

كنت أحاول ألا التقي بها ، وكنت أترصدها من بعيد ، لكني كنت لا اتوفق في هذا دائماً .

كان قد أصابها طارىء غريب يستعصي على الشرح : انهــا لم تعد تلك التي كانت ، حتى في تعبير ملامحها .

وفي أمسية عذبة ، وحـــارة ، كنت جلست على مقعد تحت شجرة صفصاف .. كنت آلف ذلك المكان كثيراً ، اذ اني كنت استطيع منه ان اشاهد « نافذتهـا » . وكان بين الاوراق فوق رأسي عصفور صغير ، سريع الحركة ، يقفز من غصن الى غصن ، وكان قطٌ رمادي قـد دخل الحديقة ، منبطحاً على الارض . الجعـــلان تطن في الهواء ، والعتمـــة ما تزال شفافـــة . وكانت عينـاي مثبتــين على النافذة ، كنت أترقب .. وأخيراً فتحت النافذة على مصراعيها وبدت زينايدا . كانت ترتدي ثوباً أبيض .. ببياض وجهها وذراعيها وكتفيها .

لبثت الفتــاة فترة طويلة جامدة ، مغضنة الجبين . ثم شدت عـــلى قبضتيها بقوة ورفعتهما الى شفتيها ، والى جبينها ، وأرجعت شعرها الى ما وراء أذنيها ، وهزت رأسها بعزم ، وأغلقت النافذة فجأة .

بعد ثلاثة ايام التقيت بها في الحديقة .

قالت لي بعطف كما كانت تكلمني في السابق :

– اعطني ذراعك .. منذ زمن بعيد لم نتجاذب اطراف الحديث كلانا.

كنت انظر اليها ، كأن ضياء عذب يبرق في محاجر عينيها . وكانت تبتسم ابتسامة كأنها تطلع من خلال سحابة خفيفة .

سألتها :

– أما تزالين عليلة ؟

أجابت وهي تقطف وردة صغيرة حمراء :

– لا . الآن برئت . انني مـا أزال تعبة ، الا ان التعب سرعان ما يزول ايضاً .

– وتكونين كما كنت في العهد السابق ؟

رفعت الوردة الى خدها ، وكان ظل الوردة الحمراء ينعكس على جلدها ..

– هل تغيرت ؟

أجبت بصوت خفيض :

– نعم ، انك تغيرت .

– كنت باردة معك .. اني اعرف ذلك .. لكن ما كان لك ان تتوقف عند هذا .. لم يكن بمقدوري ان اكون على صورة اخرى .. لنطوي هذا العتاب أتريد ؟

صحت باندفاع لاإرادي :

– ألا تريدين ان احبك ؟

– بلى ، استمر على حبك لي ، لكن بشكل آخر .

– وكيف ؟

– لنكن صديقين ببساطة .

وأدنت هي الوردة من أنفي .

– اسمع ، اني أكبر منك سناً بكثير .. في امكاني أن أكون لك خالة أو عمة ، أي نعم ، أو ، على الأقل ، أختاً كبيرة .. وأنت ..

قاطعتها سائلاً بمرارة :

– أنا لست إلا صبياً ؟

– هو كذلك . أنت صبي . صبي أحبه ، طيب ولطيف ونجيب .. اسمع ، منذ اليوم اني أرفعك إلى منزلة وصيف الملكة .. ستكون وصيفي ، ولا تنسى انك بهذه الصفة يجب ألا تترك سيدتك أبداً ..

وأضافت ، وهي تضع الوردة في عروة سترتي :

– وهـــذه شارتك .. انك الآن تملك دليلا قاطعاً على رعايتنـــا وعطفنا .

تمتمت أنا :

– لقد كنت تلقيت فيما سبق براهين من صنف آخر .

صاحت زينايدا ، وهي تنظر إلي نظرة منحرفة :

– آه ! آه ! يا للذاكرة ! حسناً ، ليكن ! اني أرضخ !

وانحنت قليلا ووضعت على جبيني قبلة طاهرة ناعمة .

حين رفعت نظري اليها كانت قد دارت على عقبيها .

قالت آمرة وهي تشير إلى الجناح :

– اتبعني يا وصيف ؟

تبعتها وأنا أتساءل باستغراب :

« أمن الممكن أن تكون هذه الفتاة الخفرة والرصينة زينايدا ؟ »

كانت مشيتها ذاتها تبدو لي أبطأ من عادتها . كان في قامتها رشاقة وجلال أكثر من ذي قبل .

يا إلهي ! بأي عنف جـــديد ، اضطرمت نار الهوى في فؤادي من جديد !

- ١٦ -

بعد الطعام ، عاد المدمنون من جديد إلى البهو ، وتنازلت البرنسيس الصغيرة وخرجت من غرفتها . كانت عصابتنا بكاملها مجتمعة ، كما كانت في تلك السهرة ، التي لا تنسى ، التي كنت انضممت أنا إليها في أول مرة . كان نيرماتزسكي نفسه قد جر رجله جراً حتى الجناح . وجاء مايدانوف مع الآخرين ، وتحت ابطه قصيدة جديدة .

لعبنا لعبة الرهبان ، كما في المرة السابقة . لكن بلا جموح أو صخب . كان عنصر البوهيمية يبدو مفقوداً . وبصفتي وصيفاً كنت ألازم زينايدا أجلس حيثما تجلس ، وأقف انى تقف . واقترحت هي أن يقوم الذي يرسو عليه الرهان ، بروي منامه الأخير ، لكن هذه اللعبة لم تنجح . إذ لم يكن في المنامات أية اثارة أو مغزى (كما كان حال بيلوفزوروف ، الذي رأى في منامه انه قدم لحصانه ما لست أدري ماذا ، وأن رأس الحصان كان من خشب) ، أو أنها كانت منامات كاذبة مخترعة اختراعاً .

ثم عرض مايدانوف في قصيدته قصة كاملة : فيها مقابر ، وملائكة تحمل قيثارات ، وأزهار تتكلم ، وأصوات بعيدة وغامضة . ولم تترك زينايدا متسعاً لينهي وقالت :

– بدلاً من سماع قصة مكتوبة من الأفضل أن يخترع كل واحد منا حكاية .

وسحبت القرعة ، وطلع نصيب بيلوفزوروف مرة ثانية .

صاح الفارس بضيق ظاهر :

– لكني لا استطيع أن أخترع شيئاً !

ردت زينايدا :

– يا للبله ! تصور مثـــلا انك متزوج ، فكيف تحب أن تقضي وقتك كله مع امرأتك ؟ هل ستقفل عليها بالمفتاح ؟

– نعم ، طبعاً .

– وتظل أنت إلى جانبها ؟

– بكل تأكيد .

– حسن ، واذا ما اكتفت هي منك وخانتك ؟

– سأقتلها .

– لكن ان انهزمت ؟

– سألحق بها واقتلها .

– حسن . لنفترض اني امرأتك ، فماذا أنت فاعل ؟

سكت بيلوفزوروف .

ثم بعد دقيقة طويلة من التفكير قال :

– وسأقتل نفسي أيضاً .

صاحت الفتاة وهي تكبت قهقهة :

– اني أرى انك على الأقل تحسم الامور بسرعة .

وجاء دورها في أن تخترع قصة . رفعت عينيها إلى السقف ومكثت فترة حالمة ثم قالت :

– اسمعوا .. هذا ما وجدت .. تصوروا بهواً كبيراً فخماً ، في ليلة صيف رائعة ، وحفلة راقصة رائعة .. وصاحبـــة الدعوة هي ملكـة شابة . في كل مكان ، ذهب ومرمر ، وكريستـال ، وحرير ، ونار ،

وجواهر ، وأزهار ، ونبات عطر ، الخلاصة كل ما تستطيع العظمة أن تحلم به .

سألها لوشين :
– وهل تحبين العظمة ؟

أجابت :
– العظمة حسنة ، وأحب كل ما هو حسن .
– أكثر من حبك للجمال ؟

– إن هذا صعب ، لا أستطيع أن أجاريك ، وأن أجيبك عليه .. الآن لا تقاطعني .. كنت أقول إذن ، أن الحفلة رائعة . والمدعوون كثر . إنهم جميعاً شبان ، ظرفاء ، بسلاء ، وهائمون بالملكة حباً .

لاحظ ماليفسكي :
– آه ! آه ! أليس هناك نساء بين المدعوين إذن ؟
– لا .. انتظر .. بل يوجد .
– وهل هن جميلات جميعهن ؟
– جذابات . ومع ذلك فالرجال هائمون بالملكة . إنها طويلة ، رشيقة ، وتضع تاجاً ذهبياً صغيراً على شعرها الأسود .

كنت أنظر إلى زينايدا . كانت تبدو لي أعظم منا جميعاً . كان يشع من جبينها العاجي وحاجبيها الجامدين ذكاءً متوقداً وبصيرة متوقدة . قلت لنفسي ، رغماً عني :
« هذه الملكة .. هي أنت ! »

تابعت الفتاة تقول :
– كان الرجال جميعاً يتجمهرون من حولها ويتدافعون ويثنون على

جمالها ويحمدون خصالها .

سأل لوشين :

– هل هي تحب الاطراء ؟

– أنت غير محتمل !.. ألا تريد أن تتركني أتكلم ؟.. طبعاً إنها تحب أن تطرى ! ومن لا يحب ذلك ؟

قال ماليفسكي :

– إن لي سؤالاً أخيراً : هل الملكة زوج ؟

– إني لم أفكر في هذا .. لا . وماذا تصنع به ، بالزوج ؟

رد الكونت :

– طبعاً ، وماذا تصنع هي بالزوج ؟

صاح مايدانوف بالفرنسية ، رغم أنه كان يتكلمها بشكل رديء جداً :

– سكوت !

قالت زينايدا :

– شكراً .. وهكذا إذن فإن الملكة تصغي إلى الموسيقى ، وإلى تلك الأقوال . إلا أنها لا تخص أحداً بأنظارها بصفة خاصة .. ستة شبابيك مفتوحة من السقف إلى الأرض على سماء سوداء تضيء فيها كواكب كبيرة ، وعلى حديقة معتمة بدوحاتها العظيمة . وفي الحديقة بين الأشجار حوض بفوارة ، يظهر بنطاقه المرتفع الأبيض كشبح . ومن خلال الأصوات والموسيقى يصل إلى سمع الملكة خرير الماء . وتقول هي في نفسها : « يا سادتي النبلاء ، أنكم نجباء شرفاء ، وتزعمون أنكم على أهبة لتموتوا عند قدمي .. وإن لي عليكم سلطاناً لا حد له .. لكن هل تعلمون أن هناك إلى جانب هذا الحوض حيث

تخر المياه بهذا التناعم ، ينتظرني الذي أحب ، وإن له علي سلطاناً لا حد له .. إنه لا يلبس الحرير والدمقس ولا يتقلد الجواهر والأحجار الكريمة . إنه مجهول ، لكنه ينتظرني ، ويعرف أني سأجيء . . وسأجيء . . ليس من قوة في العالم تستطيع أن تمسك بي حين أريد أن أذهب لملاقاته والبقاء إلى جانبه ، والضياع من هناك مع حفيف أوراق الشجر وأغنية العين .

وسكتت .

سأل الكونت بكر :

– أهذه قصة مخترعة فعلاً ؟

لم تتنازل زينايدا حتى أن تشرفه بنظرة .

– وماذا كنا نفعل يا سادتي لو أننا كنا من جملة أولئك المدعوين وأننا كنا نعرف بوجود ذلك السعيد الفاني الذي ينتظر إلى جانب الحوض ؟

ردت زينايدا :

– ماذا كنتم تفعلون ؟ انتظروا سأقوله لكم .. بيلوفزوروف يدعوه للمبارزة . . مايدانوف يهجوه بقصيدة . . فيرماتسكي يقترض منه مالاً .. وأنت يا دكتور ..

وتوقفت ثم :

– لست أدري ماذا كنت تفعل ..

– بصفتي الطبيب الملحق بخدمة صاحبة الجلالة كنت أشير عليها باحترام ألا تقيم حفلات راقصة عندما يكون شاغل آخر يشغلها .

– ربما تكون على حق .. وأنت ، يا كونت ؟

رد الكونت بابتسامة صفراء :

– وأنا ؟

– لكنت قدمت له سكرة مسمومة ..

انقبض وجه الكونت فترة ، ثم اتخـــذ تعبيراً خبيثـاً وانفجر في ضحك متقطع .

– أما أنت يا سيد فولديمار .. الخلاصة ، لنلعب لعبة أخرى ..

قال ماليفسكي بسخرية شريرة :

– أما السيد فالديمار ، بصفته وصيفاً ، فكان عليه أن يحمل ذيل ثوب صاحبة الجلالة ليساعدها علي الفرار .

كدت أنفجر غضباً لو لم تضع زينايدا يدهـــا على كتفي . وهبت واقفة لتعلن بصوت مرتجف بعض الارتجاف :

– اني قط لم أسمح لسموك أن يكون وقحـاً ، لذلك أرجوه أن ينسحب .

وأشارت إلى الباب .

شحب وجه الكونت وتمتم :

– لكن ، برنسيس .

أيد بلوفزوروف ونهض وهو يقول :

– البرنسيس معها الحق .

تمتم ماليفسكي :

– فعلاً .. كنت لا أعتقـد .. كنت لا أريـــد أن أجرحك .. اصفح عني ...

ألقت زينايدا عليه نظرة باردة ، وابتسمت ابتسامة قاسية ، وقالت بحركة ازدراء :

– ليكن ، ابق .. لقد أخطـأنا ، السيد فولديمار وأنا ، حـــين

غضبنا .. إن كان يسرك أن تصب سمك .. اني لا أرى مانعاً من طرفي !

اعتذر الكونت مرة اخرى :

– اني استميحكم الصفح .

أما أنا فكنت أستعيد حركة زينايدا وأقول في نفسي : لم يكن في وسع ملكة حقيقية أن تشير إلى الباب بمثل تلك الحركة الجليلة لشخص تعدى الحدود .

لم تستمر لعبة الرهان طويلا بعد ذلك الحادث : كان الحاضرون جميعاً يشعرون ببعض الضيق ، لا بسبب الحادث نفسه ، إنما من جراء ارتباك مبهم ، يستعصي على الشرح . وما كان يعترف أحد به ، إلا أن كل واحد كان يشعر به .

قرأ مايدانوف لنا شعراً ، وأثنى ماليفسكي عليه بافراط .

أسرّ لوشين لي :

– انه يريد أن يبدو حبّياً حق بأي ثمن .

وتفرقنا بعد ذلك بفترة وجيزة جداً . إذ لبثت زينايدا ساكنة وغرقت في أحلامها ، واشتكت أمها من أوجاع رأسها ، وأخذ فيرماتزسكي يتوجع من داء المفاصل ..

بتُّ طويلاً وأنا لا أتمكن من النوم ، مضطرباً بسبب رواية زينايدا . كنت أتساءل :

« هل من الممكن ان تحتوي تلك القصة على شذرات من الحقيقة ؟.. عمن ، عمّاذا كانت تريد ان تتحدث ؟.. واذا كان ثمة من نار تحت الرماد ، فأي قرار يجب علي ان اتخذ ؟.. »

كنت أتقلب وأتقلب في سريري ، ناري الخدين ، وأردد :

« لكن لا ، لكن لا ، هذا لا يمكن ان يكون .. »

ثم عاد الى ذاكرتي تعبير وجهها وهي تتكلم . . وتذكرت الصرخة التي فلتت من لوشين في حديقة نيسكوتشني ، وتغير الفتاة المفاجيء تجاهي .. كانت الافتراضات تضيمني ..

« من هو إذن ؟ »

كانت هذه الألفاظ الثلاث تتراقص امام عيني في الظلمة .. كنت ارزح تحت ثقل غيمة واطئة وسوداء ، وكنت انتظر ان تتحول الى زوبعة في أية لحظة ..

كنت قد لاحظت جملة من الأمور عند آل زاسيكين منذ أن بدأت أرتاد الجناح الصغير ، وتعودت منهم على اشياء كثيرة : على الفوضى ، على قطع الشموع الوسخة ، على شوكات الطعام المكسرة الأسنان ، على السكاكين المثلومة ، على تجهم سحنة بونيفاس ، على قذارة الخادمة ، على تصرفات البرنسيس العجوز الشاذة .. وكان ثمة امر رغم ذلك ، لم استطع ان أتعوده : التغير الذي كنت ألمسه ضمناً في زينايدا ..

كانت أمي قد أتهمتها في يوم بأنها مغامرة .. مغامرة ، هي ، معبودتي ربتي ! كانت تلك الصفة تحرقني ، تستشيطني غيظ .. كنت أود لو أغرز رأسي في الوسادة .. وفي الوقت نفسه ، كنت أدفع اي شيء كي اكون مكان ذلك السعيد الفاني الي جوار الحوض !

وتوثب دمي في عروقي :

« الحوض في الحديقة .. ماذا لو ذهبت الى هناك ؟ »

ارتديت بعجلة ، وتسللت خفية خارج المنزل . . كان الليل حالك السواد ، وكان يصدر عن الأشجار حفيفاً يكاد لا يسمع ، وكانت رطوبة ندية خفيفة تهبط من السماء ، وكانت رائحة البقدونس تفوح من البستان..

درت في كل الممرات ، كان صدى وقع خطواتي يرعبني ويهيجني في الوقت نفسه . كنت أتوقف ، وأرصد دقات قلبي ، السريعة والمنتظمة .. وأخيراً اقتربت من السياج ، واستندت على وتد . . وبغتة مرّ شبح امرأة مرّاً سريعاً على بعد خطوات مني – ربما انه كان أضغاث أحلام : كنت لا أدري ماذا افكر .. كنت أحاول ان أثقب الظلام بنظري وحبست أنفاسي .. من كانت هي تلك ؟.. هل كان ذلك وقع خطوات أم كان ذلك خفقان قلبي ؟

همست بصوت مرتجف مرتعش :

– من هناك ؟

قد يكون ضحكاً مخنوقاً .. وقد يكون وشوشة الأوراق . . وقد يكون زفرة قريبة جداً من اذني ؟.. وشعرت بالخوف ..

أعدت مرة ثانية بصوت لا يكاد يسمع :

– من هناك ؟

مزق خيط من شهب السماء : افلتت نجمة .

كان بودي ان اصيح ، لكن الصوت تلاشى على شفتي :

– زينايدا !

وبغتة ، كما يحدث غالباً في وسط الليل ، ساد صمت عميق من حولي.. حتى الزيزان سكتت على الأشجار ، ولم أسمع سوى حركة تأكدت أنها نافذة قد أغلقت . . انتظرت فترة ثم رجعت الى غرفتي ، وعلوْت سريري البارد .

كنت فريسة هيجان غريب ، كما لو كنت قد ذهبت الى موعد ، واني حاذيت فيه ، وحدي ، سعادة الغير .

وفي اليوم التالي ، لم أتمكن سوى أن ألمح زينايدا لمحة عابرة : إنها ذهبت في العربة مع البرنسيس العجوز . وعوضاً عنها التقيت بلوشين – الذي تنازل بجهد أن يسلم علي ، وبماليفسكي . ابتسم الكونت الشاب لي وراح يتحدث معي حديث الصاحب الطيب . كان هو وحده من جميع المدمنين على الجناح الذي توفق في الدخول إلى منزلنا ، وأن يحبب نفسه من أمي . كان أبي لا يعتبره كثيراً ، ويعامله بلطف وتصنع منسوخ عن الوقاحة .

قال ماليفسكي :

– آه ! آه ! يا سيدي الوصيف .. إني مسرور للقياك . ماذا جرى على ملكتك الفاتنه ؟

كان ينظر إلي بدعابة هازئة ، وكان وجهه المتخنث الظريف قد قزز نفسي إلى درجة أني لم أرد عليه .

تابع يقول :

– أما تزال غاضباً ، أنت مخطىء . لم يكن أنا هو الذي رفعك إلى منزلة وصيف .. هل تعرف أن واجبك يقضي عليك أن تتبع الملكة في كل مكان ، دائماً . واسمح لي أن أنبهك أن الوصفاء لا يتركون الملكة أبداً ، وإن من واجبهم أن يترصدوها .. نهاراً وليلاً .

– ماذا تقصد بقولك هذا ؟

– لكن لا شيء إطلاقاً !.. أنا لا أبطن شيئاً .. في النهار وفي الليل .. ففي النهار تجري الأمور من تلقاء نفسها : بسبب الضياء ، وبسبب وجود الناس الآخرين .. إنما في الليل بصورة خاصة ، يجب فتح العين ، العين البصيرة .. لو كنت في مكانك لما نمت ولا أمضيت ليلي في الترصد بحذر .. أذكر قصة الحوض : ينبغي عليك أن تتوقف

عندها وأن تطوف ليلاً .. وستشكرني على نصيحتي ..

وانفجر في الضحك وأدار لي ظهره ، غير معلق أهميـة كبرى على الأغلب لإرشاداته الخاصة التي جاد علي بها .

كان للكونت سمعه مشهور بها ، وهي قدرته على السخرية بالنـاس بالتهريج ، يساعدة على تعريضه الكذب ، اللاإرادي تقريبـاً ، الذي ينبجس من كل مسامه .

لقد كان يريد أن يمازحني فقط ، غير أن كل كلمة من كلماته سرت في عروقي كالسم الزعاف . وأسرعت نبضـات قلبي وارتفع الدم إلى رأسي ، وصرخت عالياً وأنا أضرب على صدري :

-- آه ! حسن . لم يكن عبثاً إذن تلك الجاذبية التي تشدني إلى الحديقة ! إذن لن يحدث مرة أخرى !

الحق يقال ، إني ما كنت أعرف ما هو ذلك الذي يجب ألا يحدث مرة أخرى .

« سواء أكان ماليفسكي الذي ينتظر عند الحوض (وربما أن لسانه قد زلق . إذ أنه يمكن أن ينتظر من وقاحته أي شيء) أم كان شخصاً آخر (فإن سياج الحديقة واطىء وسهل الاجتياز) فإن للأمر أهمية ضئيلة ، إنما إيّاه ثم إيّاه أن يقع تحت يدي ! إني لا أريـد أن أكون في موضعه ، ولا أتمنى ذلك لدي أحد ! سأبرهن للعالم أجمع ، ولناكثة العهد (هكذا وصفت زينايدا) إني أعرف أن أنتقم ! »

صعـدت إلى غرفتي ، فتحت درج طاولتي ، وتنـاولت موسىً انكليزياً كنت اشتريته حديثاً ، جربت حد نصله ، ووضعته في جيبي بحركة باردة وعازمة . لو أن مشاهداً رآني لاعتقد أني كنت معتاداً على تلك الطريقة في تصفية الحسابات . كان قلبي يطفح بالحقـد ، ويتوتر

ويبدو كأنه قدّ من صخر أصم : حتى المساء بقيت أتلافى فتح فمي وإزالة تغضن جبيني . كنت أروح وأغدو ، ويدي في جيبي قابضة على الموسى ، أقلب في ذهني أفكاراً مروعة .

الحقيقة أن تلك العواطف الجديدة ملكت عليّ رشدي إلى درجة لم أعد أفكر معها بزينايدا .. كنت استدعي صورة اليكو ، البوهيمي الشاب : « إنك ملطخ بالدماء ، ماذا فعلت ؟... » « لا شيء البتة !.. » بأية ابتسامة قاسية كنت أردد « لا شيء البتة ! »

كان أبي قد خرج ، وكانت أمي ، التي كانت منذ بعض الوقت في حالة عصبية دائمة ، قد انتهى الحال بها إلى أن لاحظت سوداوية مزاجي ، وسألتني :

– ماذا بك إذن ؟ كأنك بلعت حنشاً .

اكتفيت بأن ابتسمت ابتسامة خفيفة مترفعة ، وأن أقول في نفسي :

« آه ! لو كانوا يعلمون .. »

دقت الساعة الحادية عشرة ، وذهبت إلى غرفتي ، ولم أنزع ثيابي : كنت انتظر نصف الليل .

اثنتي عشرة دقيقة ..

قلت لنفسي بصوت خفيض ، وأنا أصر على أسناني :

« لقد أزفت الساعة !.. » زررت سترتي حتى الذقن ، ورفعت كمي ، وهبطت إلى الحديقة .

كنت قد تصوّرت سلفاً المكان الذي سأجعله كميناً لي . عند صفصافة منعزلة في آخر الحديقة حيث السياج يفصل بين أرضنا وأرض آل زاسيكين ، بحائط مشترك . هناك ، كان بامكاني أن أشاهد كل ما

يجري من حولي وألا أشاهد ، في مخبأي بين الأغصان المتدلاة ، بنسبة ما تسمح الظلمة به ، على الأقل .

تسللت تحت الشجرة ، ولبثت في وضع الاستعداد والمراقبة ، مسنداً ظهري إلى جذع الشجرة .

كانت الليلة صافية ، كما كانت في عشية الأمس ، إلا أن السماء كانت مغطاة بسحب أقل ، وكان يمكن ان يميز بدقة اكثر إطار دغل الشجيرات وبعض أزهار عالية . بدت لي دقائق الانتظار الأولى عسيرة ، وتكاد تكون مفزعة . كنت مستعداً لأي شيء ، وكنت افكر في المسلك الذي سأسلكه : هـل يجب علي ان أصرخ صرخة مرعدة : « الى أين أنت ذاهب ؟ لا تخطو خطوة أخرى ! اعترف وإلا قضيت نحبك ! » أم ان الأولى ان اضرب بسكوت ؟ كانت كل نأمـة او كلما حركت الريح ورقة شجرة ، أعطاها خيالي معنى خارقاً .. كنت ارصد ، منحنيـاً الى الأمام .. ومضت نصف ساعة على هذا النحو ، ثم ساعة . وهدأت فورة دمي ، وبدأت فكرة ماكرة تتحرك في خاطري :

« واذا ما كنت قد أخطأت في تقديري ، واذا ما حللت بما يستحق الضحك ، واذا ما كان ماليفسكي قد هزأ بي ؟.. »

تركت مخبأي ورحت أدور في الحديقة . لا صوت في أي مكان ، الكل ساكن . كان كلبنا يغط في النوم أمام عتبـة المدخل .. وصعدت على تلة الخراب ، وألقيت نظرة على الحقول الممتـدة على مدى البصر ، وتذكرت لقائي مـع زينايدا ، في ذلك المكان بالذات ، وسرحت مع خواطري ..

وفجأة ارتعشتُ . . إذ خيـل إلي اني سمعت صرير باب يفتح . ثم حركة انبعثت من غصن يابس .. وبقفزتين وجدتني في أسفل ، جامداً في

مكاني .. وسمعت وقع خطوات خفيفة وسريعة لكن بحذر ، في الحديقة . كان شخص يقترب .. « هـذا هو .. أخيراً ! » وبحركة خاطفة انتزعت الموسى من جيبي وفتحته .. كانت تتطاير شرارات حمراء أمام عيني ، وكان شعري ينتفض غضباً وغيظاً .. كان الرجـــل يأتي نحوي تواً .. وانحنيت مستعداً لأنقض عليه .. يا إلهي ! .. كان ذلك أبي !

رغم انه كان متدثراً تماماً في معطفه الأسود ، ومغطيـاً عينيه بقبعته إلا اني عرفته من اول وهلة . ومر من امامي على مقدمة قدميه دون ان يلحظ وجودي ، رغم انه لم يكن مـا يخفيني عن نظره .. إلا اني كنت متجمعاً على بعضي على صورة منبسطة مع سطح الارض تقريباً .. وعاد اوتيلو الغيور المستعد ليقتل عاد تلميذاً .

أخافني ظهور أبي خوفاً جعلني أعجز عن ان أحدد من أين كان قادماً ، وفي أية جهة غاب . وعندمـــا سكن روعي وساد الصمت من حولي تساءلت مشدوهاً :

« ترى لماذا يتجول ابي ليلاً في الحديقة ؟ »

ونتيجة لذعري تركت الموسى يقع من يدي ، ولم ابحث عنـه لشدة الارتباك الذي كنت عليه .. كانت المفاجأة أقوى ممـا كنت احتمل ، وكنت فاقد الصواب تماماً ..

ومع هذا ، فحين سلكت طريق العودة ، اقتربت من المقعـــد تحت شجرة الصفصاف ، وألقيت نظرة على شباك زينايدا ، كان الزجاج يعكس ضياء السماء الليلية الأزرق الباهت .. وبغتة سطع ضوء .. كانت يد تنزل ببطء ، رويداً رويداً ــ كنت أشاهدها بوضوح ــ وكان ينزل معهـا ستار حتى أسفل النافذة ، ولم يعد يتحرك . « أي منى لهذا ؟ »

عندما دخلت غرفتي ، ألقيت السؤال بصوت مرتفع رغماً عني :

« أي معنى لها ؟. هل حلمت ؟.. أهي اتفاقات أم .. »

كانت شكوكي غريبة وغير منتظرة الى درجة ما كنت أجرؤ ان أتوقف عندها ..

- ١٨ -

استيقظت مع وجع رأس عنيف . كان اضطراب العشية قد زال ، تاركا مكانه لشعور من شدة وأسى مضني ، لم أشعر بمثله قط .. كأن شيئاً كان يموت في داخلي ...

سألني لوشين حين التقيت به :

- لماذا تبدو هيئتك كأرنب بتر نصف مخه ؟

أثناء طعام الغداء كنت أختلس النظر إلى أبوي بالتناوب . كان أبي هادئاً كعادته . وكانت أمي ثائرة من كل شيء ومن لا شيء .

كنت أتساءل إن كان أبي لن يحادثني بصداقة ، كما كان يحدث له من تارة إلى أخرى .. لكن لا ، اني لم أنل منه حتى ذلك الود البارد الذي يخصني به عادة كل يوم .

وتساءلت :

« هل يجب أن أقول لزينايدا ؟ ما هي ، بما ان كل شيء قد انتهى بيننا .. »

قصدت بيتها ، الا اني لم أتمكن من أن أفضي اليها بعزيمتي على

القطيعة ، بل لم استطع أن أكلمها بما كنت قد وطدت العزم عليه .

كان أخوها ، وهو في الثانية عشرة من عمره ، والتلميذ في مدرسة المستجدين العسكرية في سانت بترسبورغ قد حضر لتوه ليقضي العطلة عند امه .

قدمته زينايدا إلي قائلة :

– هنا رفيق لك يا عزيزي فولوديا (وكانت تلك هي المرة الأولى التي تخاطبني فيها على تلك الصورة) . انكما تحملان اسماً مماثلا . كونا صديقين . اني أطلب ذلك اليك . ان أخي ما يزال متوحشاً قليلاً ، إلا أن قلبه صاف .. خـذه معك إلى حديقـة نيسكوتشني ، تجولا سوية ، خذه تحت جناحك .. انك تريد ، أليس كذلك ؟ أنت جد لطيف .. »

ووضعت يدها على كتفي ، لم أجد ما أجيبها به . ان مجيء ذلك الصبي حولني أنا نفسي إلى تلميذ . كنت أنظر اليه بصمت ، وكان هو من ناحيته يتأمل في وجهي ولا يقول شيئاً .

انفجرت زينايدا بالضحك ، وهي تدفعنا إلى بعضنا البعض :

– هيا ، تبادلا القبل ، يا ولدي !

وفعلنـــا .

اقترحت أنا على الأخ الصغير :

– هل تريد أن أقودك إلى الحديقة ؟

أجابني بصوت اجش عسكري :

– إن كنت تريد ، يا سيدي .

وانفجرت زينايدا بالضحك مرة ثانية .

وواتاني الوقت كي ألاحظ انه لم يسبق لوجهها إن كان مشرباً بمثل تلك الألوان الحية من قبل .

خرجت مع رفيقي الجديد . كان في الحديقة ارجوحة قديمة . أجلسته عليها وجعلت من واجبي أن أهزه . كان هو يجلس صلباً في بدلته العسكرية الجديدة المصنوعة من الجوخ السميك ، وكان يقبض على الحبال بعزم .

صحت أنا :

– فك الأزرار عند رقبتك .

أجابني هو متنحنحاً :

– هذا لا شيء يا سيدي ، أننا لمتادون .

كان يشبه أخته كثيراً – خاصة عيناه – . كان يسرني طبعاً أن أقدم له خدمة ، لكن الأسى كان مستمراً في قرض قلبي . قلت في نفسي ؟

« الآن إني صبي حقاً . أما البارحة .. »

تذكرت المكان الذي تركت فيه الموسى ، وتوفقت في العثور عليه . وطلبه الصبي مني ، وانتزع قصبة غليظة وشذبها وحملها إلى شفتيه .. وقلده أوتيلو على الفور ..

لكن كم من دموع سكبها أوتيلو هذا نفسه عند المساء بين ذراعي زينايدا عندما التقت به في ركن منعزل في الحديقة وسألته عن سبب أساه !

كانت هي تردد :

– لكن ماذا بك ؟.. ما بك إذن يا فولوديا ؟

حين رأت أني كنت أرفض بعناد الإجابة عليها واستمر في البكاء ، وضعت شفتيها على خدي المبلل بالدمع . فأشحت بوجهي عنها وأنا أتمتم من خلال شهيقي :

– إني أعرف كل شيء .. لماذا اتخذتيني ألعوبة ؟ أية حاجة لك في حبي ؟

– نعم ، أنا مذنبة تجاهك يا فولوديا ..

وأضافت وهي تعقف ذراعيها :

– أوه ! أنا أثيمة .. إن لفي نفسي قوى غامضة وشريرة ، وكثيراً من الخطايا .. الآن ، إني لم أعد ألعب بك . إني أحبك ، إنك لن تستطيع أن تدرك لماذا ولا كيف .. لكن حدثني إذن ماذا تعرف ؟

ماذا كنت أستطيع أن أقول لها ؟ كانت هي أمامي ، تواجهني وتتفرسني .. وما يكاد نظرها يغوص في عيني حتى أني كنت أملكها كياني كله جسداً وروحاً ..

ولم تكد تمضي ربع ساعة حتى أني كنت أعدو مع الأخ الصغير وزينايدا .. كنت لا أبكي ، بل كنت أضحك ، وكانت دموع الفرح تسقط من أجفاني المنتفخة .. كان شريط شعرها يقوم مقام ربطة العنق . كنت أطلق صرخات الفرح الشديد كلما كنت أنجح في القبض على الفتاة من خصرها ..

كانت هي تستطيع أن تفعل معي كل ما كانت تريد ..

- ١٩ -

قـــد يبكني كثيراً إذا ما طُلب إليّ أن أروي تفاصيل كل ما خالجني خلال الأسبوع الذي أعقب تجربتي الليلية الباطلة . كان عهداً ، بالنسبة لي ، غريباً وخارقاً ، صنفاً من العماء ، حيث كانت تتراقص في نفسي العواطف الأشد تنـافراً والأفكار والريب والمسرات والأحزان . كنت أخاف أن أعكف على دراسة نفسي في حدود ما كنت أستطيع أن أفعله وأنا في السادسة عشرة . كنت أخشى أن أكتشف عواطفي الشخصية . كنت أتعجل مضي النهار . وفي الليـــل ، كنت أنام .. في كنف غفـــلة الفتوة . كنت لا أريد أن أعرف أن كنت محبوباً ، وكنت لا أجرؤ على الاعتراف بعكس ذلك .

كنت أتحاشى أبي .. لكني ما كنت أستطيع أن أفر من زينايدا .. كان ضرب من النار تلتهمني بقربها .. لكن ما جدوى معرفتي بتلك اللهب التي كانت تذيبني ؟.. كنت استسلم لجميع المؤثرات ، إلا أن الصراحـــة نحو نفسي كانت تنقصني . كنت أدير عيني عن ذكرياتي ، وأغمض عيني عن كل ما كان قلبي يحدثني به عن المستقبل ..

إن تلك الحالة من التوتر ما كان لها طبعاً أن تدوم طويلاً .. فقد وضع قصف رعد حداً لكل هذا .. ووجهني إلى طريق جديدة ..

ففي مرة كنت أعود الى النداء ، بعد نزهة بعيدة ، علمت لاستغرابي اني سأجلس على المائدة وحدي : كان ابي غائباً ، وكانت امي ، مريضة مختلية في غرفتها ، مقفلة بابها . كانت سحنات الخدم تنبئني ان شيئاً خارقاً قد حدث ..

كنت لا اجرؤ على استنطاقهم . لكني بما اني كنت على خير صلة مع فيليب رئيس الخدم الشاب والصياد الكبير وصديق القيثار ، فقد انتهيت بأن وجهت سؤالي اليه .

أعلمني أن مشاجرة عنيفة وقعت بين والديّ . وان الخدم سمعوا كل شيء حتى آخر كلمة ، وان كثيراً من الاشياء قد قيلت بالفرنسية ، إلا ان ماشا الخادمة ، التي كانت قد قضت خمسة اعوام في باريس في خدمة خياطة ، قد فهمت كل شيء . ان امي اتهمت أبي بخيانته لها ، وانها لامته على لقاءاته المتكررة لجارتنا الشابة . وقد دافع ابي عن مسلكه في اول الامر ثم انفجر فجأة ، وتلفظ بكلمات قاسية جداً ، لها علاقة « بعمر مدام » . وهذا ما جعل أمي تذرف الدموع .

ثم عادت امي فألحت عن سند حوالة كانت قد أعطته الى البرنسيس العجوز ، وان امي سمحت لنفسها بادلاء ملاحظات مهينة ، قاسية عنها وعن ابنتها . وعند هذا الحد هددها أبي .

وأضاف فيليب :

– ان الشر كله جاء من رسالة مغفلة التوقيع .. ولا يدري احد بعد من هو كاتبها ، ولولاها لظلت القضية مكتومة .

تلفظت بشقة وأنا احس بتجمد في زراعي وساقي بينما ارتجف شيء في اغوار صدري :

– ترى هل حدث بينهما شيء حقاً ؟ .

غمز فيليب بعينيه مؤكداً :

– ماذا تريد ، انها قصص لا يمكن أن تظل إلى الأبد في طي الكتمان .. مهما كان والدك يتخذ من حيطة وحذر .. غير انه اضطر مثلاً على أن يستأجر عربة .. ولا يمكن الاستغناء عن الخدم أبداً .

صرفت فيليب وارتميت على سريري ..

كنت لا أبكي ، ولا كنت مستسلماً لليأس . ولم أتساءل متى وكيف ذلك . كنت حتى لا أتهم أبي .. ان ما كنت قد أخبرت به كان أقوى من قواي ، من أن تتحمله مقاومتي .. كنت مسحوقاً ، متلاشياً .. كان كل شيء قد انتهى .. كانت ازهاري الجميلة واقعة ، مبعثرة ، ذابلة ، مداسة بالأقدام .

- ٢٠ -

أعلنت امي في اليوم التالي انها سترحل الى المدينة .

ذهب ابي اليها في غرفتها ، ومكثا طويلاً لوحدهما . لم يسمع احد ما قالاه لبعضهما ، إلا ان امي ما كانت تبكي . وغدت بعد ذلك اكثر هدوءاً بصورة جلية وطلبت طعاماً . بيد أنها بقيت لا تتزحزح في عزيمتها ، ولم تخرج من الغرفة .

أمضيت نهاري متسكعاً مغضباً ، لكن لم انزل الى الحديقة وتحاشيت ان ألقي نظرة نحو الجناح .

عند المساء ، شاهدتُ حادثة غريبة : كان ابي يقود ماليفسكي في الدهليز من ذراعه ويعلن له بصوت قاطع امام الخدم :

ـ منذ ايام اشير الى الباب في احد البيوت الى سموك . اني لا أريد شرحاً الآن ، إلا انه يهمني ان اعلمك انك اذا ما عدت الى منزلي فإني سأخرجك من النافذة .. ان حظك لا يعجبني كثيراً ..

انحنى الكونت وصر على أسنانه ، وأدخل رأسه بين كتفيه وانسحب خافض أذنيه .

شرعنا في إعداد العدة للرحيل . كنا نملك منزلاً في موسكو في حي دارابات . كان من الواضح ان ابي لم يعد يرغب في إطالة إقامتنا في الفيلا ، بيد انه نجح في إقناع أمي بألا تثير فضيحة .

كان كل شيء يسير بلا تلهوج كاذب . كلفت امي من يقول للبرنسيس العجوز وداعها معتذرة عن زيارتها قبل رحيلها بسبب حالتها الصحية.

كنت أنا أتيه ، كروح معذبة ، متسلطة . رغبة واحدة لي : هو ان ينتهي كل ذلك بأسرع ما يمكن . وكانت تلاحقني فكرة مع ذلك :

كيف استطاعت هذه الفتاة ، التي هي فضلاً عن ذلك برنسيس ، ان تقبل بارتكاب ذلك الفعل ، وهي عالمة ان ابي لم يكن حراً ليتزوجها ، وان بيلوفزوروف من ناحية أخرى ، عرض عليها الزواج ؟ على ماذا اعتمدت ؟ كيف انها لم تخف ان تقضي على مستقبلها ؟.. ان ذلك هو الحب الحقيقي حقاً ، الهوى الحق ، الإخلاص بلا حدود ..

وعادت الى ذاكرتي كلمة لوشين : « ان ثمة نساء يجددن سعادتهن في التضحية ..»

لمحتُ بقعة بيضاء في الشباك المواجه لي .. زينايدا ؟.. كانت هي هي .. لم أعد استطيع أن أتماسك .. كنت لا استطيع ان انفصل عنها بلا وداع أخير .. وترصدت لحظة ملائمة وجريت الى الجناح .

استقبلتني البرنسيس العجوز في البهو ، قذرة ، مهملة ، حسب عادتها .

سألتني وهي تستنشق بالنشوق :

ــ كيف جرى ان أبويك يرحلان منذ الآن ؟

نظرت اليها وسرعان ما اطمأننت .. « الرسالة » التي ذكرها فيليب.. لكنها لم يصل الى علمها شيء.. أو على الأقل ، ذلك ما ظننت .

ظهرت زينايدا على عتبة الحجرة المجاورة ، متشحة بالسواد ، شاحبة، فالتة الشعر .. تناولت يدي وأخذتني معها دون ان تقول شيئاً .

ولما خرجنا شرعت تخاطبني :

– سمعت صوتك وخرجت على الفور .. ماذا إذن ايها الصبي الشرير ، هل تقدر على فراقنا بهذا اليسر ؟

تمتمت انا :

– اني جئت لأقول لك الى الملتقى .. يا برنسيس .. وربما الوداع .. لعلك علمت لا شك برحيلنا ..

أثبتت عينيها في عيني :

– نعم ، لقد قيل لي ذلك . شكراً لأنك جئت . حسبت اني لن أراك . لا تحتفظ بذكرى سيئة عني . لقد عذبتك أحياناً ، ومع ذلك ، انا لست ما تعتقد أن أكون .

أدارت هي ظهرها واستندت على الشباك :

– لا ، انا لست ذلك الشيء . . . اني اعرف انك تفكر شراً عني ..

– أنـــا ؟!

– نعم ، أنت .. أنت ..

أعدت بمرارة ، وعاد قلبي يرتجف من جديد مغموراً بسحرها الغامض الطاغي :

– أنا ؟.. أنا ؟.. مهما فعلت يا زينايدا اليكسندروفنا ، ومهما كانت

الآلام التي يجب أن أعانيها منك ، اعلمي جيـداً اني سأحبك وسأعبدك حتى آخر أيامي .

التفتت بغتـــة نحوي ، وفتحت ذراعيهـــا وطوقت رأسي وقبلتني بحرارة .. الله يعلم الى من كانت تلك القبلة موجهة ، غير اني تمتعت بنهم بعذوبتهـا .. كنت أدرك انها لن تعاد أبداً .. الوداع .. الوداع ..

نزعت نفسها من عناقي وابتعدت . وانسحبت انا بدوري ..

ليس في وسعي ان اعـبر عن الشعور الذي كان يعتلج بين جوانحي في تلك الفترة . بودي ألا أتذوقه مرة ثانية ، بيد اني اعتبر نفسي شقياً لو اني لم أعرفه ابداً .

ورحلنا .

وبقيت زمناً دون ان استطيع التخلص من الماضي ، والانكباب على الدرس . ثم التأم الجرح ، لكن رويداً رويدا .

والغريب في الأمر ، اني لم احمل أي غل تجاه ابي . بل على العكس كان اعتباري له قد ازداد . . اني اترك لعلمـــاء النفس مهمة استنفاد وسعهم في تحليل هذه الظاهرة المتناقضة – اذا استطاعوا .

وفي يوم جميـل ، كنت أتجول في الشارع ، التقيت بلوشين ولم أخف بهجتي . كنت أميل اليـه بعاطفة سامية لخصاله المستقيمة والوفية . فضلاً عن انه كان يثير في قلبي كثيراً من الذكريات العزيزة . واندفعت نحوه.

قال وهو يقطب حاجبيه :

آه ! آه ! هذا أنت يا شاب .. انتظر قليـــلا ربما أتفحصك .. نعم .. البشرة ما تزال شاحبة قليلا الا أن العينين لم يعـد فيهما ذلك البريق الوبيل .. انك لم تعد تشبه كلباً وفياً مروضاً ، إنما صرت تشبه

رجلا متفانياً في سبيل سيده . أحب هذا .. والآن ماذا تفعل ؟ هل تجتهد على دروسك ؟

صعدت زفرة . كنت لا أريد أن أكذب ، الا أنه كان يخجلني أن أعترف بالحقيقة .

– هيا ، هيا ، لا ترتبك .. ليس لهذا أهمية كبيرة .. المهم ، أن يكون المرء سلوك حيـاتي طبيعي ، وألا تنجرف وراء الهوى . ذلك سيء .. سيء جداً .. يجب ألا تحملك موجة : الأفضل الالتجـاء إلى صخرة والتوفيق في الوقوف بتوازن .. أما أنا ، فاني أقح .. انـــك ترى .. بالمناسبة ، هل تعرف ماذا جرى على بيلوفزوروف ؟

– لا ، اني لا أعرف .

– اختفى ، سمعت انه رحل إلى القفقاس . ليكن هـــذا الدرس عبرة لك يا شاب .. وكل ذلك يتـــأتى من ان المرء لا يعرف أن يتخلص من أشباكه . أما أنت .. فأظن انك خرجت سليماً .. إنمـا أحذر مرة أخرى .. لا تترك نفسك تؤخذ .. الوداع !

قلت لنفسي :

« لن اترك نفسي تؤخذ بعد تلك المرة ... ولن أراها أبداً . »

وشاء القدر غير ذلك . كان يجب علي أن ارى زينايـــدا ، مرة أخرى .

- ٢١ -

كان أبي يخرج لنزهة على جواده يومياً . كان عنـــده حيوان جميل انكليزي ، أصهب ، معناق باسق بعراقيب طويلة . كان أبي وحـــده الذي يستطيع أن يركبـه . وفي مرة ، دخل غرفتي وسرعـــان ما لاحظت أن مزاجـــه كان باشاً . وكان ذلك لم يحدث له منـــذ زمن طويل . كان هو على وشك الخروج ، وقد أرتدى بدلة ركوب الخيل وحمل مهمازيه . طلبت اليه أن يأخذني معه . فرد علي :

– انك لن تستطيع أن تتبعني راكباً حمارك .

– وكيف ! سترى ، اني سأضع مهمازي مثلك .

– ليكن ، تعال ، ان كان ذلك يسرك .

وانطلقنـــا . كنت أمتطي حصاناً صغـــيراً أدهم حالكاً ، كثير الشعر ، صلبـــاً ونشيطاً . كنت أبذل غـــاية جهدي وكنت اتجرجر وراء أبي .

اني قط لم أشاهد فارساً مثل أبي . كان يعلو صهوة الجواد باناقـــة طليقة حتى يخيل للرائي أن الجواد نفسه يدركهـا ويزهو بفـــارسه . وقطعنا جميع الشوارع ، ودرنا حول حقل ديفيلشه ، وقفزنا عـــدة حواجز (كنت خائفاً في البدء ، إلا أن أبي كان يكره المرتعدين ، لذلك كنت ، راضيـــاً أو مكرهاً ، أسيطر على خوفي) واجـــتزنا موسكو فامرتين ..

وقلت في نفسي لعلنـــا نعود الآن ، خـاصة وان أبي لاحظ تعب حصاني .

وفجأة ، انطلق أبي في اتجاه معبر كريمسلي .. لحقت أنا بــه . وحين وصلنا كومة من العوارض القديمـة ، نزل هو عن جواده وأمرني أن أحذو حذوه ، ورمى لي بلجام جواده ، وأشار علي أن انتظر . هناك ريثما يرجع . ودخل بعدها في زقاق ضيق وغاب .

أخذت أروح وأجيء أمام حاجز الجسر ، شاداً اللجامين ورائي ، ومتخاصمــاً مع جواد أبي الذي كان لا يكف عن هز رأسه وعن الجذب وعن الصهيل . وحين كنت أقف كان يحفر الأرض بحـــدائده الأربعة ، ويعض حصاني الصغير ، ويطلق صيحات حـــادة ، سالكاً سلوك جواد أصيل .

تأخر أبي في العودة . كانت رطوبة كريهة تصعد من النهر . ثم بدأ الرذاذ يتساقط ، وغطى المطر ، ببقع صغيرة سوداء ، كومـة الحدائد الحمقاء التي بدأ منظرها يضرب على أعصابي .

أصابني سأم قاتل ، وكان أبي لا يرجع . واقترب مني حارس كهل فنلندي ، مغطى الرأس بشاكو مرتفعة على شكل قـــدر ، وفي يده حربة (وماذا كان يمكنه أن يصنع على أرصفـة موسكونا ؟) وأدار نحوي وجهه المتغضن كوجه فلاحة عجوز ، وقال :

– ماذا تفعل هنا مع جواديك يا سيدي ؟ اعطني اللجامين أتريد ، سأمسكهما عنك .

لم أجب . فطلب مني تبغاً . كي أتخلص منه خطوت بضعة خطوات في اتجاه الزقاق الضيق . ثم غامرت ودرت الزاوية وتوقفت .. إذ لمحت أبي على بعد أربعـــين خطوة إلى الأمام ، مستنداً على حافـــة نافذة مفتوحة لبيت خشبي صغير .. كانت امرأة جالسة في داخل الحجرة ،

مرقدية ثوباً قاتماً ، يخفي ستار ، نصفها ، تتحدث مع أبي . كانت هي زينايدا .

وقفت فاغر الفم .. كان ذلك بالتأكيد آخر شيء كنت أتوقع مشاهدته . كانت أولى حركاتي هي أن أفر . قلت لنفسي :
« سيلتفت أبي بعد لحظة ، وعندها أنا ضائع !.. »

الا ان شعوراً غيبياً اقوى من الفضول ومن الغيرة كان يبقيني حيث كنت . رحت أنظر وأرهف السمع .

كان أبي يلح ، وما كانت زينايدا موافقة . اني لن أنسى وجهها كما بدا لي حينئذ : حزيناً ، مهيناً ، فيه معنى الوفاء ، من المستحيل تحديده ، وخاصة اليأس – نعم ، اليأس .. انها الكلمة الوحيدة الملائمة لوصف ذلك الوجه . كانت هي تجيب بكلمات متقطعة ، غاضة الطرف ، مبتسمة بتلك الابتسامة المتواضعة والعنيدة معاً .

وفي تلك الابتسامة عرفت زينايدا الأيام الخالية . كان أبي يهز كتفيه ، وسوى قبعته – كانت تلك الحركة علامة نفاد صبر مميزة له ..

ثم سمعت بالفرنسية : « عليك أن تنفصل عن هذه .. »

وانتصبت زينايدا ومدت ذراعها .. ووقع حادث يكاد لا يصدق : فقد رفع أبي فجأة سوطه الذي يزيل به غبار سترته ، وهوى به على ذراع الفتاة العارية حتى المرفق تماسكت أنا كي لا أطلق صرخة . اختلجت زينايدا ونظرت إلى أبي بصمت ، وحملت ببطء يدها إلى شفتها وقبلت الندبة الحمراء .. رمى أبي بالسوط ، وصعد راكضاً الدرجات وهجم إلى داخل البيت .. ارتدت زينايدا وفتحت ذراعيها ورمت رأسها إلى الوراء وغابت ..

كنت مذعوراً ومشدوهـــاً ، رجعت أدراجي واجتزت الزقـــاق الضيق ، وكاد الجواد ينفلت من قبضتي ، ووجدت نفسي أخـيراً على الرصيف .

كنت اعرف ان ابي رغم هدوئه وتحفظه عرضة لنوبات غضب ، بيد اني ما كنت أتوصل الى فهم المشهد الذي شاهدته .. في اللحظة نفسها ، أدركت اني لن استطيع ان انسى حركة ونظرة وابتسامة زينايدا ، وان وجهها الجديد لن يمحى من ذاكرتي أبداً .

كنت انظر الى النهر ، كتمثال ، ولم ألاحظ الدموع التي كانت تسيل على خدي .. كنت أفكر :

« انها تضرب .. »

صاح أبي من ورائي :

– هيا ، أعطني جوادي !

ناولته اللجام بصورة آليـــة . وركب على ظهر جواده الذي كانت فرائصه ترتعد من البرد والذي فار فائره وقفز قفزة ثلاثة أمتار.. لكن سرعان مـــا سيطر ابي عليه ، بمس ردفيـــه بمهمازيه ويضربه بقبضته على رقبته .. وهو يهمهم :

– للأسف ان سوطي ليس معي !

تذكرت أنا ضربة السوط قبل فترة . فغامرت وسألته بعد برهة صمت :

– وماذا فعلت به ؟

لم يجب بشيء ، وتقدمني ، وراح جواده يعدو . التحقت بـه : كنت أريد ان ارى وجهه بأي ثمن .

قال وهو يصر على أسنانه :

– هل تضايقت في غيابي ؟

سألته من جديد :

– نعم قليلاً ، لكن أين ضيعت سوطك ؟

ألقى علي نظرة خاطفة :

– اني لم أضيعه .. انما رميته ..

وأحنى رأسه حالماً ، ولأول مرة أدركت كم من حنان ومن ألم تستطيع ملامحه الصارمة ان تعبر .

انطلق هو عدواً ، ولم أعد أنا أتمكن من اللحاق به ، ووصلت المنزل بعده بربع ساعة .

في الليل ، قلت في نفسي ، وأنا جالس امام طاولة الدراسة حيث الكتب والدفاتر فأنشدت من جديد :

« ذلك هو الحب إذن .. ذلك هو الهوى الحقيقي . . أيستطيع المرء ألا يحتد ، ألا يثور .. حتى لو كان يعبد اليد التي تضربه ؟ . . يجب ان يكون الأمر كذلك .. حين نحب حقاً .. وأنا الأبله الذي كنت ، الذي كان يتصور ان ... »

كنت قد نضجت كثيراً منذ شهر ، وكان حبي المسكين ، بكل قلقه وبلبلته ، يبدو لي صغيراً جداً ، طفلياً جداً ، حقيراً جداً أمام ذلك المجهول الذي كنت ألمحه خطفاً ، امام ذلك الوجه الغريب ، الفاتن الرهيب .. الذي كنت أسعى ان اكتشفه عبثاً في تلك العتمة ..

وحلمت في تلك الليلة حلماً غريباً مخيفاً .. كنت ادخل في غرفة واطئة السقف ومظلمة . كان ابي هناك ، حاملا سوطه ، يضرب الأرض برجله ، رابضاً في زاوية . وكانت ندبة زينايدا الحمراء ، ليست في ذراعها انما في جبينها .. كان بيلوفزوروف واقفاً وراءها ، ملطخاً بالدماء ، يفتح شفتين باهتتين ، ويوجه صوب ابي حركة تهديد ..

بعد مضي شهرين دخلت الجامعـة . وبعد مضي ستة اشهر على ذلك مات أبي بسكتة قلبية ، في سان بطرسبورغ حيث كنا نقلنـا سكنانا الى هناك . وقبل وفاته بأيام تلقى رسالة من موسكو بلبلته أشد البلبلة.. ثم ذهب يتضرع الى أمي . وان الأمر الخارق الذي روي لي أن أبي بكى !

وفي صبيحة اليوم الذي قضى نحبه عند مسائه كان قد بدأ في كتابة رسالة إلي ، بالفرنسية :

« يا بني ، احذر من حب امرأة ، احذر هذه السعادة ، هذا السم ..»

وبعد موته ، أرسلت امي مبلغاً كبيراً من المال الى موسكو ..

-٢٢-

انقضت سنوات أربع .. كنت قد انتهيت بعدها لتوي من دراستي في الجامعة ، ولم اكن بعد قد تثبت مما سأعمله ، إذ ما كنت أدري أى باب اطرقه . وانتظاراً لذلك كنت لا اعمل شيئاً . وفي مساء يوم التقيت بمايدانوف في المسرح . كان قد تزوج ونال وظيفة . اني لم اجده قد تغير : كانت نزواته الحماسية هي نفسها ، وكانت نوبات حزنه السوداء والمفاجئة هي نفسها . قال لي :

– بالمناسبة ، هل تعلم ان السيدة دولسكايا هي هنا ؟

– السيدة دولسكايا ؟ من هي ؟

– كيف ، وهل نسيتها ؟ تذكر انهـا البرنسيس الشابة زاسيكين ، التي كنا جميعاً عاشقين لهـا .. ألا تذكر .. الفيلا الصغيرة بقرب حديقـة نسكوتشني .

– هل تزوجت دولسكي ؟

– نعـــم .

– هل هما هنا ، في الصالة ؟.

– لا لكنهما نزلاء سان بطرسبورغ حالياً . انهـا جاءت منذ بضعة ايام ، وفي نيتها ان تقوم برحلة الى الخارج .

– أي صنف من الرجال هو زوجها ؟

– رجل شهم جداً ، انه زميل قديم من موسكو . انك تعرف انها بعد تلك القصة .. التي تعلمها انت خير من اي شخص آخر .. (وابتسم ابتسامة زاخرة بالمعاني الخفية ..) لم يكن من اليسير عليها ان تتزوج .. إذ كان للمغامرة ذيول .. لكنهـا ، مع ذكائها ، لا شيء مستحيل بالنسبة اليها .. اذهب الى رؤيتها ، فإن ذلك يسرها .. انها ازدادت بهاء وحسناً.

اعطـاني مايدانوف عنوان زينايدا . كانت نزيلة فندق دومون .. وتحركت في أعماق قلبي ذكريات ماضية ، وقررت ان أزور في الغد تلك التي كانت « هواي » القديم ..

اعترضني في الغد مانع .. ومضت ثمانية ايام ، ثم ثمانية اخرى .. وفي الأخـــير ، ذهبت الى فندق دومون ، وطلبت مقابلة السيدة دولسكايا ، فأجبت انها ماتت منذ أربعة أيام ، وهي تضع طفلاً في العالم .

خيل إلي ان شيئاً بداخلي قد تمزق . واستحوذت لبي هذه الفكرة هي اني كنت استطيع ان أراها ، إلا اني لم أرها ، ولن أراها الى الأبد، وهزت كياني كله بقوة كعتاب مر .

رددت وأنا أنظر الى البواب بعينين كفيفتين :

– ماتت !

خرجت ببطء وابتعدت على غير هداية ، وسرت دون ان اعرف الى اين .. أتلك هي نهاية ، أذلك هو الختام الذي كان يترقب تلك الحياة

الشابة ، المحمومة ، اللامعة !

كنت أقول ذلك لنفسي وأنا أتصور تقاطيعها المحبوبة ، وعينيها ، وشعرها ملقى في تابوت ضيق في عتمة تحت الأرض .. وذلك غير بعيد عني ، أنا الذي كان حياً .. وعلى بعد خطوات من أبي ، الذي كان ميتاً ..

كنت أضيع مع تلك الخواطر ، وتجاوب بيت شعر بمكر في أرجاء روحي :

« شفتان معصومتان تكلمتا عن الموت » .

لا يستطيع شيء أن يثيرك يا شباب ! أنت تبدو مالكا لجميع كنوز الأرض . يحملك الحزن نفسه على الابتسام ، والألم يحملك . أنت واثق من ذاتك ، ولرباطة جأشك تعلن :

« انظروا ! انني لأعيش وحدي ! »

لكن الأيام تجري ، لا حصر لها ودون أن تبقي أثراً . والمادة التي نسجت منها تذوب كالشمع في الشمس ، وكالثلج ...

ومن يدري ؟

لعل سعادتك ليست هي في سلطانك الواسع انما في إيمانك . ان طوباك لهو أن تصرف طاقات لا تجد لها منفذاً آخر .

ان كل واحد منا يعتقد انه المختار ، ويزعم ان من حقه أن يقول :

« اوه ! كم كنت استطيع لو اني لم أبعثر زمني ! »

أنا نفسي .. كم عللت نفسي بالآمال ؟ كم من منى كنت أنتظر ؟ أي مستقبل وضاء كنت أرتقب في الفترة التي حييت بزفرة حزينة شبح حبي الأول ، الذي بعث في مدة وجيزة !

من كل هذا ماذا تحقق ؟

الآن وظلال المساء قد بدأت تخيم على حياتي ، ماذا بقي لي من ماضي ، من ذكرى أندى وأعز من تلك العاصفة الصباحية ، الربيعية ، العابرة ؟

الا اني مخطىء في لعنتي على نفسي . إذ رغم خفة الشباب لم أصم اذني لنداء ذلك الصوت الحزين ، ذلك الانذار العلني الذي طلع من أعماق قبر ..

بعد أيام من سماعي نبأ وفاة زينايدا ، كنت أحضر طائعاً آخر لحظات عجوز فقيرة كانت تسكن في بنايتنا . كانت مغطاة بأسمال رثة ، ممددة على لوحة خشنة ، يتوسد رأسها كيسا . كان احتضارها بطيئاً وشديداً .. انها كانت أمضت حياتها باسرها في صراع مرّ من أجل الضرورات المادية للعيش اليومي . أنها لم تعرف السرور ولم تمس شفتاها كأس الهناءة . ألم يكن عليها أن تغتبط لفكرة التحرر والحرية والراحة التي ستذوق أخيراً ؟ ومع هذا كان جسمها الفاني كله ينازع البقاء طيلة خرير أنفاسها ، وطالما لم تخذلها البقية الباقية من قواها بعد . وأنت هي بإشارة بر وتقوى ، وهمست :

– مولاي ! اغفر لي خطاياي !.

ولم ينطفىء تعبير الذعر والغصة أمام الموت في أعماق نظرها إلا مع تلاشي ضياء الحياة الأخير .

واني لأذكر اني ، الى جانب تلك العجوز المسكينة ، شعرت بالخوف فجأة ، من أجل زينايدا ، وأردت أن أصلي من أجلها ، ومن أجل أبي – ومن أجل نفسي .

(١٨٦٠)

نشيد الحب الظافر

- ١٥٤٢ -

مهداة إلى ذكرى
غوستاف فلوبير .

هذا ما قرأته في مخطوط إيطالي قديم :

- ١ -

في حوالي منتصف القرن السادس عشر ، حين كانت فيراري مزدهرة تحت صولجان الدوقات ، الذين كانوا حماة كرماء للفنيين وللشعراء .

كان يعيش في تلك المدينة شابان : فابيوس وموكيوس .

كانا متصلين بقرابة النسب ، وكانا حديثين في السن ، ولم يكن قد سبق لهما ان انفصلا أبداً : إذ كانت صداقة القلب تشدهما الى بعضهما منذ طفولتهما الاولى . وكانت وحدة قضائهما المشترك قد وثقت تلك الصلات فيما بينهما .

كان فابيوس وموكيوس ينتميان الى عائلتين عريقتين ، وكانا وافري الثراء . ولم يكن لهما امرأة . وكان ذوقهما وميولهما متشابهة تقريباً .

كان أحدهما رساماً وكان الآخر موسيقاراً . وكانت المدينة العتيدة تزهو فخاراً لأنها أعطت النور الى هذين الفنانين اللذين كانا الجوهرتين

الأغلا ثمناً في البلاط وفي المجتمع .

كانا يختلفان في الشكل ، إلا أنهما كانا متساويين في الجمال :

كان فابيوس اطول قامة بقليل من صديقه . كان لونــه حليبا ، شعره أشقر ذهباً ، وعيناه زرقاوان .

أمـــا بشرة موكيوس فكانت ، على العكس ، سمــراء ، وشعره أسود . ولم يحدث قط أن برقت شرارة بهجة في عينيه الكستناويتـين القاتمتين ، أو أن ابتسامــة تاهت على شفتيه . وكذلك كان شأن فابيوس .

كان حاجبا ماكيوس سميكين ينزلان حتى أجفانه الضيقة . بينما كان حاجبا صديقه منسوجين بدقة من خيوط ذهبية ، وتتقوّسان بنعومة على جبينه العالي والصافي .

كان ماكيوس متحدثاً أقل لباقة من صديقه ، ومع هــذا ، فان الشابين كانا ينالان حظوة لدى سيـــدات القـوم اللواتي كن يرين فيهما تجسيداً للدماثة والنبل ، وهما فضيلتان من فضائل الشرف الأبي .

وكان يعيش في فراري في ذلك الوقت آنسة شابة اسمهـا فاليريا . كان يقال عنها أنها واحدة من أجمل نساء المدينة ، رغم أن أحــداً لم يشاهدها بعد ، إذ أنها كانت تعيش في عزلة ، ولا تخرج من بيتها إلا لتذهب إلى الكنيسة أو لتخرج إلى النزهة في أيام الأعيـــاد . وكانت هي تعيش مع أمها التي كانت أرملة نبيلة ، متواضعة الحالي ، لم ترزق سوى وحيدتها .

كان كل من يصادف فاليريا في الطريق يشعر لجمــالها بشعور مفاجأة لا إرادي ، ولتواضعها باحترام عطوف . وكانت الفتاة تبدو وكأنها لا تحس بالفتنة التي تشع من كيانها أجمع .

والصدق يقال ، أنه كان هناك من يجدها شاحبة قليلاً ، ويجد في عينيها اللتين لا ترتفعان أبداً شيئاً حيياً ، بل حتى جـــافلاً شروداً . وكانت شفتاها لا تكادان تبتسمان . ونادرون هم الأشخاص الذين كان في وسعهم التبجح بأنهم سمعوا جرس صوتها . ورغم ذلـك ، فان الأقوال كانت تتناقل أن صوتها كان جميلا جداً . وان الفتـاة في الصبـــاح في ساعة مبكرة جداً عندما تكون المدينة بأسرها ما تزال نائمـــة تغلق الباب على نفسها في غرفتها وتشرع في الغناء تلك الأغاني القديمة ، وانها ترافق نفسها غناءها في العزف على قيثارة .

كانت فاليريا رغم شحوب لونها على صحـــة مزهرة . وكان الشيوخ لا يستطيعون من الامتناع حين يرونها من القول :

– طوبى لذلك الشاب الذي سيفتح هذه الزهرة الفاتنة والعذراء التي ما تزال مغلفة في أوراقها الكاسية .

أقام الدوق دو فيراري نجل لوكريس بورجيا المجيد حفلة شعبيـــة كبرى على شرف النبلاء الذين حضروا من باريس استجابة لدعوة الدوقة التي كانت كريمة الملك لويس الثاني عشر .

وفي تلك المناسبة شاهد الشابان فالـيريا لأول مرة . كانت الفتـــاة جالسة إلى جانب أمها في المنصة التي زينها بالاديس ونصبت في الساحة الكبيرة خصيصاً لسيدات المدينة النبيلات .

وعشق الشابان الفتاة منذ النظرة الأولى . وبما انهما كانا لا يخفيان على بعضهما أمراً ، فقد علم كل واحد منهما بما خفق قلب الآخر له . وعندها قررا أن يوحـــدا جهودهما للتقرب من الفتـــاة . ثم انها إذا ما مالت إلى أحدهما ووقع اختيارها عليه ، فما على الآخر إلا أن ينسحب .

وفي نهاية بضعة أسابيع ، وبفضل الشهرة التي كانا يتمتعان بهـا عن جدارة ، تمكنا من دخول بيت الأرمـــلة ، الذي كان لا يحتفي بالزوار كثيراً . ومنذ ذلك الحين ابيح لهما رؤية الفتاة يومياً تقريباً ، والتحدث اليها . وفي كل يوم جديد كانت اللهبة التي اشتعلت في قلبهـــما يزداد أوارها . ومع هذا ، كانت فاليري لا تفضل واحداً على الآخر . كانت تعزف الموسيقى مع ماكيوس ، إلا انهـا كانت تشاطر فابيوس الحديث بانشراح اكبر ، اذ كان يفزعها اقل من صديقه .

وأراد الصديقان ان يحددا مصيرهما ، وكتبا رسالة الى فاليريا، وطلبا اليها ان تصرح برغبتها ، وان تقول ان كانت تتفضل في منح يدها الى أحدهما او الى الآخر .

فاتحت الفتاة امها بالمسألة ، وأعلنت لها انها لا ترى مانعـاً في بقائها بنتاً ، بيد انها مستعدة لأن تتزوج بمن تختاره لها فيما اذا ارتأت امهـــا ان وقت زواجها قد حان .

وراحت الأرملة النبيـــلة تذرف بعض الدموع لفكرة انفصالها عن ابنتهـا الوحيدة المتعلقة بها اشد التعلق . لكن لم يكن من سبب واضح موجب لرفض واحـــد من القرنين . وعلاوة على ذلك ، فان الأم كانت تعتبرهما كلاهما متساويين بالجدارة لنيل يد ابنتها .

ومع ذلك ، بما انها كانت تفضل بالسر فابيوس ، وتشك في ان فاليريا تجده اقرب الى ميلها ، فان اختيارها وقع على الرسام .

وعلم فابيوس في اليوم التـــالي بالسعادة التي آلت من نصيبه . ولم يبق امام موكيوس ، إلا ان يفي بعهده وان يتقبل برضى سوء حظه . ونفذ وعده بأمانة وشرف ، لكنه لم يجد في نفسه الجرأة ليكون

شاهداً على يمين صديقه الذي غدا قرنه . وباع بمجمل أملاكه وجمع أمواله وسافر إلى الشرق في رحلة طويلة .

وفي أثناء وداعه لفابيوس كشف له عن رغبته في عدم العودة إلى فراري قبل أن ينطفىء آخر بصيص شرارة من هواه . كان فابيوس متأثراً أشد التأثر لرحيل صديق طفولته وشبابه ، لكن سرعان ما بددت السعادة المرتقبة أي شعور آخر ، وغاص دون تحفظ في حميا حبه المكلل بالنجاح .

وعندما صار زوجاً لفاليريا تمكن أخيراً من تقدير قيمة الكنز الذي ظفر به حق قدره .

كان فابيوس يملك فيلا جميلة تحيط بها حديقة غناء ملأى بالظلال المهيبة ، على بعد مسافة وجيزة من فيراري . إنتقل اليها مع امرأته وحماته ، وغدت حياته جذلاً وطرباً دائمين .

واضاءت الحياة الزوجية جوانب جديدة ومثيرة في خصال فاليريا . وصار فابيوس رساماً ممتازاً شهيراً – لا ، لا كهاوي انما كفنان حقيقي .

كانت الارملة الطيبة مفعمة بالحنان ولا تكف عن الحمد للمولى الذي غمر الزوجين السعيدين بنعمائه .

ومضت سنوات اربعة كالحلم . لم يكن ينقص هناءة الزوجين إلا شيء واحد : طفل .. إلا انهما ما كانا فاقدي الامل .

وفي نهاية السنة الرابعة لزواجهما طرقت مصيبة بابهما ، مصيبة حقيقية : ماتت ام فاليريا بعد بضعة ايام مرض .

سكبت المرأة الشابة فيض من الدموع ، وظلت مدة طويلة تأبي ان تعتاد على تلك الخسارة . لكن بعد مضي عام ، عادت الحياة ففرضت حقوقها ، واستأنفت حياة الزوجين مجراها الطبيعي .

وإذ ، في إحدى اوسيات الصيف يرجع ماكيوس إلى فيراري دون سابق اخطار ، ودون ان يعلم احد بعودته .

- ٣ -

لم يسمع أحد من اخباره منذ رحيله ، فقد كان قد تلاشى كشبح .

عندما التقى فابيوس بصديقه في زقاق من ازقة فيراري كاد يطلق صرخة ، اولاً من المفاجأة ثم من السرور ، ودعاه لساعته إلى منزله .

اذ كان بالضل في آخر الحديقة التي تحيط بالفيلا جناح فسيح حيث كان في وسع ماكيوس ان يقيم على الرحب والسعة . قبل ماكيوس بحرارة الدعوة وانتقل في اليوم نفسه برفقة خـــادم ، اخرس لكنه لم يكن اصما : كان فتى فطناً اذا ما حكم عليه من حيوية نظره ، كان من اصل مالي ، وكان قد قطع لسانه .

كان الزائر قد جلب معه من رحلاته عشرات الصناديق ممتلئة بالحلى من كل صنف .

سرت فاليريا اشد السرور لعودة ماكيوس ، وحياها الشاب من ناحية بود صاف وصداقة خالصة غير مشوبة : كان في الظاهر قد برّ بعهده .

وقبل ان يحل المساء تمكن من سكنى الجنـــاح الذي وضعه تحت تصرفه ، واخرج من صناديقه ، بمساعدة المالي ، جميع الاشياء الثمينة التي كانت تحويهـــا ، من بسط ، واقمشة حريرية ، والبسة من المخمل والبردكار ، واسلحة ، وكؤوس ، وصحون ، واشياء مزينة باحجـــار كريمة نادرة ، أو اغراض من الذهب الخالص ومن الفضة مرصعة باللالىء

وبالعقيق ، وصناديق من العنبر ومن العاج ، وقناني منقوشة ، وبهارات وعطور ، وجلود الحيوانات ، وريش طيور غير معروفة ، وعـــدة ادوات اخرى يبدو استعمالها مغلف بالغاز . وكان من بين الحلى عقـد ثمين من اللؤلؤ تلقاه ماكيوس هدية من شاه الفرس لقاء خدمات جليلة وسرية . ورجا الشاب مضيفته ان تسمح له ان يضعه هو بنفسه حول عنقها . الشيء العجيب ان العقد بدا لها ثقيلاً ويشع حرارة غريبة .. كان يلتصق بحنجرتها فعلاً ..

وفي المساء جلس ماكيوس على سطح الفيلا تحت ظلال شجر الغـــار والدفل وشرع يروى قصة رحلاته ، وتحدث عن البـــلاد النائية التي زارها ، وعن الجبال التي ترتفع فوق الغيوم ، وعن الصحاري القاحلة ، وعن انهار عميقة كالبحار ، وعن المعابد الفخمة ، وعن اشجار عمرها آلاف السنين ، وعن ازهار وطيور فردوسية ، ملونة بألوان قوس قزح السبعة . وعدد اسماء مدن وامم .. اسماء تفوح منها رائحـــة اقاصيص الجن .

قطع ماكيوس الشرق بأسره : بلاد الفرس والعرب ، حيث الخيل اجمل وانبل من الانسان نفسه ، واعمـــاق الهند ، حيث اجناس البشر تتكاثر ويذكر بنبـــات وافر اغن ، ووصل إلى تخوم الصين والتيبت ، حيث الاله الحي ، المسمي ، دالاي لاما يعيش على الارض على صورة رجل اخرس بعينين زائفتين . كانت رواياته ساحرة . كان فابيوس وفاليريا يصغيان اليه مفتونين .

لم يتغير موكيوس كثيراً من الناحية الجسمية : لقد سفت شمس البلاد الحارة المحرقة وجهه لا شك ، واغاصت عينيه اكثر قليلاً في محاجرهما ، لكن عدا ذلك ، فقد بقي هو ذاته كما كان . وبالمقابل ، صار تعبير ملامحه مختلفة عما كانت ، اشد حيوية ، وأكثر تكتماً . كانت لا تنفعل حتي

حين كان يتحدث عن المهالك التي تعرض لها ، في الليل ، في الغابات العذراء المليئة بالوحوش الضارية ، وفي النهار ، على الطرق المقفرة حيث البرابرة المتعصبون يترصدون المسافر ليقضون عليه خنقاً ويقدمونه قرباناً إلى الهتهم الحديدية .

كان صوت الشاب يبدو متساوياً لا انفعال فيه ، وكانت يـداه ، وجسمه كله ، قد فقدتا سرعة الآلة وخفتها التي هي من صفات الايطاليين الخاصة .

وقام هو ، بمساعدة خادمه ، بعمل امام مضيفيه ببعض الالعـاب السحرية التي علمها اياه البرهمان الهنود . وهكذا فانه بعد ان اختبأ وراء ستار ظهر لهما ثانية فجأة جالساً في الهواء ، طاوياً ساقيه مستنداً باطراف اصابعه على عصا طويلة من بامبو واقفة باتزان على الارض .

كان فابيوس لا يخفي دهشه .

وكانت فاليريا لا تخفى روعها . وتساءلت هالعة :

« ترى ألم يصبح ساحراً ؟ »

وعندما بدأ ينفخ في مزمار صغير ليخرج افاعي مختبئة في سلات من خيزران . وحين راحت رؤوسها المسطحة المسلحة بألسنتها النارية تطلع من بين القماش المبرقش ، خافت فاليريا خوفـاً تصرخ معه مبتهلة إلى ضيفها ان يغيب تلك الزواحف الفظيعة .

اثناء العشاء قدم موكيوس إلى صديقيه نبيذاً من شيراز في زجاجة مستديرة طويلة العنق . وصب منه في فناجين صغيرة من يصب ، كان السائل سميكاً ومعطراً يبرق بلمعان متلون ذهبي بسطوع خضراوي . كان مذاقه يختلف عن طعم النبيذ الاوردي ، كان عذباً ومبهراً . وعندما يشرب النبيذ على جرعات صغيرة يخدر خدراً مفاجئاً الاعضاء بعذوبة .

قدم موكيوس فنجاناً إلى فابيوس ، وآخر إلى فاليريا ، وتنـاول هو واحداً . إلا انه قبل ان يقدم المشروب إلى المرأة الشابة همهم بكلمات مبهمة واتى بحركات غريبة بأصابعه . عندما شاهدت فاليريا ذلك ، وبما ان تصرف موكيوس كان فيه شيء غريب وملغز . قالت لنفسها :

« تري هل آمن هو في الهند ببعض الديانات الجديدة ، أم انــه يتصرف ببساطة حسب عاداتهم هناك ؟ »

بعد مضي دقيقة سألته هي ان كان لم ينقطع عن دراساته الموسيقية اثناء سفره .

بدلاً من ان يجيبها موكيوس ، احضر كمانه الهندي ، كانت الآلة تشبه آلتنا ، لكن فيها ثلاثة اوتار عوضاً عن اربعة ، وكان القسم السفلي من الذراع مغطى بجلد افعى ، والقوس مصنوع من جذع وردة وضع في نهايته جوهرة مقرنة .

عزف موكيوس في البدء بعض اغان شعبية ، - ان اكد انها هي لكذلك على الاقل - الحان غريبــة بل بربرية بالنسبة إلى الاذن الايطالية ، كان صوت الاوتار النحاسية ضعيفاً ونائحاً . لكن عندمـا عزف الاغنية الأخيرة ، بدا الكمان حياً ومرتجفاً بين اصابعه المرنــة الرشيقة . كانت اغنية عنيفة ، رحبة كالفضــاء ، وماكره وملتوية وبقدر الحية التي لف جلدها على ذراع الآلة . وكان يشع من الحانهــا لهباً وتهتز بسعادة منتصرة إلى درجــة ان فابيوس وفاليريا احسا بان قلبيهما يعتصران ، وان دموعاً انحبست من مقلتيهما .

كان موكيوس يبدو وهو منحن على كمانه السحري بخديه الشاحبين، بحاجبيه المتلاصقين كخط اسود ، اكثر جدية وتجمعاً . كانت الجوهرة المثبتة في نهاية القوس تلقى في تحركها اشارات ساطعة كأنهـا مشتعلة بلهبة الاغنية الساحرة .

وتوقف موكيوس وترك ذراعه تهوي وذقنه مرتكزه على جذع الآلة.

صاح فابيوس :

- ما هذا اذن ؟ ماذا عزفت لنا اذن ؟

لم تهمس فاليريا ببنت شفة ، إلا ان كيانها اجمع كان يبدو انه يرجع سؤال زوجها .

وضع موكيوس الكمان على الطاولة ، وهز رأسه ، وقال بابتسامة لطيفة :

- هذه الاغنية .. هذا النشيد ، سمعت في يوم في سيلان . انهم يزعمون هناك انه نشيد الحب السعيد والظافر .

همس فابيوس :

- اعد عزفه .

اجاب موكيوس :

- لا ، انه لا يعاد .. علاوة على ذلك فالساعة قد تقدمت ، والسنيوره بحاجة إلى راحة ، وانا ايضاً .. اني تعب .

كان موكيوس قد تصرف طوال النهار مع المرأة الشابة تصرف صديق قديم ، ببساطة واحترام ، لكن حين استأذن للانصراف شد على يدها بقوة كبيرة وهو ينظر اليها بثبات والحاح إلى حد انها دون ان ترفع ببصرها اليه كانت تحس ان نظره يحرق خديها .

لم تقل فاليريا شيئاً ، لكنها سحبت يدها بحيوية ونظرت فترة طويلة إلى الباب الذي خرج منه . وفي ارتباكها وحيرتها تذكرت الرهبة التي كان يوحيها اليها من قبل ..

وعاد الزوجان إلى غرفتها .

- ٤ -

باتت فاليريا دون ان تجد النـوم . كانت شهوة خرساء تتمشى في عروقها ، وكان دوي خفيف يطن في اذنيها .. هل كان ذلـــك من جراء النبيذ الذي شربته ام من روايات موكيوس ام من موسيقاه ؟ وعندما انبلج الفجر تمكنت اخيراً من ان تهجع وعاشت في منامهـــا حلماً غريباً :

كانت تدخل غرفة رحبة الا انها واطئة ومقببة ، كما لم يسبق لها ان شاهدت قط من قبل . بحيطان مبلطة ببـــلاط ازرق بعروق ذهبية ، بأعمدة من الرخام الأبيض منحوتة بترف لتحمل قبة من المرمر الشفاف .. وكان نهار وردي وباهت يتسرب من كل الجوانب ، مضيئاً الأشياء بضياء متحد وخفي . وسائد من البروكار ملقـــاة على سجـادة ضيقة ، ممتدة في الوسط ، لماعة كمرآة . مباخر عالية برؤوس الغيلان تحترق ببطء في زوايا الغرفة . لا نافذة ، فقط باب مسدل عليه ستـار من مخمل في تجويف حائط .. ويسقط الستار بصمت ، ويكشف وراءه عن .. موكيوس . وحياها ، وفتح ذراعيـــه ، وضحك .. وتطوق ذراعاه قامة المرأة الشابة وتحرق شفتـــاه اليابستـان جسدها كله .. وتسقط على ظهرها على وسادات البروكار ..

استيقظت فاليريا وهي تئن خوفاً وهلعاً .

جلست المرأة الشابة على مقعدها ، غير مدركة بعد أين كانت ولا ماذا حدث لها ، وراحت تنظر من حواليها .. وسرت رعشات متواترة في جسدها .. كان فابيوس مستلقياً إلى جانبها ، كان هو نائمـاً إلا أن

وجهه ، في ضياء القمر المتسرب من النافذة ، كان شاحباً وأليماً ، كأنه وجه ميت .

أيقظت فاليريا زوجها .

صاح عندما رآها :

– ما بك إذن ؟

همست وهي ما تزال تختلج :

– اني رأيت في نومي حلماً : حلماً رهيباً .

وفي اللحظة نفسها طلع من شباك الجناح الحان متموجة ، عرف الزوجان فيها الأغنية التي عزفها لهما موكيوس : نشيد الحب الظافر .

نظر فابيوس إلى فاليريا نظرة مرتبكة .. فأغلقت هي عينيها ، وأشاحت بوجهها ، وراحا يصغيان كلاهما ، حابسين أنفاسهما ، إلى الألحان المتصاعدة . وعندما تلاشت النغمة الأخيرة ببطء ، غاب القمر بغتة تحت طيات الغمام ، وشمل الظلام الغرفة .. كان الزوجان يسندان رأسيهما على المخدة ، دون أن يتبادلا حرفاً . ونام كل واحد منهما دون أن يدرك الآخر .

- ٥ -

وفي صبيحة الغد حضر موكيوس للفطور ، كان يظهر عليه الرضا ، وحيا مضيفيه بحبور . ردت فاليريا تحيته بارتباك ، وألقت نظرة على وجهه وأفزعها سروره ونظرته النافذة والمستقصية . وتظاهر موكيوس باستئناف رواياته .. الا ان فابيوس أوقفه منذ الكلمة الأولى :

– انك شعرت لا شك بوحشة ، ولم تتمكن من النوم . لقد سمعناك تعيد عزف الاغنية ليلة البارحة .

قال موكيوس :

آه ! نعم ، لقد سمعتماني .. لقد عزفتها فعـــلاً ، لكني نمت قبل ذلك ، وحلمت حلماً غريباً .

أصاخت فاليريا السمع .

سأل فابيوس :

– أي نوع من الأحلام كان ؟

أجاب موكيوس وهو يثبت نظره في عيني المرأة الشابة :

– حلمت اني أدخــل في غرفة رحبة مفروشة على الطريقة الشرقية . كانت أعمدة من الرخام تحملان القبة المرمرية ، كانت الحيطان شفافة . كان في الزوايا مباخر صينية تنشر الدخان ، ووسائد من البروكار منتشرة فوق الأرض على سجادة ضيقة ، دخلت من باب أسدل عليه ستار مخملي . ومن الجهة المقابلة لي ظهرت امرأة شابة ، كنت أحببتها فيما مضى ، كانت هي جميلة الى درجة اني شعرت بهواي القديم نحوها يبعث من جديد..

وسكت موكيوس سكوتاً بليغاً . كانت فاليريا قائمــة دون ان تأتي بحراك ، شاحبة لاهثة .

– وعندها استيقظت وعزفت ذلك النشيد .

سأل فابيوس :

– ومن كانت تلك المرأة ؟

– زوجة رجل هندي . عرفتة في دلهي .. لم تعد هي في هذا العالم..

سأل فابيوس وهو لا يدري لماذا يلقي هذا السؤال :

– والزوج ؟

– الزوج تبعها بعد فترة وجيزة الى القبر ، ذلك ما أخبرته .. بعد أن فقدت أثرهما .

لاحظ فابيوس :

– عجيب ، ان فاليريا حلمت ، مثلك ، حلمـــاً غريباً .. لم تشأ أن نقصه عليّ .

ألقى موكيوس على المرأة الشابة نظرة نافذة .

نهضت فاليريا على التو ، وتركت الغرفة . انسحب موكيوس ايضـــاً بعد ان فرغ من طعامه ، معلناً انـه ذاهب الى فراري لقضاء بعض الأعمال وانه لن يعود قبل الليل .

- ٦ -

كان فابيوس قد شرع ، قبل عودة موكيوس بأسابيع قليلة ، في رسم وجه زوجته في صورة القديسة سيسيليا .

كان هو قد تقدم في فنه تقدمـاً كبيراً : وجاءه مرة لويني الشهير ، احد تلامذة ليوناردو دافينشي ، زائراً الى فراري كي يساعده بنصائحه ويعلمه قواعد معلمه الجليل .

كانت الصورة على وشك الانتهـاء ، ولم يبق سوى بعض تصليحات بسيطة في الوجه . وكان لفابيوس ان يعتز بانتاجه .

فبعد ان ودع موكيوس ، ذهب الى رسمه ، حيث اعتادت زوجته ان تنتظره . لم يجـــد فاليريا هناك . ناداها : لا جواب . تملكه قلق أصم فذهب للبحث عنها ولم يجدهـا في المنزل ، ولقيها اخيراً في الحديقة في أحد ممراتها البعيدة .

كانت فاليريا جالسة على مقعد ، خافضة الرأس ، مشبكة ذراعيها على ركبتيها ، ووراءها في ظل السرو الأخضر تمثال انسان برجلي التيس ، بين شفتيه شبابة ، يبلسم ابتسامة سوء ساخرة .

أظهرت المرأة الشابة فرحاً عظيما لمجيء زوجها ، وأجابت على أسئلته القلقة انها تشعر بدوار خفيف ، لكن هذا لا يعني انها غير مستعدة لتقف له ليتم الصورة التي يرسمها . قادها فابيوس الى المرسم وأجلسها ، وأخذ الريَش في يده لكنه ، لأسفه ، لم ينجح في انهاء الوجه ، كما كان في نيته . ليس لأن وجه فاليريا كان شاحباً قليلاً وتعباً ، لكن لسبب مختلف : انه لم يجد فيه ذلك التعبير عن الصفاء السامي الذي كان يعجبه كثيراً ، والذي كان قد حثه على رسم امرأته الشابة في صورة القديسة سيسيليا . وترك اللوحة في آخر الأمر ، متعذراً باستعداده السيء ، وأشار على فاليريا ان تتمدد فترة ، إذ انها لا تبدو في تمام صحتها . ثم أدار لوحته جهة الحائط .

بقي فابيوس وحده ، ويحس بشعور باضطراب غريب . كان وجود ماكيوس تحت سقف بيته يضايقه ، رغم أنه كان قد تمنى ذلك هو نفسه . في الحق ، إنه لم يكن غائراً – فسلوك فاليريا كان في منجى عن أية ريبة – لكنه لم يعد يجد فيه صديق السنوات الخاليات . كانت جميع تلك التصرفات الغريبة التي جلبها موكيوس معه من إقامته في البلاد النائية ، والتي يظهر أنه لم يعد يستطيع التخلص منها . كانت أعمال العرافة التي يقوم بها ، وأغانيه ، وشرابه المشبوه ، وخادمه الأخرس ، بل حتى رائحة البهارات التي تفوح من ثيابه ومن شعره ومن جرس صوته ، كان كل هذا يوحي إلى فابيوس بحذر غامض ، بل بخوف مبهم .

ولماذا كان المالي إذن عندما كان يخدمهم على المائدة يصر على

التفرس في وجهه بكل ذلك السوء ؟

كان يمكن للمرء أن يعتقد أنه يفهم الإيطالية .

كان موكيوس قد زعم أن خادمه يملك سلطة سحرية خفية دفع قطع لسانه ثمناً لها .

« أية سلطة ، وأين اكتسبها ؟ »

كل ذلك كان غريباً بفظاعة ومعمى .

التحق فابيوس بزوجته . كانت فاليريا مستلقية على السرير ، بثياب النهار غير نائمة . عندما سمعته يجيء ارتجفت بعنف ثم استراحت ملامحها ، وعبرت هي عن فرج وراحة كما حدث لها منذ ساعة في الحديقة .

جلس الشاب على حافة سريرها وأخذ يدها بين يديه ، ولزم بضع دقائق صمتاً .

ثم سألها عن ذلك الحلم الذي أفزعها في الليل ، وإن كان لا يماثل الحلم الذي رواه موكيوس .

احمرت فاليريا من الارتباك وهمهمت :

– أوه ! لا ، لا ! إني رأيت .. تنيناً أراد أن يمزقني إرباً إرباً .

ألح فابيوس سائلاً :

– تنيناً ؟ له رأس بشري ؟

– لا !.. رأس حيوان .. حيوان !

وأشاحت المرأة الشابة بوجهها وخبأت وجنتيها الملتهبتين في الوسادة . احتفظ فابيوس بيدها فترة أخرى ثم رفعها إلى شفتيه بسكون وانسحب .

كان النهار يبدو حزيناً للزوجين ، كأن غيمةً قاتمة معلقة فوق رأسيهما ، دون أن يعرفا عما هي بالضبط . كان بودهما أن يبقيا معاً ،

لشعورهما بأن خطراً فظيعاً يتهددهما ، لكنهما لم يجـدا ما يقولانه لبعضهما البعض . حاول فابيوس أن يرجع ويجلس إلى جوارها على حافة السرير وأن يقرأ أشعار أربوست ، الذي كان ديوانه قد صدر حديثـاً في فراري والذي كانت شهرته قد عمت ايطاليا بأسرها ، لكن كان كل شيء يسقط من يديه . عاد ماكيوس في ساعة متأخرة ، عندما كانا قد جلسا لتوهما على مائدة طعام المساء .

- ٧ -

كان الرضا والطمأنينة بادية عليه ، إلا أنه لم يكن مكثار الكلام ، وكان يفضل أن يسأل مضيفه عن أصدقائهما المشتركـين ، وعن معركة المانيا ، وعن الامبراطور شارل . وفي نهاية الطعام ، عبر عن رغبتـه في الذهاب إلى روما لمشاهدة البابا الجديد .

ومن جديد قدم نبيذ شيراز إلى فاليريا ، فرفضت ، وسمعته يهمس على حدة :

« نعم ، الآن ، هذا لم يعد له أهمية كبرى . »

ما كاد فابيوس يدخل غرفـة النوم ، حتى غط في سبات فوراً تقريباً إلى جانب زوجته . وعندما أفاق بعد ساعة لم يجدهـا هناك . فنهض بسرعة ، لكن في تلك اللحظة نفسها دخلت فاليريا الغرفـة ، قادمة من الحديقة في ثوب النوم .

كان القمر ساطعاً وضاء وعالياً ، مشكلا النور في قطـيرات ماء ، منتشرة أغصان الشجر وفوق العشب زرعها رذاذ حديث في مروره .

اقتربت فاليريا من السرير ، مغلقة العينـين ، يرتسم على قسماتهـا

الجامدة تعبير فزع خفي ، وتلمست هي الفراش براحتيها الممتدتين ، ورمت بنفسها عليه دون أن تقول حرفاً واحداً .

القى فابيوس عليها سؤالاً . لكنها لم تجب متظاهرة بالنوم . وأمر يده على شعرها وعلى ثيابها : كانت مغطاة بقطرات المطر ، وبعض حبات الرمال عالقة في رجليها العاريتين . هب هو عندها واقفاً وأسرع إلى الحديقة ، من الباب المفتوح .

كان ضياء قمر مغش ، شديد وقاس ، يغمر المكان والفضاء والأشياء . انحنى الشاب ، وميّز على رمال الممر آثار خطى شخصين مرا حديثاً ، أحدهما حافي القدمين . وكان الأثر يفضي إلى كشك الياسمين القائم إلى الجانب الآخر بين الفيلا وبين الجناح . ووقف مشدوهاً ، وبغتة تجاوب في الجو الليلي أنغام النشيد !

ارتجف فابيوس وانتفض ، وقفز قفزة إلى الجناح . كان موكيوس يعزف على كمانه ، واقفاً وسط الغرفة .

– انك كنت في الحديقة فثيابك مبللة من المطر ؟

أجاب الموسيقار بتمهل ، كأنه فوجىء بزيارة صديقه غير المتوقعة وبانفعاله :

– لا .. لا أدري .. لا أظن اني خرجت ..

أمسك فابيوس بذراعه :

– لماذا تعزف هذا اللحن ؟ هل حلمت مرة اخرى بالحلم نفسه ؟

بدا موكيوس مذهولاً ولم يجب ..

– أجبني إذن ؟

تلا موكيوس بتؤدة ، كما في الحلم ، بصوت لا تتغير لهجته :

« يعكس القمر في السماء النور كأنه ترس أبيض ..

« الجدول الملتوي كأفعى يلمع ..
« العدو ينام ، لكن الصديق يسهر ..
« والعقاب سيمزق اليمامة ..
« أنجيهـــا ! »

تراجع فابيوس خطوتين إلى الوراء ، ونظر إلى صديقـــه ، وفكر لحظة .. ثم انسحب .

كانت فاليريا غارقة في سبات عميق ، مائلة الرأس عـلى الكتف ، باسطة ذراعيها بشكل صليب في حركة إعياء . كان يشق عليـه أن يوقظها ، إلا أنها ما كادت تراه حتى ضمته إليها بتشنج وجسدها كله يختلج .

سألها فابيوس محاولاً تهدئة روعها :

– ماذا بك يا صديقتي ، ما بك إذن ؟

لكنها كانت ترتجف في حضنه .

وهمهمت وهي تخبىء وجهها :

– أوه ! أية أحلام مروعة ، أحلم بها منذ ليلتين .

أراد الشاب أن يستجوبها ، لكنه لم يظفر منها بطائل ..

كان الفجر الوليد قد صبغ زجاج النافذة بلون أرجواني عندما نامت هي أخيراً بين ذراعي زوجها .

- ٨ -

في اليوم التالي ، اختفى موكيوس منـــذ الصباح . وأفضت فاليريا إلى زوجها بنيتها على الذهاب إلى الدير المجاور ، حيث يعيش معرّفها . وعندما أظهر فابيوس بعض الاستغراب شرحت هي له انها تريد أن تفرج عن روحها المضطربة المعذبة من جراء أحداث الأيام الأخـــيرة . وبالفعل كان الضنى بادياً على قسماتها وكان صوتها ضعيفـــاً بلا رنين . وشجعها الشاب بحرارة على عزيمتها ، مقدراً أن لورنزو الورع يستطيع أن يشير عليها بسديد النصح وان يبدد شكوكها .

ذهبت فاليريا الى الدير مصحوبة بأربع إماء . كان فابيوس ، خلال غيابها ، يهيم في دروب الحديقة ، رائحاً غادياً ، محاولاً ان يكشف عمـا يضير زوجته ، فريسة للخشية وللغضب تلتهبه ريب غير محددة .

ذهب الى الجناح اكثر من مرة . كان موكيوس ما يزال غائباً، وكان المالي ينظر اليه بعيني تمثال ، حاني الرأس بإفراط ، تتموج على سحنتـــه البرونزية ابتسامة سخرية خفيفـــة ، خفيفة جداً . كان ذلك على الأقل ما خيل الى فابيوس .

وفي تلك الأثناء ، كانت فاليريا تعترف بكل شيء الى معرّفهـــا . وكانت هي خجلة أقل ممـــا كانت مروعة . أصغى الأب الطيب اليها بعناية كريمة ، وباركها ، وأحال خطيئتها غير المتعمدة ، وقرر مرافقتها الى الفيلا ، وهو يقول في دخيلته :

« اعمال السحرة .. إذى الشيطان .. يجب استدراك الكارثة وتلافيها .. »

انتاب فابيوس بعض القلق عندما شاهد الراهب يحضر ، لكن الكهل الحكيم كان قد رسم خطته باتقان . انه احترس طبعاً من ان يخون سرّ الإعتراف عندما اختلى بالشاب ، إلا انه أشار عليه بحرارة ان يبعد بقدر المستطاع ذلك الضيف المؤذي ، الذي هيج ، دونما جدوى ، خيال فاليريا برواياته وأغانيه وسلوكه . فضلاً عن ذلك ، فان موكيوس ، الذي لم يكن قط صلباً في ايمانه ، يمكن ان يكون قد جلب من أسفاره عدوى الاعتقادات الباطلة ، بل ربما انه تناول أسرار الرقي . ولذلك ، ورغم صداقة بينهما أحكمتها سنوات طويلة ، ان من الحكمة والحذر الشديد ، ان يواجه انفصام بينهما جديد .

لم يستطع فابيوس إلا ان يشرح بجدارة وجهات نظر الرجل المقدس. وكادت فاليريا تطير فرحاً ، عندما علمت بقرار زوجها .

وعاد الأب لورنزو الطيب الى الدير محملاً بهدايا ثمينة الى أخويته والى فقرائه .

عزم فابيوس ان يتكاشف مع رفيقه بصراحة بعد العشاء مباشرة ، إلا أن موكيوس تأخر في العودة . وأجّل عندها المقابلة الى اليوم التالي . وانسحب الزوجان الى غرفتهما .

- ٩ -

نامت فاليريا في الحال تقريباً . وكان النوم يستعصي على فابيوس . كان يعيد رؤية انطباعات الأيام الأخيرة بجلاء ، ويلقي أسئلة لاجة دون ان يتمكن من الاجابة عليها بأقل جواب . هل حقاً ان ماكيوس غدا ساحراً ، وهل انه يسمم فاليريا ؟ كانت المرأة الشابة مريضة . . ولماذا ؟

بينما كان يشرد مع افكاره حانياً ذراعه تحت نقرته تسرب القمر من جديد في سماء لا سحب فيها .

ودخل الغرفة ، مع ضياء القمر من خلال الزجاج الشفاف المفتوح ، نسمات تدريجية ، نسمات خفيفة ومعطرة ، آتية من طرف الجناح . . . ذلك على الأقل ما اعتقده فابيوس .

وسمع همساً موسوساً ومتسلطاً وولوعاً ..

وتحركت فاليريا حركة ضعيفة في هجعتها . وارتجف فابيوس عندما شاهد : المرأة الشابة تنهض ، ترفع رجلاً ، ثم الثانية ، وتضعهما على الارض ، وتتجه نحو الباب المفضي الى الحديقة كمن يمشي في النوم ، ميتة العينين ، مادة ذراعيها الى الأمام !

قفز فابيوس قفزة وخرج من المنفذ الآخر ، ودار حول الفيلا وأغلق باب الحديقة .. وما كاد يترك القفل حتى شعر بيد تحاول ان تفتح الباب من الجهة الثانية .. وتلحّ .. وتلج أيضاً .. وصوت يزفر ، نافذ الصبر ..

ركض فابيوس الى الجناح ، وهو يفكر :

« ومع ذلك ، فموكيوس ما يزال في المدينة » .

ماذا شاهد ؟

كان موكيوس يتقدم باتجاهه على الممر الذي يغمره ضياء القمر السحري ، كان يمشي كمن يمشي في نومه ، ماداً يديه الى الأمام جاحظاً عينيه ولا يرى ..

اقترب فابيوس منه . وظل الآخر يتقدم دائماً ، كأنه لم يلاحظه ، بخطى متزنة ، بوجه جامد يقهقه بهدوء ، كوجه المالي ..

أراد فابيوس ان يستجوبه .. لكنه سمع في تلك اللحظة نفسها من ورائه صوت نافذة تفتح على مصراعيها .. فالتفت بسرعة .

كانت نافذة غرفة النوم قد فتحت على الليل ، وكانت فاليريا تحاول تخطي الحافة . . يداها تبدوان تبحثان عن موكيوس . . كيانهـا اجمع مشدوداً اليه . .

وتملك الرسام الشاب غضب وحشي .

فصاح كمأخوذ :

- أيها الساحر اللعين !

وقبضت احدى يديه على خناق الساحر ، وانتزع باليد الثانية النصل الذي يحمله في حزامه وغرسه في خاصرته حتى المقبض .

أطلق موكيوس صرخة حادة وعاد أدراجه مترنحاً ، ضاغطاً بيديه على الموضع الذي تلقى فيه الطعنة . .

وفي اللحظة التي ضرب فابيوس غريمه ، هوت فاليريا على الأرض ، مع أنـّة طويلة .

حملها فابيوس بين ذراعيه ، ومدها على السرير ، وحاول ان يكلمها . .

ظلت المرأة الشابة جامدة بلا حراك فترة طويلة . وأخيراً حركت جفنيها ، وأرسلت زفرة عميقة ، متشنجة ، وعرفت زوجها ، والتجأت الى صدره وجثمت بفرحة شخص تلافى موتاً محققاً . .

وهمست :

- هذا أنت . . هذا انت حقاً . .

ورويداً رويداً ، تراخت ذراعيها من العناق ، ورمت برأسها الى الوراء ، وهمهمت بابتسامة سعيدة :

- الحمد لله ، لقد انتهى كل شيء . . لكني جد تعبة !

ونامت نوماً عميقاً ، لكن عذباً .

- ١٠ -

ركع فابيوس أمـــام مضجعها ، ودون ان ينحي عينيه عن الوجه الشاحب كل الشحوب ، والناحل اشد النحول ، والذي انقشعت السحب عنه ، وعاد اليه رواقه وهدوؤه ، راح يفكر في كل مـــا جرى ، وفيا ينبغي عليه ان يسلك من تصرف . ما الذي سيفعله ؟

اذا كان هو قد قتل موكيوس – ولم يكن ثمة من شك في ذلك نظراً للطعنة النجلاء التي كان غرسها في أحشائه – لم يكن بالامكان إذن إخفاء العملية ؟ ينبغي عليه إخبـار الدرق والقضاة . لكن كيف يشرح لهم قضية مضبة كل ذلك الضباب ؟ ألم يكن هو القاتل لضيفه ، وقريبه ، وخير أصدقائه ؟ وسيسأل عن الباعث لفعلته ، وعندها ..؟

وإذا كان موكيوس ما يزال حياً بعد ؟

لم يكن في مقدور فابيوس أن يستمر في المكوث مع الشك مـدة أطول ، فتأكد من أن فاليريا قد غفلت وخرج بخطوات الذئب الخفيفة وتوجه صوب الجناح .

كان كل شيء ساكناً وأسود ، إلا نور باهت يضيء نافذة .. وكانت يد دامية قد طبعت بصماتها على الباب ، طبعة خفيفـة فوق المقبض .. دفع فابيوس الباب بقلب منقبض ، واجتاز الدهليز الغارق في العتمة ، ووقف عند العتبة ، مسمراً .

كان موكيوس مستلقياً بطول قامته وسط الغرفة على سجادة عجمية ، يستريح رأسه على وسادة بروكار ، يغطي جسمه شال ارجواني مشجر بالسواد . كان وجهه أصفر كالشمع ، أجفانه مزرقة ، ووجهه متحولاً

نحو السماء . لا تتردد نسمة في صدره ، يبدو ميتاً . كان المالي جاثياً على ركبتيه منحنياً قليلاً إلى أمام ، متـــدثراً بشال أرجواني أيضاً ، تمسك يده اليسرى نبتة مجهولة كأنها غصن سرخس ، يحدق في سيــده دون أن يرف . كان مشعل صغـــير مغروساً في الأرض ويشع نوراً أخضر ، لا تترجرج لهبته ولا تنفث دخاناً . ولم يأت الخـادم بحركة لدخول فابيوس ، انما اكتفى بالقاء نظرة سريعــة عليه عنـــدما دخل وسرعان ما حول بصره عنه إلى موكيوس .

كان يرفع بغصن السرخس من تارة إلى أخرى ، ويحركه في الهواء ويصفه . وكانت شفتاه الساكتتان تتحركان ببطء ، كما لو أنهما كانتــا تتمتمان ببعض الرقيات الصامتة . كانت الحربة اللعينة مطروحـــة على الأرض بين موكيوس والمـــالي . وكان الخادم يضرب النصلة الداميـة بالسرخسة التي في يده .. انحنى فابيوس على المالي وسأله بصوت خفيض ان كان سيده قد مات . هز المالي رأسه من أعلى إلى أسفل ، وأخرج يده اليمنى من تحت شاله ، وأشار إليه بحركة آمرة صوب البـاب . وأراد فابيوس أن يعيد سؤاله ، لكن الإشارة الآمرة أعيدت عليه ، فانسحب الشاب ساخطاً حائراً .

ورجع ليلقى فاليريا نائمة ، ووجهها أكثر هـــدوءاً . فجلس إلى النافذة ، دون أن يخلع ثيابه ، وأسند ذقنه في راحتــــه ، وغرق من جديد في خواطره . ووجدته الشمس حين أشرقت على ذلك الوضع . وكانت فاليريا تنام ملء أجفانها بسلام .

- ١١ -

قرر فابيوس أن ينتظر ريثما تفيق امرأتــــه ليذهب إلى فراري ، عندما قرع البـــاب بهدوء . خرج الشاب لتوه وشاهد خادمه الكهل انطونيو .

– سنيور ! أخبرنا الخادم المالي ان سيده السنيور موكيوس منحرف الصحة ويريد أن ينقل إلى المدينـــة . ولذلك يطلب اليك أن تتكرم وترسل اليه بعض الرجال لمعاونته على حزم حقائب سيده ، وعـــلاوة على ذلك ، يريد هو عند ساعة الفطور دوابـــاً للنقل وخفراء . هل تسمح بذلك يا سنيور ؟

– المالي هو الذي قـــال ذلك لك ؟ بأية طريقـــة ؟ أليس هو أخرسا ؟

– بلى يا سنيور . انه أخبرني بذلك بلغتنا ، وبصورة صحيحـــة جداً . هذه ورقته .

– وموكيوس ، قلت لي ، انه مريض ؟

– نعم يا سنيور ، مريض جداً ، لقد منع رؤيته .

– لعلك استدعيت له طبيباً ؟

– لا يا سنيور ، فقد عارض الخادم .

– هل الخادم الذي كتب لك هذا ؟

– نعم ، يا سنيور .

فكر فابيوس لحظة .

وأخيراً همس :

– حسن ، ليكن ، بلغه ما طلب .

وانسحب أنطونيو .

وتبعه فابيوس بنظرات حائرة .

وفكر ، وهو لا يدري ان كان عليه ان يغتبط أو ان يأسف :

« انه لم يمت إذن » .

ومع ذلك ، ألم يراه هو جثة ؟

« مريض إذن ؟ »

عاد الشاب الى غرفة النوم . استيقظت فاليريا ورفعت رأسها .

وتبادل الزوجان نظرة طويلة بليغة .

وبغتة همست المرأة الشابة :

– هل انتقل ؟

اختلج فابيوس اختلاجة عنيفة .

– ماذا تريدين ان تقولي ؟.. هل شاهدت إذن ؟..

تابعت هي سائلة :

– هل رحل ؟

تنفس الرسام الصعداء :

– لا ، لم يرحل بعد ، انما هو راحل اليوم .

– ولن أراه أبداً .. أبداً ؟.

– لا .. مطلقاً أبداً .

ارتسمت ابتسامة سعيدة على شفتيها ، ومدت كلتا يديها الى زوجها :

– لن نتحدث عنه ابداً .. ابداً .. هل تعدني بذلك ؟.. ولن أخرج

من غرفتي قبل أن يرحل هـــل تريد ان تنادي على إمائك ؟.. لكن انتظرا خذ هذا العرض .

وأماءت الى عقد اللؤلؤ الملقى على طاولة صغيرة .

– ألق به في جبنا العميق .. ضمني إليك .. أنا لك .. لك وحدك .. ولا ترجع قبل ان يرحل .. الشخص الآخر .

أخذ فابيوس العقد ، كانت حبات اللآلىء تبدو كابية . ونفـــذ هو رغبة فاليريا ..

وراح بعدها يتجول في الحديقة ، وهو يلقي نظرة من تارة الى اخرى جهة الجناح ، حيث كان الخـدم ، قد شرعوا في استعدادات الرحيل ، يخرجون الصناديق ، ويحمّلون الدواب ، ولم يكن المالي بينهم .

شعر فابيوس برغبـــة لا تقاوم ليرى ماذا يجري داخـل الغرفة ، وتذكر ان للجناح باباً سرياً فدلف منه ، ورفـــع الستار وألقى نظرة مترددة داخل الغرفة .

-١٢-

لم يكن موكيوس متمدداً على السجادة . انما كان جالساً على مقعد ، مرتدياً ثيـاب السفر ، لكنه يشبه الميت تماماً ، كما كان عندما شاهده في المرة السابقة . كانت رأسه ملقـاة جامدة على مؤخرة الكرسي . يداه مصفرتان منبطحتان على ركبتيه . لا يتردد نفس في صدره . ومن حوله على الارض نثر عشب يابس . وصف المـــالي فناجين صغيرة مليئة بشراب قاتم يفوح منه عطر مسك حاد . ويلف كل فنجان حية صغيرة

تعكس ضوءاً نحاسياً ، بعينين زائغتين ترسلان بين الفينة والفينة شرارات ذهبية . كان المالي بقامته الطويلة منتصباً أمام موكيوس ، مرتديا ثوباً فضفاضاً من البروكار ، متمنطقاً بزنار من ذنب النمر ، واضعاً على رأسه تاجاً وحيد القرن .

لم يكن الخادم ساكناً .. البتة ! كان يخر ساجداً مرة ، ويغرق في صلاة وينهض أخرى ويرتفع على مقدمة قدميه ويفتح ذراعيه في حركة عريضة وجليلة ، ويمد يديه صوب سيده آمراً مهدداً ، مقطباً حاجبيه ، ضارباً الأرض بقدمه . كانت تلك التمارين تكلفه مجهوداً مضنياً ومؤلماً ، وكان يتنفس بمشقة ، والعرق يسيل على وجهه .

وفجأة . جمد هو في مكانه وملأ رئتيه بالهواء ، وغضن جبينه ، ومد ذراعيه المتشنجتين إلى أمام وشدهما بجهد كأنه كان يمسك بيديه عناناً ..

وشاهد فابيوس ، وهو فريسة ذعر لا يوصف ، رأس موكيوس يتزحزح عن مؤخرة الكرسي حيث كان يرقد ، وأخذ يتابع حركة المالي .. وأعاد الخادم الكرة جذباً ودفعاً عدة مرات ، وكان الرأس تتابع الحركة بخضوع ..

وبدأ الشراب القاتم الذي تحتويه الفناجين يغلي . وكانت الفناجين نفسها ترن بطنين عذب وفضي ، وراحت الحيات النحاسية تتلوى بشكل حلزوني . عندها خطا المالي خطوة إلى أمام ، وقوس حاجبيه ، وجحظ عينيه إلى أبعد حد وفتح ذراعيه إلى أقصى حد ، وراح يحرك رأسه من أعلى إلى أسفل ، و ... اختلجت أجفان الميت وانفتحت لتكشف نظرة كامدة كالرصاص . واشتعل وجه المالي زهواً وبهجة ، بتلك البهجة الوحشية ، والشريرة تقريباً . وفتح فمه وأطلق صرخة طويلة

عالية صادرة من أعماق حنجرته .. وانشقت شفتا موكيوس أيضاً ، وأجابتا بأنة ضعيفة على صرخة الساحر غير البشرية ..

ولم يشأ فابيوس أن يرى كثيراً من ذلك . كان يخيل اليه انه يحضر رقية شيطانية ! وفر مهرولاً وهو يطلق صرخة عنيفة راسماً بحمى شارة الصليب وهو يتلو التعاويذ .

-١٣-

بعد ثلاث ساعات جاء انطونيو يعلم سيده ، ان حقائب السنيور موكيوس قد تم حزمها ، وان صاحبها راحل .

لم يجب فابيوس بشيء ، وخرج على السطح حيث يمكن منه مشاهدة الجناح .

كان يقف امام المبنى عدة دواب ، محملة بصناديق ثقيلة ، تحيط بحصان قوي أسود أسرج بسرج عريض لراكبين . والى جانب الدواب ، يقف خدم حاسري الرأس ، وكوكبة من الخفراء المسلحين .

وفتح الباب ، وظهر موكيوس يسنده المالي الذي ارتدى ثياب الخدم. كان وجه موكيوس اصفر ، وذراعاه متدليتين كالميت ، لكنه كان يمشي.. نعم ، يمشي . بل حين رفع على ظهر الجواد توفق في الجلوس مستقيما ، والى إيجاد اللجام بتلمس . ادخل المالي رجلي سيده في الركابين ، وامتطى الجواد وراء سيده ، وطوقه من خصره . وتحرك الركب .

كانت الدواب تمشي مشي الفرقة . وعندما دارت حول الفيلا ، ظن فابيوس انه لمح بقعتين بيضاوين في وجه صديق الأيام الخالية ..

هل يمكن ان يكون قد التفت بعينيه صوبه ؟

كان المالي وحده هو الذي حياه .. بسخرية .. كعادته دائماً .

هل شاهدت فاليريا رحيل موكيوس ؟

كانت أبواب نوافذ غرفتها مغلقة .. لكن ربما انهسا راقبت من خلال الشقوق ؟

-١٤-

وفي وقت العشاء ، جاءت المرأة الشابة عذبة وودودة ، إلا انها كانت ما تزال تعبة . لم يبق اثر لغصة الأيام الفائتة الـتي حملت خطراً مبهما من هلاك مجهول .

وفي اليوم التالي ، انكب فابيوس على لوحته ، ووجد في نموذجـــه ذلك التعبير الساذج الذي كان كسوفه الطارىء قد بلبله أيما بلبلة . كانت ريشته تجري على اللوحة بطلاقة ودقة .

ومن جديد عاد الزوجان إلى هناءة أيامهم الماضية . وباتفـاق ضمني أمسكا عن ذكر (الضيف) أو إثارة السؤال عن مصيره ، التي اكتنفته الألغاز :

فكأن الساحر قد اختفى تحت الأرض .

وفي مرة ، بـــدا لفابيوس أن من واجبــه أن يروي لزوجتـه أحداث الليلة المشؤومة .. لكن فالـيريا حزرت عزمـــه ، فأمسكت أنفاسها وطرفت بعينها طرفاً متواتراً ، كأنها ارتقبت تلقي صفعة ..

ففهم فابيوس وسكت .

وفي عصر يوم خريفي جميل أتم الرسام صورة القـديسة سيسيليا .

وكانت فاليريا جالسة إلى الأرغن وأصابعها تلبه على ملامس السلالم ..

وفجأة ، عرفت دون أن تدري نشيد نشيد موكيوس نشيد الحب الظافر .. وفي اللحظة نفسها أحست في أحشائها بحركات .. حركات حيـــاة جديدة .. كائن يستكمل كيانه ..

ومشت رعدة في أوصال المرأة الشابة ، وتوقفت ..

ماذا جرى لها ؟.. ترى هل من المحتمل أن تكون ..

* * *

ولم يفض المخطوط بأكثر من هذا .

(١٨٨١)

حلم

- ١ -

كنت أعيش في ذلك الحين مع امي في مدينة صغيرة ملاحية ، وكنت قد بلغت السابعة عشرة . ولم يكن عمر أمي ليزيد على الخامسة والثلاثين . إذ انها كانت قد تزوجت في سن مبكرة جداً . كان أبي قد مات وأنا أدخل السنة السابعة ، الا اني كنت أتذكره جيداً .

كانت أمي شقراء ، بقامة ضعيفة ، ووجه لطيف ، لكنه حزين على الدوام ، وصوت واه ، وحركات حيية . كانت من قبل على جانب عظيم من الجمال ، ورغم صروف الدهر لم تخف جاذبيتها . اني قط لم أشاهد عينين أكثر عمقاً وعذوبة وأسى ، ولا شعراً أشد نعومة ولا يدين أروع ..

كنت أعبدها ، وكانت تحبني ..

ومع ذلك لم تكن عيشتنا هنية ، رضية . فقد كانت علة خبيثة صغيرة . – لم تكن هي تستحقها ، وكانت مستعصية على الشفاء – تتآكلها .. لم يكن مصدر علتها الألم لفقدان أبي الذي كانت هي قد أحبته أعظم الحب ، وكانت تحتفظ بذكراه في أعماق قلبها .. لا ، انما كان باعثه شيء آخر : كان نوعاً من ضيق شديد غير محدد ، كنت

ألمسه بغموض ، لكن بيقين ، كلما كنت أنظر إلى عينيها الحنونتين الجامدتين ، وإلى شفتيها الجميلتين والمطبقتين ، الملومتين بمرارة .

قلت ان امي كانت تحبني ، ومع ذلك فقد كان يأتي عليها حين تدفعني عنها كما لو كان وجودي قد تحول فجأة الى عبء لا تحتمله ، او كأني أوحي اليها باشمئزاز حقيقي . لكنها سرعان ما كانت تندم على فعلتها وتضمني اليها ، باكية ، وتشدني الى قلبها وتتضرع إلي ان أصفح عنها. كنت أسند تلك النوبات الى انحراف صحتها ، والى آلامها .. لكن ألم يكن مسببها على الأصح تلك النزوات الشريرة بل حق المجرمة التي كانت تتكشف في نفسي في وضوح النهار ، ولو بصورة نادرة جداً..

كانت امي تلبس السواد بصورة دائمة ، كأنها كانت مستمرة في ارتداء الحداد . لكننا لنا ان نعيش عيشة رحبة ، وان كان عدد أصدقائنا قليلاً .

- ٢ -

كنت هم أمي الوحيد . وكنا ، هي وأنا ، جسداً واحداً ، وروحاً واحدة ، إذا جاز التعبير .

إن ذلك الصنف من العلاقة بين الآباء وبين الأبناء ليس هو دائماً كثير الفائدة .. وقد يكون أحياناً مضراً ، مردياً .. بالإضافة إلى ذلك ، كنت ولداً وحيداً .. وأن أغلب الأولاد الذين هم في وضعي لا يتلقون تربية طبيعية . فأهلهم ، حين ينشؤونهم ، إنما يفكرون في أنفسهم أكثر مما يفكرون في أولادهم .. وهذا ليس بالشيء الحسن .

إنني لم أكن مدلعاً أو مختلاً (وهما نقيصتان تترصدتان الطفل

الوحيد) . لكن جهازي العصبي قد تقلقل قبل الأوان . فضلاً عن أن صحتي العامة لم تكن على ما يرام : ولقد ورثت ذلك الضعف عن أمي ، التي كنت أشبهها في جميع النواحي .

كنت أفر من رفقة الصبيـــان الذين كانوا في سني ، بل من مجتمع النـاس عامة ، بل حتى من الاتصـــال الصميمي بأمي . كانت هواياتي المفضلة القراءة ، والنزهــة بمفردي ، والسباحة في الأحلام ، خاصـــة السباحة في الأحلام !

ليس في وسعي أن أقول بمـــاذا كنت أحلم . فأحياناً كنت أجد نفسي وراء باب نصف مغلق ، ووراءه تختبىء ألغاز معمات .. كنت أقف هناك قلقاً ، مرتعشاً ، متسائلاً عما يكون في الجـانب الآخر .. كنت لا أجرؤ على اجتيـــاز العتبة .. كنت أنتظر .. كنت أنتظـر أيضاً ودائماً .. أو أني كنت أنام .

لو كانت لدي الملكة الشعرية لقرضت بكل تأكيـد شعراً ، أو لو أني كنت تقياً لصرت راهباً .. إلا أني لم أكن هذا ولا ذاك ، لذلك ظللت أحلم – وانتظر .

- ٣ -

إني أشرت إلى أني كنت أنام تحت تأثير أحلام غامضـة . كنت أنام طويلاً ، بصورة عامة . وكانت الأحلام تلعب في حيـــاتي دوراً مهماً : كنت أحلم كل ليلة تقريباً . وكنت لا أنساها أبداً ، وكنت أسند إليها المعاني الغامضة التنبؤة ، وأسعى لتأويلها . كانت بعض تلك الأحلام تعود بصورة منتظمة . وكان ذلك يثير دهشتي دائمـاً . كان

واحداً من أحلامي خاصة يلقي في روعي الاضطراب أكثر من الآخرين : كنت أمشي فيه في زقـاق طويل ، ضيق ، وعر المسالك ، تقوم على جانبيه بيوت قديمة ، بحثاً عن والدي الذي لم يكن قد مـات ، إنما كان مختفياً في إحدى تلك البيوت . كنت أدخـــل مدخلاً واطئاً ومعتماً ، وأجتاز باحة زاحمة بدفوف وأحطاب ، وأدخل أخيراً كوخاً حقيراً ، مضاءً بنور ضعيف من كوتين مدوّرتين . كان والدي واقفاً وسط الحجرة يرتدي مبذلاً ويدخن غليوناً .

إلا انه لم يكن يشبه أبي الحقيقي ابداً . فقد كان هذا طويلاً ، نحيلاً ، اسمر ، بأنف أقنى ، وعينين قاتمتين نافذتين ، في حدود الأربعـين سنة . كان ساخطاً عليّ ، لأني دخلت عليه . ولم اكن أنا بسعيد للقياه: كنت اشعر شعور المفاجـــأة بل الشدة . وكان الرجل يدير لي ظهر الجن ، ويشرع في الدمدمة بشيء ما ، وهو يذرع ارض الحجرة ، جيئة وذهابا ، بخطوات صغيرة .. ثم انه كان يبتعد عني رويداً رويداً ، دون ان يكف عن الدمدمة ، ويلقي نظرات الى خلف من فوق كتفـــه . . وكانت جدران الحجرة تنزاح وتتحول الى ضباب .. وكان الفزع ينتابني لخشيتي من فقدان والدي مرة اخرى ، وكنت اركض وراءه ، ويكون هو قد غاب إلا اني كنت استمر في سمـــاع دمدمته التي تنبىء عن الغضب والتذمر .. كان قلبي ينقبض ، وكنت أفيق ولا أتمكن من مواصلة النوم..

وكنت طوال اليوم التالي ، افكر بهذا الحلم ، وكنت طبعاً لا أجد له تأويلاً مرضياً .

- ٤ -

تعرف مدينتنا الصغيرة في الشهر السادس من كل عام بعض النشاط والحيوية : اذ يأتي العديد من السفن وترسو في المرفأ ، وتطوف وجوه غريبة في الشوارع . وكنت احب التجوال على طول الرصيف أمام المطاعم والمشارب والفنادق متفحصاً وجوه البحارة والسواح الذين جاءوا من وراء البحار ، جالسين في الظل يشربوا البيرة على جرعات صغيرة ، التي تقدم لهم في كؤوس خاصة .

كنت أتنزه مرة ، فجذب انتباهي رجلا جالساً أمام مقهى بصورة خاصة . كان جالساً على كرسيه لا يتحرك ، مكتف الذراعين على صدره ، متدثراً بمعطف طويل أسود ، واضعاً على رأسه قبعة من قش ، وعلى جبينه تسقط خصلة شعر خفيفة متجعدة تكاد تصل إلى مستوى الأنف ، تقبض شفتاه على غليون قصير . كان يبدو هو لي بهيئته وملامحه ولونه الأسمر المصفر معروفاً إلى حد لم أتمكن الا أن أقف أمامه وأتساءل من يكون هو وأين أنى كنت رأيته . وحين شعر هو بنظرى يثبت بالحاح عليه رفع عينيه القاتمتين النافذتين .. فخنقت أنا صرخة .

كان ذلك الرجل والدي الآخر ، الذي كنت أبحث عنه في الحلم !

لم يكن من الممكن ان أخطيء ، إذ ان التشابه بينهما كان حقاً كبيراً . كان معطفه الذي يرتديه يذكر ، بلونه وبثناياه ، المباذل الذي كان (والد الحلم) قد ظهر لي فيه .

تساءلت :

« ألست أنا بنائم ؟ »

لا .. فالوقت نهار ، وحركة المـــارة شديدة ، والشمس ساطعـــة في سمـــاء زرقاء .. وهـذا الشخص ليس هو بشبح ، إنمـا انسان مثـلي .

وبحثت عن طاولة إلى جانبـه ، وجلست . وطلبت قـــدح بيره وصحناً ، ورحت أنظر وانتظر .

- ٥ -

اخبأت وجهي وراء الجريدة كي أتمكن من مراقبة جاري الغريب . كان الرجل لا يكاد يتحرك ، إنمـا كان يرفع رأسه ببطء من تارة إلى أخرى ، ويتركها تتدلى فوق صدره .. كنت أنظر إليـه باستمرار ، وكنت أشربه بعيني .. وكان يخيل إلي أني كنت مخدوعاً بخيالي ، وأن ليس ثمة من تشابه حقيقي بين هذا الشخص وبين والدي الآخر .. لكن لا ، كان يكفي أن يأتي بحركة أو أن يلفت رأسه لفتة خفيفة كي أعود فأعرفه من جديد ، وأن أختنق صرخة انذهال .

وانتهى الحـــال به إلى أن رأى فضولي ونظر إلي بدهش أولاً ، ثم بغضب وتظاهر بالنهوض وترك عصاه التي يتوكأ عليها تسقط على الأرض . أسرعت والتقطتها وناولته إياها وقلبي يكاد تتقطع نياطه .

شكرني هو بابتسامة مصطنعة ، وقرب وجهه من وجهي ، ورفـع حاجبيه وفتح فاه مشدوهاً كأنه شاهد شيئاً ملبكاً :

قال بصوت خشن :

– أنت مهذب جداً يا شاب ، والتهذيب خصلة نادرة في أيامنا هذه . إسمح لي أن أهنئك : إني أرى أنك تلقيت تربية ممتازة .

لم أعد أدري بماذا أجبته ، إلا أن البرودة ذابت بيننا . وعلمت أنه مواطن ، عاد أخيراً من أميركا حيث قضى أعواماً طوالاً ، وأن في نيّته العودة إليها . وأخبرني أنه بارون دو .. نسيت اللقب ، بل أني لم أسمعه بوضوح وقتذاك . وأنهى كلامه – كحال « أبي الآخر بهمهمة لا تبين .

وأفضي البارون عن رغبته في معرفة إسمي .. وحين سمع باسمي بدا على وجهه تعبير دهشي عظيم .

ثم سألني إن كنت أعيش في هذه المدينة منذ مدة طويلة ، ومع من أعيش . فأجبته بأني أعيش مع أمي .

وسألني :

– والسيد والدك ؟

– لقد مات أبي منذ زمن بعيد .

وسألني عن اسم أمي . وانفجر بضحكة مرتبكة ، سرعان ما اعتذر عليها وهو يشرح لي أنها عادة أميركية يجب ألا أعيرها قيمة . وأنه هو من حيث العموم غريب الأطوار .

وقبل أن نفترق عبر عن الرغبة في معرفة مكان سكناي . فأعطيته عنواني .

- ٦ -

كان الاضطراب الذي شملني في بدء محادثتنا قد زال ، وأخلى المكان لنوع من الاستغراب لمعرفتي بـه . في الحق ، كنت لا أحب ظـل تلك الابتسامة الماكرة التي كانت تتموج بين شفتي السيد البارون عندما كان يلقي أسئلة علي ، ولا تلك العينين المستقطبتين اللتين كانتا تحاولان النفاذ إلى أعماقي .. كان في نظراته شيء قاس ومحير ، شيء مفزع .. إني لم أر تلك النظرات في الحلم .

كان وجهه عجيباً : بالياً ، تعباً ، زال رونقه ، أكل الدهر عليـه وشرب . ومع ذلك ، كان فيه شباب ، شباب يقبض النـاظر إليه ! وفضلاً عن ذلك ، فإن (أبي الآخر) لم يكن يحمل على جبينـه آثار جرح عميق ، كالندبة التي تشق جبين البارون التي لم ألاحظهـا في بدء محادثتنا .

ما كدت أخبر الرجل الغريب بعد ان تم تعارفنا عن اسم الشارع الذي أقطن فيه ورقم المنزل حتى اقترب زنجي طويل يرتدي رداء بلا كمّين ، يكاد يخفي وجهه ، ومس كتف محدثي .. فالتفت اليه ، وقال :

– آه ! آه ! أخيراً !

وهز رأسه محيياً ، وغاب مع الزنجي في داخل المقهى .

صممت على انتظار عودته : لا كي أخاطبه (فلم يكن لدي ما أحدثه به) انما كي أتفحص وأتأكد من انطباعي الأول .

مرت نصف ساعة ، ثم ساعة برمتها .. ولم يظهر البارون ..

وذهبت للبحث عنه ، فلتشت في الصالات جميعها ، فلم أجد له أثر : من المؤكد أنه خرج منذ مدة طويلة مع الزنجي من الباب الخلفي ..

كنت أشعر بصداع خفيف ، فقررت أن استنشق الهواء الطلق ، ومشيت وقطعت الرصيف حتى وصلت حديقة البلدية ، التي يزيد عمرها على قرنين ، وبعد ان تجولت ما يقرب من ساعتين تحت دوحات السيجان ، رجعت الى بيتي ..

- ٧ -

ما كدت أدخل الدهليز ، حتى خفت الخادمة لملاقاتي ، شاحبة اللون . وتحسست ان مصيبة حلت أثناء غيابي ..

وبالفعل ، منذ ساعة كانت أمي في غرفتها وأطلقت صرخة عالية ، وركضت الخادمة اليها فوجدتها ممتدة على الأرض فاقدة الوعي . وبعد بضع دقائق ، عادت امي الى رشدها ، وحملت الى السرير . وهي الآن تبدو غريبة مذعورة ، لا تفتح فمها بحرف لتتكلم أو لتجيب على سؤال وتجيل بنظرها حولها وترتعد .

والطبيب الذي نودي عليه بسرعة ، من قبل بستانينا ، وصف علاجاً مسكناً . ولم تشأ امي ان تقول شيئاً اليه أيضاً . وزعم البستاني انه شاهد ، بعد ثوان من صراخ امي ، رجلاً يدوس على أزهار الحديقة ويتوجه نحو الباب . (كنا نسكن بيتاً بطابق واحد تفضي نوافذه على حديقة كبيرة) . لم يتمكن البستاني من تمييز ملامح الرجل إلا انه كان طويلاً نحيلاً يحمل قبعة من قش على رأسه ويرتدي معطفاً أسود .

سرعان ما قلت في نفسي :

« انه البارون ! »

وقد لاحقه البستاني ، إلا انـه لم يتمكن من اللحاق به . خاصة وان الخادمة نادته لاستدعاء الطبيب .

دخلت أنا غرفـة امي . كانت مستلقية على سريرها ، ووجهها أشد بياضاً من المخدة التي يرقد رأسها عليهـــا . أدركت هي بوجودي حالاً وابتسمت لي ابتسامة واهية ومدت لي يدها . فجلست الى جوار سريرها وسألتها عما أصابها .. لم تشأ في البدء ان تجيب بشيء مـــا ، إلا اني ألححت ، فاعترفت بأنها شاهدت ما أفزعها أشد الفزع .

سألتها مستفهماً :

– هل دخل أحد الى هنا ؟

صاحت محتجة :

– أوه ! لا ، لكنني ظننت اني شاهدت .. شبحاً .

وسكتت ، واخبأت عينيها بيديها .

وتملكتني الرغبة في ان اكشف لها ما أنبأني البستاني به وان اروي لها التقائي بالبارون .. ولا أدري لماذا توقفت الكلمـــات ولم تطلـع . ومع هـذا لم أتمكن من ان أمنع نفسي من ابـداء الملاحظة من ان الأشباح لا تطلع عادة في وضح النهار ..

همست أمي :

– أوه ! اتركني ، لا تعذبني .. سيأتي يوم تعلم فيه كل شيء .

وسكتت من جديد . كانت يداها مثلجتين ، ونبضها سريعـــاً وغير منتظم . ناولتها دواءها وتنحيت جانباً كي لا أزعجها .

ظلت هي مستلقية على فراشها حتى المساء ، ساكنة ، ساكتة . كانت أحياناً ترسل زفرات ، وتفتح عينيها وتغلقهما ، واجفة .

كنا جميعنا نتساءل عما حدث لها .

- ٨ -

عندما هبط الليل ، أصيبت أمي بنوبة حمى ، فطردتني من غرفتها . إلا اني لم أنسحب الى غرفتي ، انما قررت ان أرقد على أريكة في حجرة مجاورة . كنت أنهض كل ربع ساعة ، واقترب بخطوات الذئب الخفيفة من باب غرفتها وأتسمع .. سكوت الأموات ! ومع ذلك فقد كنت أشك كثيراً في انه أغلق جفن لها طيلة الليلة .

وفي الصباح في ساعة مبكرة دخلت أنا غرفتها ، كان وجهها ملتهباً ، وعيناها تلمعان ببريق عجيب .

وتحسنت صحتها بعد الظهر ، لكنها عند المساء ارتفعت حرارتها ارتفاعاً عالياً .

كانت هي قد التزمت حتى ذلك الوقت سكوتاً عنيداً ، وبغتة راحت تتكلم بلهجة متقطعة ولاهثة . لم تكن أقوالها هذياناً ، إنما كان لها معنى ، رغم أنها كانت لا تتصل فيما بينها بصلة منطقية .

وقبيل منتصف الليل جلست على سريرها على حين غرة (كنت أنا جالساً إلى جوار سريرها) وشرعت هي تدلي باعترافات طويلة . ولم تنظر إلي طوال تلك الفترة نظرة واحدة . إنما كانت تعب جرعة ماء من فترة إلى أخرى ، وتضع الكأس بحركة عصبية ، وتحرك يديها

حركات تعبة . وكانت هي تتوقف في أحيان أخرى ، وتغالب نفسها وتتابع روايتها من النقطة التي توقفت عندها .. كان يخيل إليّ أنها تتكلم كأنها في حلم ، أو كأنها غير مدركة لما تفعل ، أو كأن شخصاً آخر تقمصها وأجبرها على الخروج من صمتها .

- ٩ -

- إسمع جيداً ما سأقوله لك .. إنك لم تعد طفلاً ، وقد آن الأوان لتعلم كل شيء .. كان لي فيما مضى صديقة عظيمة .. تزوجت رجلاً أحبته حباً عظيماً ، وعاشا سعيدين . وقررا في عام زواجهما الأول أن يمضيا في سانت بيترسبورغ بعض أسابيع ليروحا قليلاً عن نفسيهما .

نزلا في فندق كبير وأمضيا جميع سهراتهما في المسرح أو في حفلات الرقص . كانت صديقتي جميلة التكوين ، ولاحظها الشبان وراحوا يتعقبونها ساعين مغازلتها . وكان من بينهم خاصة .. ضابط شابٌ كان يتبعها كظلها في كل مكان تذهب إليه . وكانت المرأة الشابة تحس بنظرات عينيه السوداوين القاسيتين تثقل عليها . إنه لم يحاول قط أن يتقدم للتعرّف إليها ، أو أنه وجه إليها الكلام . كان يكتفي بالنظر إليها بوقاحة ماكرة .

تعبت صديقتي من تلك الملاحقة الغريبة ، فراحت تتضرع إلى زوجها كي يتركا المدينة ويعودا إدراجهما ، إذ أن مسرات العاصمة وملاهيها لم تعد تستهويهما .

وفي إحدى الأمسيات بقيت وحدها لأول مرة ، إذ كان زوجها قد

ترك نفسه تنجر إلى سهرة مع جماعة من الضباط من فرقة ذلك الرجل ذي العينين القاسيتين نفسها .. وقررت هي في البدء أن تجلس منتظرة عودة رفيقها . لكنه تأخر والليل تقدم . فصرفت خادمتها وآوت إلى سريرها . وفجأة شملها شعور غريب بالفزع وراحت ترتعد جميع أعضائها . ظنت أنها سمعت حركة خفيفة وراء الحائط ، كما لو ان كلباً كان يخدش باباً . فأدارت عينيها . كانت فتيلة السراج تتراقص في زاوية ، وجميع الحيطان مغطاة بالقماش .. وبغتة ، تحرك القماش ، وارتفع ، وانزاح .. وظهر الرجل ذو العينين القاسيتين من وراء الحائط ، مرتدياً الثياب السوداء !

أرادت هي أن تصرخ ، إلا أن نأمة لم تخرج من حنجرتها التي شلها الخوف . انقض الرجل عليها كوحش ، وألقى شيئاً على رأسها . شيئاً مخنقاً ، ثقيلاً ، أبيض اللون ..

ماذا جرى بعد ذلك ؟.. إني لم أعد أذكر .. إني لا أذكر شيئاً البتة !.. كان ذلك الاغتصاب كالاغتيال .. وحين تبدد الضباب وإني ..

وإن صديقتي عادت إلى وعيها ، لم يكن في الغرفة أحد . وظلت هي فترة طويلة عاجزة عن الصراخ .. وأخيراً أطلقت صرخة حادة .. وغرق كل شيء في الضباب من جديد ..

عرفت هي في الوجه المنحني عليها زوجها حان قلق عليها . . كان رفاقه قد تمسكوا به في النادي حتى الساعة الثانية صباحاً .. بادر هو فسألها ، لكنها لم تخبره بشيء .. ثم شعرت بدوار .. وحين كانت وحدها في الغرفة وجدت في جسمها القوة لتتفحص الحائط فاكتشفت باباً وراء الستار ..

وأدركت فجأة ان خاتمها لم يكن في اصبعهـا . وكان الخاتم حلية عائلية أثرية مزينة بسبع نجوم ذهبية متداخلة في نجوم فضية .

لاحظ زوجها ذلك وسألها عن الخاتم . وبمـا انها لم تكن لتستطيع ان تخبره ، فزعمت انها ربمـا أضاعته ، ونهضت تبحث عنه في أرجـاء الغرفة ، ولم تجده طبعاً .

حملت تلك الأحداث الزوجين على اتخاذ قرار بترك العاصمة بأسرع ما يمكن ، ورحلا عندما سمح الطبيب لصديقتي ان تفعل ..

لكن تصور ا .. انهما في يوم رحيلهما صادفا ممرضتين تحملان على محمل رجلاً شقت جمجمته بضربة سيف .. ولم تكن الضحية إلا ذلك الطارق الليلي الغريب .. لقد قتل أثناء لعبة ورق !

التجأت صديقتي الى الريف ، وغدت أماً لأول مرة .. وعاشت بعض أعوام أخرى الى جانب زوجهـا ، الذي لم يعـلم من تلك المغامرة شيئاً .. وماذا كان في وسعها ان تقول له ، هي التي ما كانت تدري ماذا حدث ، بالضبط ، لها ..

الا ان الزوجين لم يذقا بعد ذلك طعم سعادتهما القديمة :

كان عبئاً ثقيلاً يثقل كاهلهما ، عبئاً حزيناً لا اسم له ينكد عيشهما.. ولم يرزقا بولد آخر .. وذلك الإبن هو ..

ارتعشت امي وخبأت وجهها بين راحتيها ..

ثم استأنفت وهي تقول بعزيمة متضاعفة :

– قل لي بكل صراحة ، هل كانت صديقتي مجرمة ؟ هل تؤخذ هي بجريرة ما ؟ لقد عوقبت ، لكن ألم يكن من حقها تحتج أن أمام الله ذاته وتعلن أن جزاءها ظلم ؟.. ولماذا تتآكلها الندامة على ما فرطت كأنهـا قد اجرمت . وانه بعد مضي تلك السنوات المديدة مـا يزال ماضيها

يفزعها ؟ . كان ماكبث قد قتل بانكو .. ولم يكن من المستغرب ان يلاحقه شبح ضحيته ويعذبه الى آخر عمره .. لكن انا ..

لكن انا ..

الى هنا ، وبدأت كلمات امي تبـــدو مضطربة . . . ولم أعد أنا استطيع ان أفقه عنهـا شيئاً .. الى هنا ، وراحت تهذي ، لم يكن في الأمر ريبة ..

- ١٠ -

كيف أصف الانطباعات التي أحدثتها اعترافات امي في نفسي ! فمنذ شرعت في الكلام ، أدركت انهـا تتحدث عن نفسها ، ولم تفعل التورية في حديثها إلا ان اكدت يقيني .. لقد كان ابي الحقيقي إذن هو الذي بدا لي في الحلم ثم في الواقع !. انـه لم يقتل كما كانت امي تظن ، انما لقد جرح فحسب .. انه جاء لرؤيتها وفر مذعوراً من فزعها !..

وبغتة وضح لي كل شيء : تلك النوبات العارضـــة من النفور التي تبديها أمي تجاهي ، وحزنها ، وعزلتها المتعمدة .. كانت الأرض تميد بي وكنت أجهد عبثاً للمحافظة على هدوئي .

كانت تمتلكني فكرة : التصميم على لقـاء الرجل الذي كان أبي ! لماذا ؟ لأي هدف ؟ كنت عاجزاً عن تحديد ذلك . إلا أنه كان يجب أن أراه ثانية ، وإن ذلك كان بالنسبة لي قضية حياة أو موت !

وفي اليوم التالي تحسنت صحة أمي : هبطت حرارتهـــا المرتفعة ، وتمكنت هي من النوم . وانتهزت تلك الفرصة وعهدتها إلى رعاية الخدم والجيران ، وحملت عصا الترحال وذهبت للبحث .

-١١-

في البدء ، ذهبت إلى المطعم الذي تعرفت فيه إلى البارون . لم يكن يعرفه هناك أحد ، ولم يلحظ وجوده أحد : لم يكن إلا زبون عابر . كان صاحب المطعم قد لاحظ الزنجي ، إذ أن شكله الغريب لا يمكن إلا أن يسترعي الانتبـــاه . إلا أنه كان عاجزاً عن مدي بأية معلومات عنه ، أو أن يقول لي أين ينزل . تركت له عنواني – عل وعسى – ورحت أجوب الشوارع وأقطـــع الجسور ، وأرتاد جميع المقاهي . إلا اني لم ألتق في أي مكان بمن يشبه البارون أو رفيقه ، من قريب أو من بعيد !.. كنت أجهـل اسم أبي الحقيقي ، لذلك لم يكن لي أن أتوجه إلى الشرطة للتفتيش عنه . بيد أني اتصلت بموظفين من قوى الأمن ووعدتهما بمكافأة كبرى إذا ما تمكنا من العثور على آثار الشخصين اللذين وصفتهما قدر استطاعتي . (ولم يعـــدم تصرفي أن يثير استغرابهما بل وريبتهما .)

وتابعت التحري حتى جاوزت الساعة غداء الظهر وعدت إلى المنزل منهوك القوى . كانت أمي قد تركت فراشها ، وكان في نظرتهـا نوع من المباغتة الحالمة ممتزجة إلى الحزن المألوف . وكان مرآها يفطر قلبي .

أمضيت سهرتي إلى جانبها ، ولم نتخاطب البتة : كانت هي تفتح فألاً ، وكنت أنا أجرب حظي في ورق اللعب . ولم تلمـــح هي مرة واحدة إلى اعترافها ، ولا إلى الأحـــداث الأخيرة . كأننا كنا اتفقنا ضمناً أن نتناساه .. كانت أمي تبدو نادمة لأنهـا أماطت اللثام عن

سرهـــا .. ولعلها كانت لا تذكر تماماً عم كشفت لي عنــه ، وإنها اعتمدت على كرمي .. وبالفعل كنت أرفق بها ، وكانت تقــدر ذلك حق قدره ، رغم أنها كانت تتحاشى من النظر إلي .

طيلة تلك الليلة ، لم أستطع أن أغمض جفناً .

كانت العاصفة تهيج البحر . وكانت الرياح تهزز زجاج النوافــذ . وتعول بيأس كأن شيئاً ينفجر في الفضـــاء ويهبط بأنين على أسطحــة المنازل ..

عند الفجر تمكنت أخيراً أن أهجع .. وبغتة خيل إلي أن أحــداً يدخل غرفتي ، وينـــاديني بصوت خفيض . . رفعت رأسي ولم أر أحــداً ..

والشيء العجيب هو اني لم اكن خائفاً : انما على العكس ، كنت اشعر باحساس منعش ، كأنني الآن قد حظيت يقينـــاً بالوصول الى غاياتي . ارتديت على عجل ، وخرجت .

-١٢-

كانت العواصف قد هدأت ، لكن ذيولها ما تزال ترجف الجو . كان النهار في مطلعه ، ولم أصادف احــداً في الشارع ، إلا ان قطع المداخن وألواح السقوف وأغصان الشجر ، كانت متناثرة على الارض .

فكرت في اولئـــك الذين قضوا ليلتهم على ظهر البحر ، وقلت في نفسي :

« يا للملاحين المساكين ! »

اتجهت نحو الميناء ، إلا ان قوة لا تقاوم كانت تحرفني عن طريقي ووجدتني بعد عشر دقائق في حي لم يسبق لي ان زرته قط . كنت أتقدم الهوينا ، لكن دون ان اتوقف أبداً ، فريسة لإحساس غريب : كنت أحس ان شيئاً خارقاً سيحدث رغم شذوذه .

- ١٣ -

وبغتة ، تحقق كل شيء ! على بعد عشرين خطوة مني شاهدت الزنجي الذي جاء لملاقاة البارون في المطعم . كان متدثراً بدثار أسود ، يظهر كأنه شق الارض وطلع ، يدير لي ظهره ، ويبتعد ! أردت اللحاق به ، إلا انه سارع خطاه وغاب في أول منعطف !. فركضت بأقصى سرعتي وبلغت زاوية الشارع ، و ... يا للمعجزة !. امتد طريق أمامي طويل ومقفر ، يغمره ضباب الصباح الرصاصي ، إلا ان عيني تمكنتا من اختراقه .. كنت أراه حتى آخره ، وأستطيع ان أعد البيوت على جانبيه .. لا يمشي فيه كائن حي ، أو يطل من نافذة .. كان الزنجي الطويل قد غاب بتلك الصورة المفاجئة التي ظهر فيها .. وقفت مشدوها للحظة فقط ، إذ ان انطباعاً جديداً طرد الانطباع الأول : كنت أعرف هذا الزقاق الصامت الميت !. زقاق حلمي !. كنت ارتجف من البرد ، فالصباح كان زمهريراً .. إلا اني استأنفت السير إلى الأمام دون أي شعور بالجزع .

بحثت فيما حولي .. ذلك هو المنزل هناك ، على الجهة اليمنى ، المتقدم على الرصيف ، فمدخله المزين بقرون الماعز .. انما ليست كوّاته مستديرة بل هذه مستطيلة .. لا يهم .. قرعت الباب .. مرة .. مرتين .. ثلاث مرات ، بقوة متزايدة .. وفتح الباب ببطء ، كفك يتثاءب ، وبصرير وثقل ..

بدت خادمة شابة ، شعثاء الشعر ، في عينيها آثار النوم ، انها لم تستيقظ تماماً بعد وراحت تتأمل في وجهي .

سألتها :

– هل يسكن البارون هنا ؟

وتفحصت انا اثناء ذلك ، الباحة الصغيرة .. ليس ثمة من شك ، انها هي .. والألواح نفسها ، والأحطاب نفسها ، تلك التي رأيتها في منامي .

أجابتني :

– لا ، البارون لا يسكن هنا ..

– كيف !.. ان هذا لمستحيل .

– انه لم يعد هنا .. لقد رحل البارحة .

– إلى أين ؟

– إلى أميركا .

أعَدت أنا رغماً عني :

– إلى أميركا ! هل عبر عن نيته في العودة إلى هنا .

رمتني الخادمة بنظرة حذرة :

– لا أدري ، ربما أن البارون لن يعود أبداً .

– هل مكث هو هنا مدة طويلة ؟

– لا ، حوالي ثمانية أيام . الآن إنه ليس هنا .

– ما هو إسم البارون ؟

حدقت الفتاة في عينيّ مستعجبة :

– انك لا تعرف اسم البارون ؟.. أما نحن فكلنا نناديه بالسيد البارون فحسب ..

وحين رأت أن في نيتي اجتياز العتبة لأدخل ، صاحت :

– تعال يا بيرو ! هنا شاب يلقي عليّ مجموعة من الأسئلة .

ظهر شبح عامل ضخم يتقدم في الباحة الصغيرة ؛

قال بصوت أبح :

– ماذا هناك ؟ ماذا تريد ؟

بعد ان أصغى إلي عابساً ، أعاد كلمة ، كلمة ما كانت الفتاة قد قالته لي .

سألت انا :

– من هو الذي يسكن هنا اذن ؟

– معلمنا .

– من هو ؟

– نجار . لا يسكن في هذا الزقاق سوى نجارين .

– هل استطيع مقابلته ؟

– لا . انه ما يزال نائماً .

– أيمكنني ان أدخل المنزل ؟

– لا ..

– استطيع ان أقابل معلمك فيما بعد ؟

– لم لا ؟ طبعاً انك تستطيع مقابلته ، شأنك شأن أي انسان .. انه تاجر . اذهب الآن ، يا شاب ، وعد فيما بعد .

قلت بغتة :

– والآخر الزنجي ؟

نظر العامل الينا باندهاش ، إلي اولاً ثم الى الفتاة . وهمس أخيراً :

– الزنجي ؟ اي زنجي ؟ انصرف يا شاب انصرف . عد مرة اخرى . يجب ان تقابل المعلم .

وابتعدت فوراً . وأغلق الباب وراء ظهري بغتة بثقل ، لكن دون صرير كما حدث عندما فتح ..

كنت خائباً . لقد جرى لي شيء خارق ، لا يقبله عقل انسان لماذا يجب أن ينتهي على ذلك الشكل السخيف ؟ فبدلاً من أن أجـــد الكوخ الذي كنت أعرفه ، وأبي البارون بمباذله وبغليونه ، وقعت على نجار ، على رجل عادي كالآخرين ، في وسع أي انسان أن يقـــابله . وفي إمكاني أنا أن اوصي عنـــده على أثـــاث للمنزل فيما إذا عنّ في خاطري .

وكان أبي قد رجع الى اميركا ! ماذا انا فاعـل الآن ؟ هل أروي كل شيء الى امي ، أم أطبق فمي وأمسح جميع دقائق هذه المغامرة من ذاكرتي ؟ .

في الواقع لم يكن بودي ان أقنع من تلك الأحداث الخـارقة . . ان تنتهي الى تلك النهاية السخيفة !

وذهبت الى الأمام ، بعيداً عن المدينة .

-١٤-

كنت امشي ، مطرق الرأس ، فارغاً من الفكر والأحاسيس ، منكمشاً على نفسي .

انتشلني من أحلامي هـدير أصم ، متساو وغاضب . رفعت رأسي ، فوجدت البحر يزمجر على بعد خمسين خطوة امامي . كنت أغرس أقدامي في رمال الشاطىء . كانت الأمواج الهادرة تأتي لتتبدد على الساحـل . وكانت زمّج الماء بأجنحتها الحادة تطلع من أعمـــاق الأمواج ، وتحوم ككبب ثلج كبيرة في سماء رمادية غائمة ، وتضم جناحيها وتقـع وتبدو كأنها تقفز من قمـة الى قمة ، وتغيب من جديد ، شبيهة بشرارات فضية

وسط شريط الزبد الأبيض . ولاحظت ان سرباً منهما يدور حول حجرة كبيرة ، ملقاة هناك .. وتأملت ملياً .. لم يكن ثمة من شك ان هناك شكلاً جامداً ممتداً ، قريباً من الصخور . وكان اطار الشكل يتوضح بنسبة ما كنت اقترب .

لم أكن على بعد يزيد عن ثلاثين متراً .

كان ذلك جسما انسانياً ، لعلها جثة غريق ، لفظها البحر على الشاطيء .

اجتزت بسرعة المسافة التي تفصلني عنه ..

البارون ! .. أبي ! .. وقفت مصعوقاً ، مدركاً فجأة لماذا كانت تدفعني قوة خفية الى هذا المكان بالذات منذ يقظتي .. وخلال بعض لحظات لم أعِ شيئاً سوى صخب أمواج البحر ، وذعر أخرس امام قدر كنت في كفه .

-١٥-

كان هذا الجسم إذاً متمدداً على ظهره ، مائلاً على جنبه قليلاً ، ذراعه اليسرى تحت رأسه ، وذراعه اليمنى ملوية تحت جسمه . الحمأة اللزجة بالغة حتى ساقية ، وغامرة جزمتي البحارة اللتين يتعلمها . سترته زرقاء مغبرة بملح البحر لم تكن مفكوكة الأزرار . ومنديل احمر يحيط بعنقه . كان وجهه الأسمر متجهاً نحو السماء ، يبدو كأنه يقهقه بهدوء . الشفة السفلى متراخية تكشف عن أسنان تامة متناسبة . النظر منطفئاً ، العينان نصف منطبقتين . كان شعره مضمخاً بالزبد منتشراً على الرمل يكشف عن جبين عريض مشطور بخط بنفسجي ، كان الأنف رقيقاً زلقاً ..

لقد عملت العاصفة عملها . فالرجل لن يشاهد ابداً شواطىء اميركا .

ان الذي أهان أمي وأفسد عليها حياتها كلها ، أبي - أي نعم، أبي ! اني لم أعد أشك مطلقاً - هو هنا طريح عند قدمي في الوحل . كنت أحس ، في الوقت نفسه ، برضـا كبير ، وبالشفقة ، وبالنفور وبالتقزز .. بنوع من الرهبة متضاعفة أمام ما كنت أشاهد ، وما انجز فعله . كانت تنتابني نزوات شريرة ، مجرمة ، كالتي سبق لي ذكرهـا ، وكانت تطغي على كياني وتخنقني ..

وأقول في نفسي :

« ان تلك مورثة عنه ، هو ذاك . »

كنت أنظر إلى الجثة دون أن آتي بحراك مترقباً خلجة من عينيـه الزجاجيتين ، أو رعشة خفيفة من شفتيه الزرقاوتـين .. لا شيء .. كان هو جامداً . وكانت زلج الماء تبتعد عن المكان الذي القى المـد اليه الجثة . لا حطام سفينة . الفضاء غير المحدود . الفراغ ، الصحراء . هو وحده فحسب . ثم أنا . ثم البحر الذي يزمجر من بعيد .

القيت بنظري على الجـانب الآخر ، إلى ورائي - الفراغ نفسه ، لا حركة أو نأمة ، هضاب بلهاء جامدة . كنت لا أريـد أن أترك الجثة في ذلك الحما طعمة للأسماك وللطيور الجارحة . كان يأمرني صوت داخلي أن استنجد بالناس - كأنه يمكن أن يوجد ثمـة ناس في تلك الصحراء ! - ان انقل الميت إلى ظل سقف .. وفجـأة تملكني جزع لا اسم له . خيل إليّ ان هذه الجثة كانت على عـلم بأني سأحضر ، وانها هيأت هي نفسها هذا الموعـد الحـاسم ، واسترق سمعي دمدمة خرساء مألوفة .. فابتعدت بضع خطوات .. والقيت نظرة أخيرة على أبي .. كان يلمع شيء في اصبع يده اليسرى .. خاتم امي .

اني ما أزال أذكر ما اقتضاني من جهد كي أرجع اليـه وأن أتحمل

مساس أصابعه الجامدة المثلجة ، وأن أنزع الخاتم وأنا أطبق جفني وأصر على أسناني ..

وأخيراً ظفرت به ، ورحت أهرول بأقصى ما استطيع من سرعة ، وشيء يتبعني ويتمسك بي ..

- ١٦ -

كانت جميع الانفعالات مرتسمة على وجهي عندما دخلت منزلي ، إذ ان امي هبت للاقاتي وراحت تتفرس في وجهي بالحاح ، وبعد أن هممت أنا ببعض كلمات مضطربة ، لم أستطع إلا أن أمد اليها بالخاتم دون أي شرح .

شحبت أمي أيما شحوب وجحظت عيناها إلى أبعد حد ويداك جامدتين ومخيفتين كعيني « الآخر » ، ثم أطلقت صرخة ضعيفة ، وأخذت الخاتم ، وترنحت ، ووقعت على صدري متشنجة ، رأسها إلى الوراء ، تنظر إليّ بعيني معتوه .

طوقتها أنا بحنان ، ورويت لها كل شيء بصوت خفيض وبتروٍ : حلمي ، والتقائي بالرجل ، والباقي كله .. أصغت هي إلي دون أن تقاطعني ، كان صدرها فقط يرتفع وينخفض ، وكانت الحياة تعود في عينيها ..

عندما أتممت روايتي ، وضعت الخاتم في أصبعها ، وذهبت لتحضير قبعتها وخمارها الكبير الأسود . ولما سألتها إلى أين تود الذهاب ، نظرت إليّ باستغراب ، وحاولت أن تجيب ، الا ان الألفاظ لم تواتها ،

واختلجت عدة اختلاجات ، وفركت يديها لتدفئهما ، وقالت أخيراً بجهد :

ـ هيا .. إلى هناك !

– إلى أين ، يا أم ؟

– إلى الشاطيء .. أريد أن أراه .. يجب أن أراه .. يجب أن أتأكد من شخصيته ..

حاولت أن أثنيها عن عزمها . لكنها أصيبت بنوبة عصبية حقيقية فاضطررت إلى الرضوخ لمشيئتها .

- ١٧ -

ها اني من جديد على رمال الشاطىء . لكني لست وحدي في هذه المرة . فذراع امي تستند على ذراعي . لقد خفت زمجرة الأمواج الا أنها ما تزال رهيبة ومؤذية . هذه هي الصخرة .. أفتش عن الكتلة المستطيلة ، ولا أرى شيئاً . واقتربنا كلانا ، ورغماً عني تباطأت في تقدمي .. أين هو إذن الرجل الميت ؟.. لا شيء .

الصخرة .. ولا وجود لجثة .. لكن الرمال أبقت على آثار الجسم والذراعين والساقين .. وثمة مواطىء أقدام تضيع على بعد خطوات .

تبادلنا ، أمي وأنا ، النظرات . وكل منا يفزعه ما يقرأ على وجه الآخر ..

ترى ألم ينجح هو في النهوض والذهاب ؟

سألتني أمي بصوت خفيض :

– ومع هذا ، كان هو ميتاً ، أليس كذلك ، عندما شاهدت ؟

هززت رأسي مؤكداً . لم يمض بعد ثلاث ساعـــات مذ اكتشفت جثة البارون .. هل حمله ؟.. وفي هذه الحال ، لا بد من العثور عليه ، ومعرفة ماذا جرى عليه .

لكن ، كان يجب علي أولاً أن أهتم بأمي ..

- ١٨ -

أثناء مسيرنا عادت الحمى فأصابتها ثانيـــة ، ولكنهـــا تمكنت من السيطرة عليها . كان غياب الجثة يزعزعهـا كليـــاً . وخشيت أنا على عقل أمي .

وبجهد كبير أوصلتهـا إلى المـنزل ، وطلبت أن تحمل إلى السرير ، واستدعيت الطبيب على الفور .

وعندما عادت أمي الى رشدها ، طلبت إليّ ان اذهب حالاً للبحث عن « ذلك الرجل » . فامتثلت لرغبتها ، لكن مساعيّ لم تكلل بالتوفيق رغم كل جهودي .. ذهبت الى مخفر الشرطة عدة مرات . أجريت بحثاً في جميع القرى المجاورة . نشرت اعـــلاناً في الصحف المحلية ، لكن دون جدوى ..

وعلمت أخيراً ، ان جثـــة غريق دفعتها الأمواج الى الشاطىء قد نقلت الى بلدة قريبة . فذهبت الى هنـاك ، ووصلت متأخراً . إذ كانت الجثة قد تم دفنها ، ثم ان اوصاف الميت لا تطابق أوصاف أبي .

وأنبأتني الاستعلامات ، ان السفينة التي كان من المفروض ان يكون البارون على ظهرها ، قد وصلت الى الميناء المقصود ، رغم انهـــا كانت

قد حسبت منذ مدة طويلة ، في عداد السفن المفقودة ..

وأثنـــاء تشتتي ، رحت ابحث عن الزنجي ، ووعدته بهبة كبيرة ، بواسطة الصحف ، اذا ما حضر للالتقاء بي ..

وفي يوم كنت فيه غائباً ، جـاء زنجي طويل ، متدثر بدثار أسود الى المنزل ، لكنه ابتعد بعد ان ألقى على الخادمـة بعض الأسئلة .. ولم يرجع أبداً .

وفقدت كل أثر عن .. أبي ، الذي اختفى بصورة باتة في الليـــل وفي السكون .

ولم نعد نتحدث ، أنا وأمي عنه البتة . مـا عدا مرة سألتني ، لماذا لم أرد لها حلمي وقتئذ ، وأضافت :

– إذن ، انه فعلاً ..

ولم تتم كلامها ، وتذهب الى آخر فكرتها .

مرضت امي مدة طويلة . ولما شفيت ، لم تعد صلاتنا كما كانت من قبل ، كانت تشعر بضيق في وجودي – بضيق ، انه التعبير الصحيح – وهذا الشعور لم يتركها حتى آخر نسمة من حياتها . ولم يكن في وسعي مساعدتها .

في الحق ، ان الزمن يأتي عـــلى كل شيء ، والذكريات الأعمق أثراً يضعف تأثيرها . لكن الشعور بالضيق ، إذا ما توطد بين شخصين قريبين، فلا يمكن لشيء ان يزيله !

ولم أعد منذ ذلك الحين ، أرى ذلك الحـلم الذي كان يفزعني أشد الفزع . ولم أعد « أبحث » عن أبي . ومع هذا . فإنه مـا يزال يحدث لي ان أسمع ، عندما أنام ، أنات بعيدة ، وشكاوة موجعـــة تدوي وراء حائط لا يمكنني تنسمه ، وتمزق قلبي . كنت ابكي ، مطبق العينين ، وما

كان في وسعي ان أدرك إن كان ذلك نحيب رجل ، او انه البحر الذي يعـــول للموت ، بغضب .. وبغتة يتحول الصوت الى دمدمة متذمرة – واستيقظ والفزع في روحي .

١٨٦٧

تك .. تك .. تك!

-١-

اجتمعنا حول ريدل ، وهو صديق قديم لنـا جميعاً ، روسي من عائلة عريقة ، رغم اسمه الالماني . وبدأنا بهذه الأقوال :

– بودي ان أروي لكم ، يا سادتي ، مغامرة وقعت لي منذ ثلاثين .. ربما أربعين عاماً . لن أطيل الحديث . أما انتم فلا تقاطعوني .

كنت حديث التخرج من الجامعة ، وكنت أجـد نفسي عندئذ في سانت بطرسبورغ . كان أخي مرشحاً في مدفعية الحرس ، وكانت فرقته معسكرة في كراسندية سيلو : كان الفصل صيفـاً . كان اخي يسكن ، لا في المعسكر ، انما في بلدة صغيرة مجاورة ، وبما اني كنت أزوره كثيراً فقد تعرفت بسرعة الى جميع أصحابه . كان أخي يسكن في كوخ ، ظريف مع ضابط آخر من فرقته اسمه تيغلف : سرعان ما توثقت عرى الصلات بينه وبيني .

يزعمون اليوم ، ان مارلينسكي هو كاتب عفى الزمان عليـه . لا يقرؤه أحد ، بل يستهزأ به . إلا انه كان في ١٨٣٠ أشهر من أي أحد ، حتى ان بوشكين ذاته لا يمكن مقارنته بـه ، حسب اقوال شباب ذلك العهد . ظفر مالينسكي بشهرة أول كتاب روسيا ، بل اكثر من ذلـك ،

– وهذا شيء نادر وصعب التحقيق – انه طبع بصماته على جبين جيل معاصريه بكامله . فأنى تذهبون تلقون بأناس متقمصين شخصيات مارلينسكي. كان عددهم كبيراً في الأقضية بصورة خاصة ، وفي فرق المدفعية على وجه أخص . كانت أقوالهم ورسائلهم مستوحاة من كتابات كاتبهم المفضل :

كان معشرهم قاتماً ، عابساً « العاصفة في الروح ، والنار في الدم » شأن اليولتنت بيلوزور في (بارجـة الأمل) . كانوا « يلتهمون » قلوب النساء ، ولذلك اتصفوا بصفة « الرجل المحتوم » ، كما تعرفون ذلك جميعكم ، وقـد عاش هذا الصنف من الأفراد فترة طويلة – حتى بتخورين . وأي شيء لا تجدون فيه : بايرونية ، رومانطيقية ، ذكرى الثورة الفرنسية ، وفتنة كانون ، تقديس شخصية نابوليون ، إيمانـــاً في القدر ، والنجم الهاوي ، وقوة الشخصية ، والنثر والإنشاد – والسأم من العدم . إنفعالات زهو بائس متحدة بعزيمة وجرأة حقيقيتين ، طموحاً نبيلاً يعارضه نشأة مهملة وأصل وضيع ، تبجحـــات أرستقراطية واعتداداً أجوف .. الخلاصة .. كفى فلسفة ! اني وعدتكم برواية ..

– ٢ –

كان الملازم تيغلف ينتمي الى صنف الرجـال « المحتومين » ، رغم ان مظهره الخارجي لا يؤهله لذلك : فمثلاً كان لا يشبه أي شبه « محتوم » ليرمونتوف . كان هو رجلاً قصير القامة ، بديناً ، محدودب الظهر قليلاً ، أشقر مائلا الى بياض : مستدير الوجه ، وردي الخدين ، أقنى الأنف ، ضيق الجبين ، غليظ الشفتين ، ودائماً جامدتين : اني قط لم أشاهده يضحك بل حتى يبتسم . أو بالكاد لمحت أسنانه البيضاء ، السكرية والمربعـة ،

عندما كان التعب والإنهاك يجبرانه على فتح فمه . ان تلك اليبوسة المتعمدة، المطبوعة ملامحه كلها بها تخسره تلك البشاشة العفوية المطبوع عليها . كانت عيناه وحدهما ليستا عاديتين : صغيرتين ، بحدقتين خضراوين ، وبأهداب صفراء . كانت عينه اليمنى مرتفعة قليلاً عن اليسرى . والجفن الأيسر لا ينفتح تماماً دائماً . كان كل ذلك يعطي لهيئته معنى شاذاً ، غير مستوي، ناعساً ، مسترخياً . كان في وجهه من حيث العموم مرارة ، تعكس عدم الرضى والدهش . كان صاحبه يرتقب في قراره تجسيد فكرة شرسة دون ان ينجح في تثبيتها .

ومع كل هذا ، كان تيغلف لا يعطي فكرة رجل ممتلىء بذاته . ولو انكم شاهدتموه لمنحكم انطباع المتواضع اكثر منه المعتد . كان يتكلم قليلاً بصوت أخن ، وإجلاج أحياناً ، ويردد دونما سبب الألفاظ نفسها . وبخلاف أغلبية « المحتومين » كان يتجنب التعابير المتحذلقة ، ولا يستعملها إلا في الرسائل الشعرية ، كان خطه كخط طفل يتعلم حسن الخط .

كان هو ضابط ، حسب آراء رؤسائه جميعاً : (على هذا وعلى ذاك) . لم يكن موهوباً جداً ، ويفتقر الى الهمة . كان يقول عنه قائد فرقته ، الذي كان من اصل ألماني وتجنس : « انه دقيق لكنه فوضوي » وكان يعكس في قوله هذا رأي سائر أفراد الفرقة : (على هذا وعلى ذاك) : نصفه تين ونصفه عنب .

كانت سيرته المعاشية متواضعة : كتواضع دخله . خلفه والداه يتيما في سن التاسعة ، بعد مجازفة على الأوكا أثناء الفيضان الربيعي . ونشأ في معهد داخلي حيث كان ينظر إليه كمثال للغباوة والانقياد والطاعة . ودخل بعد ذلك ، حسب رغبته في الكلية العسكرية ، بفضل توجيه عم له صاحب نفوذ كبير ، وبجهد كبير تمكن من اجتياز فحص المرشح ، ثم الملازم .

كانت صلاته بسائر الضباط ليست على ما يرام : كانوا لا يحبونه من حيث العموم ويتحاشون مرافقته : وكان هو نفسه لا يخرج كثيراً . إذ كان يشعر بالخجل في المجتمع ويتصرف بحزن ، كان مجتمع الرفاق محظوراً عليه ، ولم يكن له علاقة صميمية بأحد .

ومع ذلك فقد كانوا يحترمونه . لا من جراء خصاله أو ذكائه أو ثقافته ، إنما لأنهم دمغوا على جبينه ختم « الحتمية » . ولم يخطر في بال واحد منهم قط أن يعلن : « سيصل تيغلف إلى أعلى الرتب ، ستأتيكم من أخباره في المستقبل . » ، إنما كانوا يسلمون « بأن في جعبته أكثر من سهم » ، أو أن من المحتمل « أن يصير في يوم نابليون آخر ، هكذا ، دون سابق إنذار » . إذ أن هذه التحولات منوطة « بالبخت » ، وكان تيغلف رجلاً « مختاراً » ، كما أن هناك أشخاصاً « يزفرون » أو « ينوحون » .

- ٣ -

كان قد وقع له مغامرتان ، في بدء حياته العسكرية ، ساهمتا في شهرته كرجل « محترم » .

ففي يوم تخرجه - حدث هذا في حوالي منتصف الشهر الثالث من تلك السنة - كان تيغلف يتجول فوق الجسر بصحبة رفاقه الذين كانوا يريدون أن يشربوا نخب لباسهم العسكري الجديد . كان الربيع مبكراً ، والثلج بدأ يذوب على النيفار وحمل التيار أكبر الكتل الثلجية ، وكان لا يطفو على سطح الماء إلا قشرة رقيقة ضعيفة المقاومة . كان الشبان يتحادثون بدالة وغبطة ويتضاحكون .. عندما

توقف أحدهم : فقد شاهد ، على بعد عشرين متراً من الحـــافة ، كلباً صغيراً واقفـــاً على كومة ثلج ، أكثر صلابة من غيرها ، ينبح وهو يرتجف بجسمه المرتعد من قرس البرد .

همس بين أسنانه :

– انه هالك لا محالة !

ومر الحيوان أمام إحدى سلالم الجسر . وفجـــأة نزل تيغلف السلم دون أن يتفوه بحرف ، وتقدم بجرأة على الثلوج المتموجـــة ، وقفز من جزيرة ثلجية صغيرة إلى جزيرة ثلجيـة أخرى ، وكادت قدمه أن تزل ويغرق عـدة مرات إلى أن تمكن من الوصول إلى الحيوان المشرف على الهلاك ، وقبض عليه من رقبته ، ودار نحو رفاقه وألقاه اليهم . كان الخطر الذي عرض تيغلف نفسه له جسيما ، وكان ما قام به غير منتظر إلى حد ان الدهش والصمت خيما على رفاقه ، ولم يفتحوا فمهم جميعـــاً معاً في وقت واحد إلا عندما أشار تيغلف إلى سائق عربة ، ليرجـع بها إلى بيته ، فقد كانت ثيابه مبللة .

أجاب الضابط الشاب على هتاف رفاقه ، بلهجة طليقة : أن أحداً لا يستطيع أن يفر من قضائه المحتوم .

عندما تحركت به العربة صاح أحد رفاقه :

– إسمع ، خذ الكلب كذكرى ، على الأقل .

لكن المخاطب اكتفى بحركة استخفاف ، وذلك مـا جعل رفاقـــه ينظرون إلى بعضهم البعض نظرات انذهال .

أما المغامرة الثانية ، فوقعت بعد أيام من الأولى أثنـــاء حفلة لعب بالورق في منزل رئيس الفرقة . كان تيغلف لا يشترك في اللعب ، إنما انزوى في زاوية من زوايا الغرفة .

عندما تحسر مرشح صغير وهو يخسر ورقتـه الماليـــة بألف روبل الثالثة قائلا :

– آه ! ليت عجوز تستطيع أن تدلني على ثلاث ورقات رابحات ، كما في (بنت الماشه) في قصة بوشكين !

تقدم تيغلف إلى المائدة الخضراء دون أن يفوه بحرف ، وأخذ ورق اللعب ، وقطعه ، وقال :

– (ستة دينار) !

وبالفعل ، كانت أولى الورقات التي خرجت ، سته دينار .

وأعلن بالطريقة نفسها :

– (واحد سنك) !

ولم يخطىء .

ثم صفر من بين أسنانه بلهجة غاضبة :

– (ملك الدينار) !

وأصاب للمرة الثالثة و .. احمر وجهه ، لعـلـه لم يكن ينتظر تلك النتيجة هو نفسه .

ضحك رئيس الفرقة وقال :

– شعوذة ناجحة ! أعد الكرة إن كنت تستطيع !

قال تيغلف بجفاء وهو يغادر الغرفة :

– أنا لست مشعوذاً !

ليس في وسعي ان اخبركم ، بأية معجزة توفق في تلك العملية ثلاث مرات ، إلا اني استطيع ان أؤكدهـا لكم ، اذ كنت حاضراً ورأيتها بأم عيني .

حاول العديد منـا ان يقوم بالعملية نفسها ، بعد ذهاب تيغلف ، إلا

ان أحداً منا لم يتوفق : كان منا من يحزر ورقة واحدة ، لكن أحداً لم يحزر ورقتين متتاليتين . وكان تيغلف قد حقق حزر ثلاث ورقات ! ومنذ ذلك الوقت توطدت شهرته بصورة قاطعة كرجل محتوم ولغزي .

رفيما بعد ، كثيراً ما تساءلت : أين كانت تصير سمعته لو أنه كان قد أخطأ في حزره ، ولو لم يكن لدى تيغلف تلك الثقة بنفسه . إلا ان تساؤلي جاء متأخراً ، إذ كانت المسألة قد حسمت .

- ٤ -

من المفهوم ، ان يكون تيغلف قد تمسك بتلك الشهرة في الحال ، التي تضفي عليه أهمية ، وصفة خاصة . « ان ذلك مـــا ينيله حظوة » كما يقول الفرنسيون . وكان ذلك يواتيه حتى المواتاة بسبب ذكائه المحدود ، ومعرفته الضعيفة ، واعتداده الذي لا يقف عند حد . بقدر مـــا كان صعباً ان يستحق ذلك الصيت بقدر ما كان سهلا المحافظة عليه : كان يكفي لذلك ان يلتزم الصمت ، وأن يمثل دور الدببة .

ومع ذلك ، فإني لم أبحث عن الاتصال به ، والارتباط بـــه برباط الودّ من جراء ذلك الصيت . انما أحببت تيغلف اولاً لأنه كان رجـلا شريفاً ، وجدت فيه ندّاً لي . ثم بسبب قلبه الطيب وبساطة روحه . كان هو يثير في نفسي عاطفة الشفقة . إذ انـــه كان يبدو لي ، فضلاً عن « الحتمية » المشتهر بها ، مهدداً بقضاء فظيع ، وهو لا يرتاب بذلـك . وبالطبع اني لم أفضِ إليـه قط بعاطفتي تلك تجاهه : إذ ليس ثمة من إهانة أبلغ بالنسبة الى رجل « محتوم » كالشفقة عليه .

كان الملازم من ناحيته يظهر لصحبتي قبولاً : او انه كان على الأقل يشعر

في مرافقتي بالانطلاق ، ويتخلى عن تمثيل دوره الذي اختاره ، او الذي فرض عليه – لست أدري على التأكيد .

لم يكن له ان يتقيـد معي ، وأنا في التاسعة عشرة . لم يكن له أن يخشى أن يتفوه في وجودي بكلمة غبية أو خرقاء ، لذلك كان يحدث له أن يطلق لسانه بإسهاب ، أحياناً .

يجب عليّ ان اعترف انه لو ان أحداً غيري قد قطع أقواله لما دامت شهرته تلك طويلاً ! كانت معلوماته مقتصرة على لا شيء مرتين، وكذلك مطالعاته . وكان يكتفي ، في غالب الأحيـــان أن يسجل في ذاكرته بعض الأقاصيص والأحاديث التي يلتقطها من مصادفات محادثاته . كان هو يعتقـد بالتفاؤل والتشاؤم ، وبالتنبؤات ، وباللقاءات ، وبأيام النحس و ... المشؤومة ، بالطالـــع الحسن وبالسيء ، وبالأعوام « المنـــاخية » التي كان قد جرى الحديث عنهـــا بحضوره مرة ، والتي ما كان يفقـــه عنها شيئاً ..

والخلاصة ، يجب على الرجال « المحتومين » ألا يتغذوا بتلك التطيرات ، انما ان يوجدوها الى الآخرين .. ولحسن الطالع ، كنت وحدي الذي كان يعرفه على هذا الوجه .

– ٥ –

حدث هذا في يوم ٢٠ – ٧ . ذهبت لزيارة أخي ولم أجـــده في بيته . كان هو قد سافر في مهمة تستغرق ثمانية أيام . وبما أنه لم يكن لدي أقل رغبة للعودة الى سانت بطرسبورغ ، تأبطت بندقيتي وخرجت للصيد في المستنقعات المجـــاورة . رميت زوج حجـــل ، وأمضيت

السهرة برفقة تيغلف تحت كهف هرمي، مهجور هي كمصيف ، حسب تعبيره . تجاذبنا هو وانا أطراف الأحاديث ، ومر الشطر الاكبر من الوقت في شرب الشاي وتدخين الغليون ، والتحدث مع المؤجر ، الذي كان من أصل فنلندي ، أو مع البائع المتجول : « اطلبوا برتقالي ، اطلبوا ليموني ! » . وكان هذا رجلاً طيباً ، خفيف الظل ، من مواهبه العزف على الغيثار بمهارة . وحدثنا عن حب تعس ابتلى به في « فجر شبابه » نحو إبنة ساع وحين بلغ هذا الدون خوان الروسي سن النضوج عاف المغامرات الغرامية المنحوسة .

كان يمتد أمام باب الهرمي سهل واسع، وهناك جدول صغير ينساب في ثنايا الغابة . بقينا وحدنا عندما هبط الليل ،وبدأ الضباب ينتشر ويتكاثف ، وطلع القمر في السماء ونفذ شعاعه الذهبي من خلال الضباب ، وغمر الاشياء ، وصار القريب بعيداً والكبير صغيراً .. كل ذلك كان واضحاً وغامضاً . وانتقلنا إلى عالم فاتن ، إلى مملكة الضياء . والظلام ، حيث الذهبي والابيض ، والصمت اللانهائي والحلم .. وكانت النجوم ترسل من عليائها شرارات كلها الغاز ! كنا ساكتين كلانا ، فقد لفنا ستار الليل المسحور ، ودخلنا عوالم الاوهام .

- ٦ -

كان تيغلف أول من نقض السكوت ، وحدثني عن الاشباح ، عن استكشاف الأمور قبل وقوعها ، متأنثاً ، مواربا ، ومبدياً ومعيداً كعادته . وقص عليّ مؤكداً ، انه في ليلة شبيهة بتلك الليلة شاهد أحد اصدقائه – وكان طالباً يعمل كمربي لتمين – ويسكن في جناح في آخر الحديقة . شاهد شبح امرأة منحنية على سرير الطفلين . وعند

الصباح عرف في لوحة معلقة على الحائط ولم تسترع انتباهه حتى ذلك الحين : ان الشبح كان تلك الصوره التي كانت أم الطفلين اليتمين .

ثم انه حدثني أن ابويه ، قبل ان يغرقا بعدة ايام ، كانا يسمعان ليلاً ونهاراً خرير ماء . وان جده انقذ حياته في الحنائه لالتقاط حصاة رمادية عندما انطلقت من فوق رأسه رصاصة في اللحظة نفسها ونزعت غطاء رأسه . ووعدني تيغلف بان يريني الحصاة التي يحتفظ هو بها .

واخيراً حدثني عن الميل الخاص لكل واحد منا ، وعن هوايته هو الشخصية ، واضاف انه يؤمن ايماناً لا يتزعزع ، وانه اذا مـــا انتابه الشك فسيعرف هو كيف يقضي عليه في قضائه على حياته . إذ دون ايمان لا تساوي الحياة العيش . وصرح لي وهو يسترق بنظره الي :

ـ ربما انك تظن اني لن أقدم على ذلك ؟ انك لا تعرفني حق معرفتي .. إن ارادتي من حديد !

فكرت أنا على حده :

« أقوال حسنه . »

وشرد تيغلف مع خواطره ، واطلق زفرة طويلة ، ووضع غليونه وأعلن لي ان يوم العشرين من الشهر السابـــع هو يوم خطير خاصة بالنسبة اليه :

ـ إنه يوم عيدي .. انه يوم قاس دائماً .

كنت لا أجيب بشيء واتأمل هيئته المتلبكة المحدودبة ، ونظرتـه المطرقة والكئيبة والمتناعسة . وتابع هو يقول :

ـ قالت لي متسولة عجوز انها ستصلي من اجـل سلام روحي .. أليس هذا غريب ؟

(كان تيغلف يتصدق دائماً على جميع السائلين الذين يصادفهم على طريقه) .

قلت في نفسي من جديد :

« متى ستكف إذن عن الاهتمام بشخصك فحسب ؟ »

بيد اني يجب ان اضيف اني منذ بعض الوقت لاحظت على وجه تيغلف تعبيراً شاذاً بل مفصا . ولم يكن ذلك مصدره حزنه « المحتوم » انما كان وسواساً ملازماً حقيقياً لم اتمكن من تحديد باعثه .

كان يظهر على ملامحه لمرة جديدة ذلك الحزن الذي لا يوصف ، ترى ألم يكن ذلك امارات الشكوك التي حدثني عنها ؟

كان رفاق تيغلف قد حدثوني عن مشروع اصلاحات (عسكرية) رفعها هو إلى رؤسائه ، ونال عليها التوبيخ . ونظراً لطبيعته فان ذلك الاحتقار قد نكده بعمق . ومع هذا ، فقد كان يبدو لي ان لحزنه سبباً آخر من نوع آخر ، أشد صميمية .

قال وكتفاه مرتجفان :

– لقد ازدادت الرطوبة في الجو . هل تريد أن ندخل إلى الكوخ ؟ إن وقت النوم قد حان .

كان من عاداته أن يحرك كتفيه ويدير رأسه ذات اليمين وذات اليسار ، ويديه على رقبته ، كأن رباطه يشد على عنقه . وكان طبعه بكامله يتلخص في تلك الحركة الحزينة والمصبية .

– أو ذلك ما كنت أعتقد – أنا – . كان العالم الأرضي يضيق به .

دخلنا الكوخ وتمدد كل منا على مضجعه : هو تحت الايقونات ، وأنا على كومة من هشيم إلى جانب الباب .

- ٧ -

كان النـــوم يجفوني . وكنت أسمع صـاحبي يتقلب على فراشه في زاويته .

أكانت أقاصيصه أم غرابة تلك الليلة التي استفزت أعصابي . وكان النوم ينفر مني بعناء . وكنت متمدداً ، فاتح العينين ، أفكر بما لست أدري من ترهات سخيفة كما يحدث دائماً في حالة الأرق .

وفي تقلبي من جنب إلى آخر ، مددت ذراعي إلى أمام .. اصطدم اصبعي بعارضة . وسمع دوي ضعيف ، أصم ومديد : لقد وقعت على مجوف .

أعدت الكرة متعمداً في هذه المرة ، وعاد الدوي نفسه . وألححت.. وفجأة رفع تيغلف رأسه . وهمس :

— ريدل ، هل تسمع من يطرق تحت النافذة ؟

تظاهرت أنا بالنوم ، وأحسست برغبة ماكرة في مخـــاتلة صديقي « المحتوم » . وعلى كل حال كان الرقاد لا يستجيب .

عاد هو وأسند رأسه على مخدته . انتظرت فـترة ، وضربت ثلاث دقات متتابعات .

ارتفع تيغلف من جديد ، مرهفاً سمعه .

أعـدت الكرة . يجب أن أقول لـكم انني كنت أواجـه صاحبي . لكنه لم يكن يستطيع أن يشاهـد ذراعي . إذ كنت أخبأتها ورائي تحت الغطاء .

صاح تيغلف :

– ريدل !

لم أجب أنا .

رفع صوته صائحاً :

– ريدل !.. ريدل !..

قلت بصوت غاف :

– هيه ! ماذا ؟

– ألم تسمع ؟ هناك من يطرق تحت النافذة .. كأنه يريد أن يدخل ..

– أوف .. ذلك مار .

– يجب أن نفتح الباب له .. يجب أن نرى من هو ..

لم أجب بشيء وتظاهرت بالنوم ..

مرت دقائق .. وكررت أنا الجرم ..

« تك .. تك .. تك ! »

جلس تيغلف على سريره وأصاغ السمع .

« تك .. تك .. تك ! تك .. تك .. تك ! »

من خلال أجفـاني نصف المطبقتين كنت أستطيع أن ألاحظ جميع حركاته في ضياء القمر الشاحب . كان هـو يحول رأسه على التوالي من الباب إلى النافذة . وكان من العسير بالفعل تحديد مصدر الدوي . كان يدوي في أرجاء الغرفة وينساب على حيطانها . كنت وضعت اصبعي بلا ارادة مني على نقطة مكبرة للصوت وباعثة للصدى .

« تك .. تك .. تك ! »

صرخ تيغلف أخيراً :

– ريدل !.. ريدل !.. ريدل !..

قلت وأنا أتثاءب :

– ماذا ؟

– ألم تسمع ؟ إن أحداً يطرق !

قلت وأنا أتظاهر بالنوم وبالشخير :

– ليحفظه الله !

هدأ تيغلف .

« تك .. تك .. تك ! »

صاح صاحبي :

– مَن هنا ؟ أدخل !

لم يأت جواب ، طبعاً .

« تك .. تك .. تك ! »

قفز تيغلف عن مضجعه ، فتح النافذة وانحنى إلى الخارج وسأل بصوت مخنوق :

– مَن هنا ؟ مَن يطرق ؟

ثم فتح الباب وردد السؤال . صهل جواد من بعيد .

وعاد الضابط إلى مضجعه ..

« تك .. تك .. تك ! »

هب هو وانتعل حذائه بسرعة ، ورمى معطفه على كتفيه ، وتناول سيفه المعلق على الحائط ، وخرج ليدور حول الكوخ . وسمعته يسأل عدة مرات :

– من هنا ؟ من يطرق ؟

ثم سكت هو ، وسكن فترة . ثم عـــاد واستلقى بلباسه على مضجعه .

أعدت أنا :

« تك .. تك .. تك ! تك . تك .. تك ! »

لم يأت تيغلف بحركة . واكتفى بالاصغاء وقبضته على ذقنه .

لما رأيت انا ان ذلـــك لم يعد يثيره ، تظاهرت كأني استيقظ ، وتأملت رفيقي مبديا الدهش . سألته :

– هل خرجت ؟

قال بصوت حيادي :

– نعم .

– هل طرق من جديد ؟

– نعم .

– ألم ترى احداً ؟

– لا .

– وهل انقطع الطرق !

– لا ادري . انما لا يهمني الآن .

– الآن ؟ لماذا الآن اذن ؟

لم اتلق جواباً .

كنت اشعر ببعض الخجل والكدر . بيد اني لم اجرؤ على الاعتراف له بمزاحي . وشرعت أقول :

– سأقول لك شيئاً . انت العوبة خيالك .

قطب هو حاجبيه :

- آه ! .. انك تعتقد ذلك .

- قلت لي انك سمعت من يطرق على الباب ..

قاطعني هو قائلا :

- وشيئاً آخر ايضاً ؟

- ماذا ايضاً ؟

انحنى هو إلى امام ، وعض على شفته ، متردداً في التكلم ، ثم همس وهو يريد عن رأسه :

- لقد نودي علي .

- لقد نودي عليك ؟ .. من ناداك ، من ؟

- واحدة .. شخص كنت أظنه ميتاً .. الآن ، اني متأكد .

صرخت أنا على الفور :

- هذا خديعة خيالك ، اني اؤكد لك !

- خيالي ؟ .. اه ! نعم . انك تعتقد هذا .. هل تريد دليلا ؟

- نعم .

- هيا اذن ؛ لنخرج .

- ٨ -

ارتديت ملابسي على عجل وخرجت وراءه .

لم يكن أمام باب مسكننا بيوت ، انما سياج واطىء فيه عدة فجوات ، ووراءه أرض منخفضة تهبط إلى الوادي . كان الضباب يغمر كل الأشياء ، وكنا لا نميز حاجة على بعد عشرين خطوة أمامنا . ووصلنا إلى السياج ووقفنا .

همس وهو يخفض رأسه :

- هنا . اسكت وانصت !

أرهفت سمعي كما فعل هو . ولم أسمع إلا أنسام الليل الخفيفـــة . وبعد بضعة دقائق من السكون تهيأت لأعود أدراجي ، عندمــا سمعت وراء السياج مَن يهمس :

– ايليوشا !

نظرت إلى تيغلف كان يبدو ، كأنه لم يسمع شيئاً ، خافضاً رأسه بأسى . وردد الصوت ، صوت امرأة ، بوضوح أكبر :

– ايليوشا !.. ايليوشا !..

وهلعنا كلانا وتبادلنا النظرات . قال رفيقي :

– ماذا . أظنك لن تشكّ ، الآن !

قلت له :

– انتظر ، هذا لا يدل على شيء .. لنرى ان لم يكن هنالك أحد وراء السياج .. لعله أحد الهازلين ..

قفزت من فوق الحاجز وتقدمت باتجاه مصدر الصوت .

شعرت تحت قدمي بالأرض رخوة خوارة . كنت في بستان خضر . لا شيء يتحرك من حولي . كل شيء يبدو ميتاً ، غارقاً في الرقـاد . تقدمت بضع خطوات . وصرخت مثل تيغلف :

– من هنا ؟

طارت حصاة تحت قـــدمي ؛ فارتميت على جنب رغماً عني .. يا للحماقة ؟

القيت نظرة إلى وراء . كان تيغلف واقفاً في مكانه نفسه . فلحقت به . قال لي :

ـ انك تسأل عبثاً .. ان ذلك الصوت الذي ناداني .. جاء من بعيد .. من بعيد جداً ..

امر بيده على وجهه وعاد ادراجه بخطى وئيدة . كنت لا اريد ان اعترف بخيبتي فعدت إلى البستان . ان احداً قد نادى « ايليوشا » ثلاث مرات ، ليس على هذا ظل من شك : بصوت شاك ، آن ، غامض.. لكن ما ادراني ؟ لعل مصدره شبيه بالدوي الذي اثار انفعال رفيقي ؟

كنت امشي محاذياً السياج ، متوقفاً من تارة الى اخرى ، كمينـــا راصداً . كان ينتصب الى جانب كوخنا صفصافة شعثاء تبـدو وسط الضباب الحالك كتلة ضخمة سوداء . وبدالي على حين غيرة ان شيئاً حياً يتحرك عند جذع الشجرة . فهجمت إلى امام وانا اصرخ :

ـ قف ! من هنا ؟

تحركت خطى خفيفة كقفز الارنب ، وغاب شكل انساني ، مذعورا منحنياً طاقين ، اكان رجلا ام امرأة .. اردت اللحاق به الا اني ترنحت وهويت على الارض ، على القراص الذي الهب وجهي .

حين نهضت احسست بغرض قاس تحت يدي ، كان ذلك مشطا من نحاس مربوطاً بخيط كما يحمل الفلاحون في حزامهم .

بعد ذلك ذهب تفتيشي عبثاً . فعدت الى الكوخ ملتهب الخدين .

- ٩ -

كان تيغلف جالساً على مضجعه ، يكتب شيئاً على ضوء شمعـة في دفتر صغير لا يفارقه ابداً . عندما شاهدني سارع وغيب دفـــتره في

جيبه ، وحشى غليونه بالتبغ . قلت له :

– خذ يا صاحبي ، هذه هي الغنيمة التي غنمتها من صيدي .

ومددت له يدي بالمشط ، وحدثته عما جرى لي عند الصفصافة .

– اني افزعت لا شك لصاً لعلك سمعت انه قـــد سرق في الليلة الماضية لجارنا فرساً ..

ابتسم تيغلف لي ابتسامة غير وديعـة واشعل غليونه . جلست الى جواره .

– اذن ، انك ما تزال تعتقد ان الصوت الذي سمعناه جـــاء من نواح بعيده حيث ..

اوقفني هو بحركة آمره .

– اسمع يا ريـدل . ان مزاجي الآن لا يسمح لي بتقبل المزاح ، واطلب اليك بحراره الا تمزح .

كان هو يقول صدقا ، فيما يتعلق بمزاجه . كان وجهه قد تغير تغيرا كاملا : كان يبدو شاحبا ، اكثر تعبيرا وطولا . كانت عيناه الغريبتان « والمتباعدتان » زائغتين .

– كنت أظن انه لن يتاح لي الفرصة لأعلم شخصاً آخر .. شخصاً آخر سواي بالقصة التي ستسمعها والتي يجب أن تموت .. تموت بـــين جوانحي .. فضلاً على ذلك فان ذلك مكتوب .. القضاء ! .. ومـــع ذلك فليس لي خيار . اسمع إذن .

وروى لي راوية طويلة .

لقد كنت أخطرتكم يا سادتي أن تيغلف كان راوية رديء . لكن

هذه النقيصة لم تكن الوحيدة التي لمستها عنده في تلك الليلة : كان صوته ولهجته ونظرته وحركته ، كان كل هذا يبدو لي ، بكلمة واحدة : بهتاناً ، متكلفاً لا جدوى فيه من أوله إلى آخره .

ماذا تريدون ؟ كنت حديث السن ، محدود التجربة ، أجهل أفانين البلاغة .. ان صناعة التمثيل والاداء تغدو بالاستعمال طبيعة ثانية ، لا يمكن التخلص منها ، متى أردنا .

وفي المدة الأخيرة ، قابلت امرأة من سيدات المجتمع ، انبأتني بموت ابنها ، بحركات تمثيلية وتفجع في صوتها ، وهز برأسها حتى اني فكرت رغماً عن « يا لها من ممثلة ! وكم هي كاذبة ! في الواقع ، انها لم تحب ابنها أبداً .. » ، مع انها كانت حدثتني عن يأسها « الذي لا يدخل في قياس » ، وعن خشيتها من فقدان عقلها لكبر مصيبتها .. ثم بعد ثمانية أيام جنت المرأة المسكينة فعلاً . ومنذ ذلك الحين صرت حذر من أحكامي ولا أركن إلى انطباعاتي الأولى .

-١٠-

هذه بإيجاز قصة تيغلف .

كان للشقي ، فضلاً عن عم عالي المقام ، عمة أخف مقاماً إلا أن ثراءها لا بأس به . لم ترزق باولاد فتبنت طفلة يتيمة من أصل متواضع ، وربتها تربية حسنة ، وعاملتها كما لو كانت من لحمها ودمها . كان اسمها ماري .

كان يتغلف يراها يومياً تقريباً . وكما يمكن أن يحدث في مثل تلك

الأحوال فانهما أحبا بعضهما البعض . وسلمت ماري نفسها للضابط . وذاع الخبر ، فطردت العمة ابنتها المتبناة شر طردة ، وانتقلت الى موسكو وتبنت فتاة أخرى نبيلة المحتد وجعلتها وريثتها . وعادت ماري تعيش مع ذويها – زوجين شقيين سكيرين – عيشة ضنك ومرارة . كان تيغلف قد وعدها بالزواج ثم تراجع وسحب وعده أثناء لقاءهما الأخير عندما ألحت المرأة الشابة عليه لمعرفة الحقيقة .

وأعلنت هي له :

– بما انك لا تريدني كزوجة ، أنا عارفة ماذا بقي لي أن أفعله ..

مضى خمسة عشر يوماً على ذلك . قال تيغلف :

– لم أتعلل بالأوهام عن مرمى كلامها . اني متأكد انها جنت على نفسها .. وان ذلك الصوت كان « صوتها » الذي يناديني من هناك .. من أعلا .. لقد عرفت .. انه القدر !

– لكن لماذا لم تتزوجها ؟ هل كنت لا تحبها ؟

– بلى ، كنت أعبدها .. واني لا أزال أعبدها .

كنت أتأمله بفضول ، وأتذكر صديقاً آخر لي ، رجلاً سريع البديهة ، متزوجاً من امرأة قبيحة ، بلهاء ، فقيرة . ولما بديت استغرابي له يوماً للمأساة التي زج نفسه بها . وسألته لماذا تزوج إذن ان لم يكن الدافع له الحب . أجابني : « لا ، أبداً .. اني تزوجت .. هكذا ! » ترى ألم يتراجع تيغلف عن الزواج بفتاته لذلك السبب نفسه : « وهكذا » ؟

الححت عليه بسؤالي :

– لماذا لم تتزوجها ؟

دارت عيناه الزائغتان الناعستان في جميع النواحي .

ثم قال متلجلجا :

ـ هذا لا يقال في بعض كلمات .. هناك اسباب .. وعلاوه على ذلك ، انها برجوازية صغيرة .. ثم ان عمي .. كان يجب ان احسب لرأيه حسابا ..

صحت انا :

ـ عمك ؟ واي شأن له في هذه القضية ، وانت لا تقابله الا يوم عيد رأس السنة عندما تزوره زيارة مجاملة ؟ لعلك لا تضن انك سترث ملايينه : وقد خلف اثني عشر ولدا :

كنت اتكلم بحرارة . فاغتم تيغلف واحمر ، وقال بصوت اصم :

ـ ارجوك الا تدلي لي بنصائح . ثم اني لا احاول ان ابرر موقفي .. لقد كنت المسبب لموتها .. يجب ان ادفع الثمن !

اخفض هو رأسه وسكت . ولم اجد انا ما اقوله .

-١١-

بقينا ساكتين ما يزيد على خمس عشر دقيقة . كانت عيناه تطوفان في الفضاء . كنت اتفرس فيه والاحظ ان شعره على جبينه يرتفع ويرتجف . وحسب رأي طبيب في الجيش ان هذا لدليل قاطع على حاله حمى دماغية شديدة .. وكنت افكر من جديد ، ربما ان هذا الرجل هو فعلا العوبة القدر ، وان رفاقه لم يصفوه عن عبث « بالمحتوم »

وفي الوقت نفسه كنت احكم عليه في قرارة نفسي ، واقول :

« برجوازية صغيرة .. تلك الفتاة . وانت ، كأنك ارستقراطي وكأن تيغلف قد حزر ما يجول في خاطري فقـال :

– انك تحكم علي يا ريدل ، انا متأسف .. لكن ماذا ينبغي لي ان افعل .. ماذا يجب علي ان افعل ؟

اسند ذقنه على راحته وراح يقرض اظافره العريضـة المتسطحة في اصابـع قصيرة حمراء صلبة كالحديد .

قلت له :

– يخيل الي ان اول عمل عليك ان تقوم به هو ان تتأكـــد من فرضياتك .. لعل حبيبتك ما تزال على قيد الحياة .

وتساءلت في لحظة :

« هل اعترف له عن مصدر الصدى ؟ .. لا .. فيما بعد ! »

قال تيغلف :

– انها لم تكتب لي ، ولا مرة واحدة ، منذ وصولي إلى هنا .

– هذا لا يبرهن على شيء .

اتى هو بحركة افلاس :

– لا ، اني على يقين انها لم تعد على قيد الحياة .. انهـــا هي التي نادتني . وفجأة التفت صوب النافذة :

– لقد طرق من جديد

انفجرت بالضحك رغما عني :

– اه ! لا ، هذه المرة ، انها اعصابك . اني لا اصدقك .. انظر ،

لقد بدأ الفجر يبزغ ستشرق الشمس بعد عشر دقائق . والاشباح لا تتجول في وضح النهار ، على ما اعلم .

القى تيغلف عليّ نظرة قاتمة وارتمى على مضجعه وادار لي ظهره وهو يهمهم صارا باسنانه :

– الوداع .

اضطجعت كذلك وانا اتساءل قبل ان انام اية حاجة له لينوه عن احتمال قيامه بالانتحار .. يا له من مهرج ! انك لم تتزوجها عندما كان الامر منوطا بك وانك الآن تفكر في قتل نفسك ! يا للغباء ! يا للمهزلة الشنيعة !

نمت بعمق . وعندما فتحت عيني كانت الشمس عالية في كبد السماء . ولم يكن تيغلف هناك .

شرح خادمه لي ان سيده ذهب إلى المدينة .

-١٢-

امضيت نهارا طويلا ومضجراً . لم يرجع تيغلف ، أما أخي فكنت لا انتظره .

وعند المساء انتشر ضباب اشد كثافة من المساء الفائت . آويت إلى مضجعي في ساعة مبكرة .

استيقظت برجفة ! هناك من يطرق على النافذة ! لقد جاء دوري كي ارتعد !

تكرر الدوي بالحاح لحد لم يعد لي ان ارتاب في واقعه . فقمت ،

وفتحت النافذة ، وشاهدت تيغلف . كان يقف جامدا امامي ملتفـــا بمعطفه ، مرخياً قبعته حتى عينيه :

– إيليا ! هذا أنت ؟.. أدخل بسرعة ! لقـــد انتظرتك طوال اليوم .. لماذا لم تدخل ؟ مع أن الباب ليس مغلقاً ؟

هز رأسه بالنفي ، وقال بصوت أصم :

– لا أريد أن أدخل . بودي فقط أن تسلم هذه الرسالة غـداً إلى قائد فرقة المدفعية .

رفع يده إلي بغلاف كبير مختوم بخمسة أختام . تناولت الغـــلاف بصورة آلية . وابتعد تيغلف على التو .

– انتظر ، انتظر !.. إلى أين أنت ذاهب ؟.. هل عدت لساعتك ؟ ما معنى هذه الرسالة ؟

ابتعد تيغلف بعض خطوات إلى الوراء وهو يقول :

– هل تعدني بإيصالها إلى المرسلة إليه ؟ هل تعد بذلك ؟

كان ظله يغوص في الضباب .

– نعم ، إني أعدك بذلك . لكن ، أولاً ..

استمر هو في التراجع إلى الوراء ، لم يعد إلا بقعة سوداء منسية .

– الوداع يا ريدل !.. لا تلمني !.. لا تنسى سيمون ..

وغابت البقعة ذاتها .

في الحق ، طفح لدي الكيل . قلت لنفسي بصوت خفيض :

« أيها المهرج اللعين .. أفي جعبتك جميع الأدوار !

ومع ذلك ، أمسكت غصة خانقـة بحنجرتي . ألقيت معطفي على كتفي ، وخرجت .

أين أذهب ؟ كان الضباب يحيط بي من كل جـانب ، يخنقني . كان

كثيفاً إلى بعد خمسة أو ستة أقدام ، لكنه كان ينتصب فيما ابعد كحائط أبيض ، رخو كأنه من قطن . التفت إلى اليمين كان كوخنا قبل الأخير في الضيعة ، وبعد ذلك ينفتح الطريق على أرض جرداء ، ينبت فيها بعض الشجيرات ، وبعدها غابة صغيرة من شجر القصبان يرويها الجدول المنساب في جوفها ، والذي يحيط بالضيعة إحاطة السوار بالمعصم . كنت أعرف الأمكنة من جرّاء جولاتي الكثيرة التي كنت أقوم في أرجائها في وضح النهار . لكني في ذلك الحين كنت لا أرى شيئاً ، ولم يكن في وسعي غير أن أخمن تقريباً بسبب كثافة الضباب وبياضه ، المكان الذي يجري الجدول فيه . كان القمر معلقاً في السماء ، ككرة كبيرة باهتة ، وكان ضياؤه لا يثقب كثافة الدخان .

نزلت إلى المرج وشنفت أذني . لا نأمة . – فقط صفير كروان في بعيد .

صحت عند هذا :

– تيغلف !.. إيليا !.. تيغلف !

كان صوتي يذوب قريباً مني ، دون أن يجاوبه صدى ، كإن الضباب يمنعه من الانطلاق .

– تيغلف !..

لا جواب .

كنت أمشي إلى أمام ، عرضاً كيفما اتفق . اصطدمت بسياج ، كدت أقع في حفرة ، انكببت على بغل ضعيف نائماً في الفلاة .. كنت أنادي باستمرار :

– تيغلف !.. تيغلف !..

وبغتة طلع صوت أصم من جانبي :

ـ ها أنذا .. ماذا تريد مني ؟

وواجهته .

كان هو أمامي ، متهدل الذراعين ، حاسر الرأس ، شاحب الوجه ، إلا ان عينيه كانتا تبدوان اكثر حيوية واتساعـــاً من العادة .. كان يتنفس بعمق ، فاغراً فمه .

شددت على يديه وصحت بفورة فرح :

ـ الحمد لله ! كنت يائساً من لقياك .. يجب ان يندى جبينك خجلا لتخويفك اصدقائك على هذا الشكل المخزي !

أعاد تيغلف :

ـ ماذا تريد مني ؟

ـ أريد .. أريد أولاً أن تأتي معي ، ثم اني أفرض عليــك ، ان من حقي ذلك باسم صداقتنا ، أفرض عليك ان تشرح لي في الحال معنى أفعالك هذه ، وخاصة فحوى تلك الرسالة الى الكولونيل . هــل حدث لك حادث خارق في سانت بطرسبورغ ؟

أجاب دون ان يتزحزح من مكانه :

ـ لقد وجدت تماماً ما كنت أنتظر .

ـ أتريد ان تقول ان .. صديقتك .. ماري ..

حسم هو ترددي بغضب :

ـ انتحرت . . ودفنت أول أمس . انهـــا لم تترك كلمة لي ، قبل تسمم نفسها .

كان هو جامداً ، متصلباً يتلفظ بتلك الكلمات الرهيبة بصوت متسرع، همه أن يفرغ منها .

رفعت يدي الى السماء :

– يا إلهي !.. أية مأساة !.. ان حدسك لم يخدعك!.. هذا رهيب!..

سكت انا مضطرباً . شبك تيغلف ذراعيه على صدره ببطء ، كأنه المنتصر .

قلت :

– في الحق ، لماذا نبقى هنا ؟ الأجدر بنا أن نرجع الى المسكن .

– نعم لنرجع .. لكن ماذا نفعل كي نجد طريقنا ؟

– يوجد ضياء في مسكننا ، لنستدل به تعال .

– امشي أمامي ، وأتبعك .

وسرنا . لم يكن ضياء أمامنا . وبعد سير خمس دقائق ، لمحنا بقعتين حمراوين . كان تيغلف يتبعني . كنت أحث السير فثمة ما يوجب التعجل .. معرفتي بتفاصيل رحلته التعسة الى سانت بطرسبورغ . واعترفت له ، في توبة من الندم والذعر ، بدعامتي له ليلة الأمس الذي انتهى بمأساة.

اكتفى هو بالملاحظة بأني لم أكن المسبب لشيء ما ، ولم تكن ذراعي إلا أداة القضاء ، وان ما قلته يبرهن على اني ما أزال أجهله أسوأ الجهل . كان صوته هادئاً ومستوياً يدوي قريباً من أذني .

وأضاف :

– لكنك ستعرفني يوماً ما . اني رأيت ابتسامتك مساء البارحة عندما نوهت لك عن قوة عزيمتي .. سوف تتذكر كلماتي .

طلع أمامنا أول مسكن حقير في الضيعة من قلب الضباب الأبيض كغول أسود .. وبعده ، ذاك مسكننا .. نبح كلبي عندما اشتم وجودي .

طرقت على النافذة وناديت خادم تيغلف :

– سيمون !.. هيه ، سيمون !.. انهض وافتح لنا الحاجز .

جاء سيمون وفتح لنا بضجة .

التفت إلى ورائي وقلت :

– تفضل تيغلف ، ادخل أنت أولاً .

لم أجد أحداً ورائي . فقد اختفى صاحبي كالظل .

دخلت الكوخ ، مذهولاً .

– ١٤ –

لم تكد تمضي فترة حتى أخلى الإنـــذهال المكان للغضب . فرحت اصرخ في وجه الخادم :

– انه مجنون ، سيدل .. مجنون يحب حجره .. ذهب إلى سانت بطرسبوزغ وعاد إلى هنا ، وقضى ليلته في الجري في الخارج ، بـــلا غاية ، ولا تعقل !.. لقد أجبرته على مرافقتي حتى المنزل : وعندمـــا وصل الحاجز .. فش ! لا أحد !.. طار !.. انه يختار ، اختيـــاراً ملائماً ، وقته ليحرجه خطاه في الخلاء !

أنبني صوت داخلي :

« لماذا تركت يده ؟ »

كان سيمون ينظر إلي ولا يقول شيئـــاً ، نظرة من بوده أن يجيب لكنه لا يجرؤ : هكذا كان الخدم في الزمن الماضي .

سألته بقسوة :

– في أية ساعة خرج سيدك صباحاً .

– الساعة السادسة .

– هل كان يبدو عليه انشغال البال ؟

غض سيمون طرفه . ثم قال أخيراً :

– ان سيدنا معقد .. لا وسيلة لفهمه .. قبل أن يذهب ، طلب الينا بدلته العسكرية الجديدة ، ثم جعّد .

– جعد ؟ ماذا تريد أن تقول ؟

– جعد شعر رأسه ، وحميت الحديد له .

اني اعترف لكم ان هذه الفعلة هي آخر ما كنت أتوقع من تيغلف .

– هل تعرف يا سيمون فتاة ، صديقة سيدك ، اسمها ماري ؟

– طبعاً ، انها فتاة شهمة .

– ان سيدك عاشق لها ، أليس كذلك ، و .. أخـــيراً ، انك ترى ماذا أريد أن أقول .

أطلق الخادم زفرة :

– انها ستضيعه ، أقول لك . ذلك لأنه يحبهـــا ، ولا يجرؤ على الزواج منها .. كما انه لا يجرؤ على هجرها .. يجب الأعتقاد ان الارادة تنقصه . ربما انه يحبها كثيراً .

سألته دون أن أتمكن من كبح جماح تطفلي :

– هل هي حقاً .. جميلة ؟

بدت الرصانة على وجه سيمون :

– ان السادة يحبونهن عندما يكن على ذلك الشكل .

– وحسب ذوقك ؟

– لا ، فنحن ، لا يعجبنا .

– ولماذا ؟

– نحيلة جداً .

– إذا ما كانت هي قد قضت نحبها ، أفتعتقد ان سيدك سيعيش بعدهـا ؟

أطلق هو زفرة أخرى :

– ليس في وسعنا الإجابة .. المسألة مسألة سيدنا .. رجل غريب .. ومعقد إلى ذلك .

تناولت الغلاف الذي سلمني تيغلف إياه ورجعته بيدي .. كان موجهاً : « إلى صاحب السعادة السيد قائد فرقة المدفعية الكولونيل والفارس » ويأتي الاسم واللقب . وفي الزاوية العليا كتب « مهم » وخط تحته خطين .

– اسمع يا سيمون . أنا خائف من أجل سيدك . يخيل إلي أن خواطر سيئة تضطرب في رأسه . لا بد لنا من أن نعثر عليه .

– نعم ، يا سيدي .

– الضباب كثيف لدرجة لا يمكننا من أن نرى على بعد خطوتين . لكنه يجب ألا يثنينا عن عزمنا . سنحمل معنا مصباحين ، وسنجعل شمعة في كل نافذة ، عله ..

– نعم يا سيدي .

وأشعل سيمون الشموع وأضاء مصباحين . وخرجنا إلى الطريق .

-١٥-

سأجنبكم الحديث عن تشلتنا . لم يسعفنا المصباحين في شيء ولم يتمكنا من تبديد الظلال البيضاء والرخوة التي كانت تحيط بنا . وضعنا في مرت عديدة وضيعنا بعضنا البعض . ومع ذلك كنا لا نكف عن إصلاق نداءت متتاليه :

كنت أصيح أنا :

– تيغلف !.. إيليا !.. تيغلف !..

وكان سيمون يجيب لندائي ، كالصدى :

– سيد تيغلف !.. يا صاحب السعادة !

كان الضباب يخبلنا . كنا نمشي مترنحين ، كما في حلم ، وبح صوتنا ، إذ كانت الرطوبة تتسرب إلى أعماق حناجرنا .

التقينا ببعضنا البعض قرب الكوخ بفضل الشموع المضاءة وراء النوافذ . وذهب بحثنا المشترك سدى ، إذ كنا نميق أحياناً بعضنا البعض . اقترحت أن نفترق وأن يذهب كل منا في جهة .

دار سيمون إلى اليسار ، وسلكت أنا الطريق عن يمين . وانقطعت بعد لحظة عن سماع صوته . كان الضباب قد ولج إلى داخل دماغي . كنت أمشي متخدراً ، أطلق نداء من تارة إلى أخرى :

– تيغلف !.. تيغلف !..

سمعت بغتة صوتاً يجيب :

– حاضر !

يا إله ! أي عزاء ! أسرعت في الناحية التي خرج منها الصوت .. قامة سوداء ظهرت لي على بعد خطوات مني .. أخيراً !

إنما لم يكن الشخص تيغلف ، إنما كان ضابطاً آخر في الفرقة نفسها ، كان اسمه تيليبنيف .

سألته :

– هل أنت هو الذي أجابني ؟

أجاب :

– هل أنت هو الذي ناداني ؟

– لا ، إنما ناديت تيغلف .

– تيغلف ؟ إني التقيت به منذ فترة !.. يا لليلة الحمقـاء !.. ليس من سبيل للعودة إلى بيوتنا !

– انك شاهدت تيغلف ؟ الى أين كان ذاهب ؟

كشح محدثي الضباب بحركة من يده ، وقال :

– الى هناك ، على ما أظن .. لكننا ما كنا ندري اين نحن .. هل تستطيع ان تقول لي ، على سبيل المثال ، أين تقع الضيعة ؟.. امـا أنا فانني لم أعتمد إلا على نباح الكلاب لاستدل على طريقي .. ، يا للحماقة !. أسمح لي ان أشعل لفافة تبغ .. هذا يضيء قليلا رغم كل شيء .

– ألم يقل تيغلف لك شيئاً ؟

– أوه ! بلى ، وكيف ؟ قلت له : السلام عليـك يا أخ !.. أجابني الوداع يا أخي !.. الوداع ؟ لماذا الوداع ؟.. قال لي : ذلك لأني أريد أن أطلق رصاصة في دماغي .. انه أبله حقاً !

قطع حديث الضابط أنفاسي علي :

– انك قلت انه ..

أعاد الضابط وهو يبتمد بمشيته المترنحة :

– انه البلاهة بعينها .

قبل ان أعي بحواسي تماماً سمعت مَن ينادي اسمي ويكرر . وعرفت صوت سيمون .

أجبت أنا .. واقترب هو مني .

-١٦-

ـ ماذا هل وجدته ؟

ـ نعم .

ـ أين ؟

ـ في مكان غير بعيد ، عن هنا .

ـ طبعاً يا سيدي ، بل اني خاطبته (وتنفست انا الصعداء) . وجدته جالساً على جذع شجرة ، متدثراً بمعطفه ، كأن شيئاً لم يحدث . قلت له : يجب ان تعود ، يا صاحب السعادة ، فالسيد ريدل قلق جداً ! أجابني هو : ليس من سبب لذلك البتة . اني أرغب في استنشاق الهواء الطلق . أشكو صداعاً .. عودا أنتما الى البيت ، وسألحق بكما بعد حين .

صرخت وأنا أرفع ذراعي الى السماء :

ـ وإنك ذهبت !

ـ طبعاً .. بما انه قال لنا . لم يكن في وسعنا ان نبقى .

تملكني الذعر ، أشد من السابق .

ـ قدني حالاً الى حيث التقيت به ! هل تسمعني ؟.. حالا !.. يا سيمون المسكين ، كنت أصدق عنك هذا . قلت أنه غير بعيد ؟

ـ بل قريب جداً ، هنا ، عند طرف الغابة ، قرب مجرى الماء .. عندما سرت على حافة الجدول وجدته .

ـ حسن ، هيا بنا .

وتقدمني وهو يقول :

– ستری ، انه قريب جداً .. يكفي النزول حتى الجدول ..

لكننا بدلا من ذلك وجدنا نفسنا أمام هري مهجور .

صاح سيمون :

– قف .. إني لا شك انحرفت كثيراً إلى اليمين .. لنسر إلى اليسار ..

درنا إلى اليسار ، ووقعنا على أرض قراس ، لم أذكر إني كنت شاهدته بجوار القرية .. وعلى بعد خطوات منه راحت أوحال مستنقع تعلق في نعولنا .. عدنا إدراجنا .. وعلى تلة صغيرة نصبت عليها خيمة استرعى انتباهنا شخير نائم .. أدخلنا رأسينا إلى داخل الخيمة وأطلقنا عدة نداءات . تحرك شخص ببطء ، وهو يرمي عنه الهشيم الجاف ، وصوت نائم يقول : « حاضر ! »

تراجعنا إلى الوراء .. السهول المنبسطة المستوية التي لا نهاية لها ..

كنت على وشك الانفجار بالبكاء وأنا أستعيد رغماً عني أقوال المهرج في مسرحية الملك لير : « هذه الليلة ستنتهي وتذهب معها عقولنا ..

قلت لسيمون بصوت بائس :

– والآن أين نذهب ؟

أجاب بصوت مرتبك :

– يجب الاعتقاد أن إبليس هو الذي ضيعنا . ليس هذا طبيعياً .. إن شيئاً خفياً غير مسر يختبىء وراء هذا ..

أوشكت أن أؤنبه عندما استرق سمعي صوتاً ضعيفاً . كان ضربة خفيفة كحين تفتح زجاجة بجهد . كان مصدر الصوت قريباً جداً . لست أدري لماذا بدا لي شاذاً ، واتجهت إلى الناحية التي صدر عنها .

سار سيمون على أثري . بعد لحظات ، بدت كتلة سوداء عريضة واسعة في جوف الضباب .

صاح الخادم :

– الغابة الصغيرة ! هنا ! هذا هو ! هناك صاحب السعادة تحت الشجرة في المكان الذي تركته !

ألقيت نظرة . بالفعل ، كان هناك رجل جالساً ، يدير لنا ظهره أسرعت اليه ، وعرفت معطف تيغلف ، وهيئته ، ورأسه المائلة على صدره.

– تيغلف !

لا جواب .

كررت ندائي وأنا أضع يدي على كتفه .

– تيغلف !

ترجرج ومال الى الأمام وتمدد على العشب ، طائعاً ، كأنه كان ينتظر تلك اللمسة الخفيفة . استعنت بالخادم ، وأدرنا وجهه نحو السماء . لم يكن الوجه شاحباً ، انما ساكناً وخاوياً من الحياة ، الأسنان بيضاء ، العينان ثابتتان ، نصف مفتحتين .

همس سيمون وهو يشير الى يده المخضبة بالدم :

– يا إلهي !

كان الدم يسيل من صدره ، من الجهة اليسرى ، تحت المعطف .

انه قتل نفسه بالمسدس الملقى عند قدمي . وكان الصوت الغامض الذي سمعته قبل فترة طلقة نار .

- ١٧ -

لم يتفاجـأ فان تيغلف كثيراً بنهايته المحزنة . إذ كانوا معتادين على اعتباره كرجل « محتوم » . فقد كانوا يترقبون منه أفعـالا خارقة ، لكن لا تصل بالتأكيد الى ذلك الحد .

ففي رسالته الى قائد الفرقـــة طلب اليه أن يشطب من الملاك اسم الملازم إيليا تيغلف المجرم بقتله نفسه عن سابق عمـد وإصرار ، وأضاف إلى ذلك ان في خزانته من المال ما يزيد عما يلزم لوفاء ديونه . وكان في داخل الغلاف رسالة مفتوحة إلى القائـد الأعلى . وقرأناها جميعـاً طبعـاً ، بل نسخ بعض منا صورة عنها . وقـــد كلفت كاتبهـا بكل تأكيد جهداً كبيراً .

وهي تبدأ تقريباً بهذه الكلمات :

« أنظر ، يا صاحب السعادة ، بما أنه يحدث لك أن تكون قاسياً تجاه أصغر إهمال في المظهر ، وأقل انحراف في الشكل عندمـــا يمثل ضابط بين يديك ، شاحباً مرتجفاً ، وأنا سأمثل أمام قاضينا المشترك ، العفيف النزيه ، أمـــام الكائن الأسمى ، كائن أسمى ربمـا لا يحـد ، بسعادتك ، وإني ذاهب إليـــه بكل بساطة ، بمعطف وبلا ربطة عنق .. »

أوه ! ذلك التقزز الذي أوحت لي به تلك الجمـلة ، المكتوبة بخط متقن كخط الأطفـــال ! كيف استطاع أن يفكر بتلك السخافات في تلك اللحظة ؟ ومع ذلك فانه اختار عباراته اختيار العـاشق ، راضياً

عن نفسه ، كما يبدو بوضوح ، مكدساً التعابير الرائجة والاطنابات المتداولة على طريقة مارلينسكي . وهو ينوه فيما يأتي في رسالة إلى قضائه ، إلى العذاب الذي تحمله ، إلى مهمته التي لم يعط الزمن الكافي لأدائها ، إلى اللغز الذي يحمله معه إلى القبر ، إلى عدم فهم الناس له . ويورد حتى شاعر معقد يقول للجماهير انها تحمل الحياة في عنقها « كعقد » ، وانها غارقة في حمأة الرذائل « كغريق » . كل ذلك محشو بأغلاط إملائية .

الحق يقال ، ان رسالة تيغلف السقي الوداعية كانت سخيفة . واني لأفهم مفاجأة صاحب السعادة التي وجهت اليه حين قال بعد أن قرأها :

– ضابط سيء ! نعجة جرباء ! ليشطب .

ومع ذلك ففي الفقرة الأخيرة من الرسالة صرخة صادقة ، صرخة من القلب :

« يا صاحب السعادة ! أنا يتيم ، لم يحبني أحد قط ، ابتعد كل الناس عني . واني كنت المسبب في ضياع القلب الوحيد الذي سلمني نفسه ! »

ودفن تيغلف خارج المقبرة ، كشأن المنتحرين . ووقع في النسيان فوراً تقريباً .

- ١٨ -

وغداة الدفن (كنت بقيت في الضيعة في انتظار عودة أخي) ، جاء سيمون يعلن لي ان ايليا يريد مقابلتي .

-- أي ايليا ؟

– البائع المتجول .

سمحت له بالدخول .

جاء ليعبر عن أسفه لنهاية السيد الضابط المفاجئة وعن دهشه لأن حادثاً كهذا قد وقع له ..

سألته :

– هل هو مدين اليك بشيء ؟

– لا ، أبداً .. كانت عادة السيد الملازم أن يدفع نقداً .. إنما هذا ..

وصعر هو وجهه .

– انما هذا .. ان في حوزتك أنت غرضاً يخصني ..

– أي غرض ؟

أشار إلى المشط النحاسي الملقى على الطاولة ، وقال :

– هذا . وهو طبعاً لا يساوي شيئاً ، إنما هو تذكار ..

رفعت رأسي ، وقد لمعت فيه خاطرة مباغتة :

– هل اسمك ايليا ؟

– نعم يا سيدي .

– أليس أنت الذي ..

غمز بعينه وارتسمت ابتسامة عريضة على فمه :

– نعم ، بالتأكيد .

– أأنت الذي المنادى عليه ؟

أكد بتواضع باشّ :

– أنا نفسي .. هناك شخص شاب في زاوية .. ان أهلها صارمين جداً ..

قاطعته وأنا أرد له المشط وأدفعه الى الباب :

– حسن جداً ، حسن جداً ..

هكذا إذن « إيليوشا » كان هو .. فكرت في هذا ، وأنا أغوص في أفكار فلسفية رفيعة ، احترس عن الافضاء بها إليكم . إذ ان كل انسان هو حر في أن يعتقد ، في آخر الأمر ، في « الاعداد المسبق » و « التهيؤ الأولي » و « الحتميات » الأخرى .

عندما رجعت الى سانت بطرسبورغ ، رحت أبحث وأجمع المعلومات عن موضوع ماري ، وتوفقت في العثور على الطبيب الذي عالجها قبل موتها . ولدهشتي اعلمني ان المرأة الشابة لم تمت بالسم إنما بالكوليرا ! .

رويت له من جهتي ، ما كان تيغلف أخبرني به .

صاح الطبيب :

– لكني أعرفه . إنه ضابط في المدفعية ، رجل متوسط القامة ، محدودب الظهر قليلا ، يتأتىء قليلا ..

– بالضبط .

– تصور انه جاء الى ، وكانت تلك هي المرة الأولى التي أراه فيها ،

ليبرهن لي على ان الفتاة قد تناولت السم . قلت له : كوليرا . رد علي: لا ، بالسم . وألح ، وكان عريض النقرة . وذلك دليل ساطع على العناد . فرضخت له . إذ المريضة كانت قد ماتت . ليكن . انها سممت نفسها اذا كان هذا يسرك ، قلت له في الأخير . . فشكرني بحرارة ، وهو يشد على يدي و . . لم أراه بعد ذلك .

اخبرت انا الطبيب عن الطريقة التي انتحر تيغلف بها في تلك الليلة نفسها .

لم يبد عليه أي انفعال ، انما اكتفى بالبيان ان ثمة افراد غريبي الأطوار في هذا العالم .

لاحظ شخص بصواب كبير ، وهو يتحدث عن المنتحرين إذ قال :

لا يصدقهم أحد طالما لم ينفذوا خطتهم ، ولا يأسف أحد عليها بعدما ينفذونها .

بادن ـ بادن ١٨٧٠

أشبـــاح

لحظة .. وخرافة الجنيات تتلاشى
وتعـود الروح إلى الواقـــع .
ا. فت.

- ١ -

كنت اتقلب على فراشي ؛ لا أتمكن من النوم .

قلت في نفسي :

« لتذهب إلى الشيطان جميع تلك الحماقات ، سخافات الطـــاولات الدوارة !.. فذلك لا يصلح لغير تشويش أعصابك ! »

رويداً رويداً توصل النوم إلى أن يضمني إلى حضنه ..

فجأة خيل إلي اني اسمع في غرفتي رنة ضعيفة وأنة كوتر يبض .

رفعت رأسي . كان القمر وطيئاً في السماء ينظر تواً في عيني . كان ضياؤه يرسم على بلاط الحجرة خطاً أبيض من حوار .. واسترق سمعي من جديد الرنة العجيبة ...

اتكـــأت على مرفقي . كان خوف مبهم يرجفني . مضت بعض

دقائق . أذن ديك من بعيد ، وأجابه ديك آخر .

أرحت رأسي على الوسادة .

« إلى هذا تقودنا تلك .. حالياً تطن اذناي ! »

نمت في الحال تقريباً ، ورأيت حلماً غريبا . كنت راقداً في سريري غير نائم ، لا استطيع حتى أن أغمض عين .. ومرة اخرى ، تجاوب صدى الرنة ... وارتفع شعاع القمر ببطء ، وانتصب واستدار .. وانتصبت أمامي امرأة بيضاء ، ساكنة وشفافة كالضباب .

سألت بجهد :

— من أنت ؟

صوت شبيه بحفيف الأوراق :

— هذه أنا .. أنا .. أنا .. جئت أبحث عنك .

— ابحث عنك ؟.. من أنت إذن ؟

— تعال ، الليل ، إلى زاوية الغابة ، تحت السنديانة القديمة .. سأكون أنا .

أردت أن أميز ملامح المرأة الغامضة ، لكن رعدة تمشت في جسمي كله ، ونفحة هواء زمهرير صفعني على وجهي . لم اكن مضطجعاً ، انما جالساً في المكان الذي بدت لي الرؤيا ، ولم يكن هناك سوى خط طويل من ضياء أبيض يرسله القمر .

— ٢ —

كان النهار سيئاً . اني لأذكر محاولتي للقراءة ، للعمل ، لكن عبثاً .. كان كل شيء يسقط من يدي .

جاء الليل ، كان قلبي يدق بعنف كأني كنت على ميعاد مع شيء . اضطجعت ، وأدرت رأسي شطر الحائط .

سأل صوت خفيض لكنه واضح :

– لماذا لم تأت ؟

فالتفت بطفرة .

كانت هي ، الرؤيا الغامضة . عينان ساكنتان في وجه معصوم ، نظرة مبرقعة بالأسى .

همست هي من جديد .

– تعالى !

أجبت وأنا فريسة ذعر لا إرادي :

– نعم ، سأجيء .

انحنى الشبح ببطء وتلوي كسحب من دخان وتلاشى . وعاد ضياء القمر المسالم وظهر على أرض الغرفة .

– ٣ –

طوال اليوم التالي كنت منفعلا بفظاعة .

عند العشاء ، شربت زجاجة نبيذ كاملة ، ثم خرجت على الشرفة ، إلا اني رجعت لتوي ، وآويت الى السرير . كان دمي يفور ببطء .

الرنة نفسها .. اختلجت ، إلا اني لم التفت . . بغتة طوقني شخص وهز كتفي بقوة ونفث :

– تعالي .. تعالي .. تعالي !

ارتجفت من الذعر ، ولم أستطع إلا أزفر :

- نعم ، سآتي !

كانت المرأة هنا ، حانية على وسادتي . ابتسمت لي بنعومة وغابت . بيد اني تمكنت من استشفاف وجهها . خيل إلي اني كنت لمحته في مكان ما.

- أين ومتى ؟

استيقظت متأخراً حين تقدم النهار ، وأمضيت يومي هائماً على وجهي في الحقول ، وذهبت لتأمل السنديانة القديمـة في آخر الغابة ، وتوقفت ونظرت الى ما حولها .

عندما خيم الليل ، جلست في مكتبتي امام النافذة . وجاءت ناظرتي العجوز بفنجان شاي وضعته أمامي ، لكن لم أمسه . . كنت مشدوهـاً أتساءل :

« ترى هل أصابني مس من جنون ؟ »

كانت الشمس قد غابت منذ حين ، مجللة السماء بيضاء الحريق ، وامتد اللهب على الطبيعة بأسرها وصبغت بلون فاقع عجيب ، كان العشب وأوراق الشجر قد سكنت فجأة كأنها طليت بطبقة من اللبن . كان السحر في سكونها الصخري ، وفي وضوح خطوطها ، وفي ذلك التزاوج بين الضياء الفج وبين سكوت الموت . جـــاء طير كبير رمادي وحط بلا حسيس على حرف نافذتي . . نظرت اليه ، ونظر هو إلي ايضاً بعينيه الدائرتين القاتمتين .

قلت في نفسي :

« من يدري لعلك جئت تذكرني بوعدي ؟ »

صفق الطير بجناحيه دونما دوي ، وطـــار بلا ضجة . . بقيت فترة طويلة جالساً أمام نافذتي ، إلا ان شيئاً لم يعد يثير دهشتي . كنت أشعر

كأني وسط حلقة سحرية ، وان قوة عذبة ، غير مرئية ، تدفعني رغماً عني ، كما ان اندفاع مياه الشلال تدفع المركب قبل سقوطه !

خرجت أخيراً من ذهولي . كان الغسق قد غاب منذ فترة طويلة ، وأظلمت الألوان ، والسكوت انتقض . وبدأت نسائم خفيفة تهب ، وأضاء القمر بنور ساطع في سماء مكفهرة ، وأغرق بضياء فضي أوراق الشجر السوداء . دخلت ناظرتي العجوز مكتبتي حاملة بيدها شمعة مضائة ، إلا أن نفحة ريح أطفأتها نفد صبري ، فنهضت واتجهت صوب زاوية الغابة ، جهة السنديانة القديمة .

– ٤ –

قبل عدة أعوام ، ضربت زوبعة تلك السنديانة ، فكسرت ذروتها التي يبست بسرعة ، إلا ان جذعها ظل حياً ، أخضر ، قوياً . كان في وسع الشجرة ان تعيش عدة قرون أخرى .

عندما كنت اقترب منها ، شوهت سحابة خفيفة وجه القمر .. كان الظل أسود تحت أغصان الشجر المورق ..

في البدء ، لم ألاحظ شيئاً خاصاً .. لكن عندما استرق نظري في الجوار ، انقبض قلبي بشدة : كان الشكل الأبيض هناك ، ساكناً قرب دغل الشجيرات ، في منتصف الطريق بين السنديانة وبين الغابة . انتفض شعر بدني ، إلا اني تمالكت ومضيت الى الأمام .

كانت هي زائرتي الليلة نفسها . عندما حاذيتها عاد القمر يضيء من جديد . كان يخيل إلي أن الرؤيا منسوجة من ضباب حليبي وشفاف . ومن خلال وجهها ، كنت أميز غصناً تهزه الريح ببطء . كان يشكل

عيناها وشعرها المرسل فحسب بقعاً سوداء . وكان يلمع في إحــدى يديها المضمومتين خاتم من ذهب ضخم .

توقفت ، وأردت أن أتكلم ، لكن الصوت اختنق في حنجرتي ، رغم اني كنت لا اشعر بالجزع . كانت عيناها مثبتتين علي ، وكانتا لا تعبران عن سرور أو عن حزن ، انمـــا عن انتباه لا حركة فيه . انتظرت انا أن تفتح هي فمها ، لكنها كانت تتأملني بنظرة لا حيــاة فيها . بدأني الرعب من جديد .

أخيراً صحت بكدّ :

ــ ها أنذا !

بدا لي صوتي أصماً ، شاذاً .

نفثت المرأة :

ــ أحبك .

أعدت مشدوهاً :

ــ تحبينني ؟

أعادت هي بصوت خفيض :

ــ كن لي .

ــ ان اكون لك ؟.. لكنك شبح .. ليس لك جسداً ..

استولت عليّ عاطفة غريبة ، واستأنفتُ القول :

ــ أي شيء هو أنت ؟.. أدخان ؟ أهواء ؟ أبخار ؟.. ان أكون لك ؟ اخبريني أولاً ماذا انت ؟ هل عشت على الأرض ؟ من أين تأتين ؟

ــ كن لي .. اني لن أنيلك أي ضرّ أبداً . قل لي كلمتين فقط : « خذيني أنت » ..

كفت انظر اليها .. وتساءلت أنا :

« ماذا تقول هي .. ما معنى هذا كله ؟ ماذا هي صانعة كي تأخذني؟

« هل أجرّب ؟»

قلت بصوت مرتفع الى درجة أثارتني انا نفسي ، (وكأن يداً خفية دفعتني من خلف) :

– ليكن .. خذيني انت !

ما كدت ألفظ تلك الكلمتين حتى تحركت المرأة الشبح باتجاهي ، ويهز جسمها كل ضحك داخلي ، وفتحت ذراعيها . . اردت ان أتنحى جانباً . . لكن الوقت كان قد فات : إذ كنت انا لها .. شبكتني ذراعها ، وارتفع جسدي عن الارض ، ورحنا نطير بعذوبة وببطء فوق العشب الندي ..

– ٥ –

أصابني الدوار ، فأغلقت عيني بصورة لاشعورية . . . فتحتهما بعد دقيقة . كنا ما نزال نطير . لكن الغابة قد غابت وامتد أمام عينينا سهول رحبة موشاة ببقع سوداء . أدركت مذعوراً أننا أرتفعنا إلى علو مذهل .

فكرت أنا في لحة :

« لقد ضعت .. ها انذا بين يدي الشيطان ! »

حتى ذلك الحين ، فكرة اللعين وخاطرة الموت لم تخطران على بالي ..

كنا نرتفع دائماً إلي أعلى ..

قلت في أنة :

– إلى أين تحملينني ؟

ردت صاحبتي :

– إلى حيث تشاء !

كانت لاصقة بي ، ووجهها على وجهي . لكن ما كنت أحس بذلك التماس .

– أعيديني إلى الأرض ، اني لا أشعر براحة على هذا العلو .

– حسن . اطبق جفنيك واوقف تنفسك .

فعلت أنا . وأدركت حالاً اني أهبط كما تقع حجرة من علو إلى أسفل . عندما عدت إلى وعيي كنا نجري بخفة على سطح الأرض تقريباً ، إلى حد كنا نلامس الأعشاب العالية .

تضرعت اليها :

– ضعيني على اليابسة . اني لا أجد أية لذة في الطيران . لست أنا بعصفور .

– كنت أحسب أن هذا يبهجك . فالطيران شغلنا الشاغل الأوحد .

– شغلك الوحيد ؟ لكن من أنت إذن ؟

لا جواب .

– ألا تجرؤين أن تقولي لي ؟

دوى في أذني رنة شبيهة بالتي أيقظتني في الليلة الأولى . كنا نستمر في التنقل على صورة غير مدركة في هذا الليل الرطب .

صحت أنا :

– اتركيني !

انزاحت صاحبتي بخفة ، ووجدتني واقفاً على قدمي . كانت تقف أمامي مشبكة ذراعها . كنت انظر إلى عينيها ، وقد عاد إلي هدوئي . كان وجهها يعكس ، كما في السابق ، حزناً وخضوعاً .

لم أتعرف إلى المكان الذى كنا فيه ، فسألتها :

– أين نحن ؟

– بعيداً عن بيتك ، لكنك تستطيع أن تبلغه في لمحة بصر .

– – كيف ذلك ؟ هل يجب أن اسلمك روحي مرة أخرى ؟

– اني لم أنلك ضراً ، ولن أفعل أبداً . لنطر حتى الفجر . هذا كل ما اطلبه اليك . في مستطاعي أن أقودك إلى حيث تريد ، إلى أية جهة أو ناحية .. أعطني نفسك . أعد القول : خذيني أنت !

– ليكن .. خذيني أنت !

طوقتني من جديد ، وارتفعت أقدامي عن الأرض وطرنا ..

– ٦ –

سألتني :

– إلى أين تريد أن تذهب ؟

– إلى أمام ، إلى أمام دائماً !

– لكن أمامك غابة !

– ارتفعي فوقها .. لكن خففي من سرعتك .

انطلقنا نحو السماء كالزرزور الذي اصطدم بغصن شجرة . لم يكن العشب انما خضار أوراق الشجر الذي يمر من تحتنا . غريب مشهد الغابة حينما تشاهد من فوق : انها تماثل صلب حيوان هائل يرقد في ضوء القمر . كنا نسمع حسيساً أصماً متواصلا . كنا نطير من تارة إلى أخرى فوق بقعة جرداء ، مغطاة بظل دقيق مسنن .. أحياناً كانت صرخة أرنب تصلنا من أسفل . وكانت تجيبه بومة من الأعالي . كان يشتم في الهواء رائحة العطور والبراعم والعشب الأخضر . كان القمر ينشر ضياءه البارد الشاحب . كانت النجوم تلمع فوق رأسينا .

كنا قطعنا الغابة . شريط من ضباب يقطـــع السهل : كان ذلك النهر . طرنا على امتداد شطآنه المفروسة بادغال الشجيرات الساكنـــة والمثقلة بالندى . كان مجرى النهر يبدو أحياناً بزرقة صافية ، وأحياناً اخرى قاتماً كئيباً .

صفعتني الرطوبة بقسوة على وجهي عنـــدما كسرت غصناً عصياً . كنا نطير من شاطىء إلى شاطىء ، مثلنا مثل الطيور التي كانت تستيقظ لمرورنا ، والتي كنا نتابعها .

كنـــا نلتقي أحيانـــاً بسرب من البط الوحشي مصطفاً على نصف دائرة وسط فجوة في الغابة بين الخيزان . كانت لا تتحرك ، ويجهد تخرج واحدة رأسها من تحت جنحها ، وتنظر حولها ، ثم سرعان مـــا تعود وتخبىء منقارها ، وكانت واحـــدة اخرى تنقنق بهدوء ، وتحرك رعشة خفيفة ريشها . وأفزعنا مالك الحزين ، فقـــام وترنح بحذق على رجليه ، وحرك جناحيه بارتباك . كان يشبه بروسيا شبهاً غريباً .

كانت الأسماك لا تسمع اقـــل حركة : كانت تنام هي ايضاً في اعماق الماء .

بدأت انا اعتاد على شعور الطيران بل وكنت ابتهج لذلك . ان كل من طار في منامه يفهمني . عند ذلك وجهت نظري الى الكائن الغامض الذي بفضله حققت تلك المغامرة التي لا تصدق .

- ٧ -

كان .. امرأة بوجه مستطيل ، ليس بروسي في شيء . كان لونهـــا رمادياً ، شفافـــاً ، بظلال غير واضحة تماماً ، كانت تشبه إناء من الرخام الأبيض . اعطني من جديد الانطباع بأني اعرفها ، سألتها :

– هل استطيع ان اكلمك ؟

– تكلم .
– لمحت خاتماً في اصبعك .. هل عشت على ارضنا ؟ هل كنت متزوجة ؟.
سكت انا .. لم اظفر منها بجواب ..
– ما هو اسمك ؟ . او على الأقل كيف ، كانوا ينادونك ؟
– نادني ايليس ..
– ايلليس ؟ هذا اسم انكليزي . هل انت انكليزية ؟ هـــل عرفتيني فيما سبق ؟
– لا !
– كيف حدث إذن انك ظهرت لي ، لي أنا بالضبط ؟
– اني أحبك .
– هل انت سعيدة ؟
– نعم .. اننا نطير ، وندور كلانا في الهواء النقي العليل .
صرخت انا فجأة :
– ايلليس ! ألست روحاً مجرمة ، روحاً ملعونة ؟
أخفضت رأسها . وأجابت بهمسة :
– اني لا أفهم عليك ..
قلت :
– بحق الإله ..
قاطعتني متعجبة :
– ماذا تقول ؟ اني لا افهم عليك ..
خيل إلي ان ذراعها التي تلفني كحزام بارد ، شرع يتحرك بحركة لا تبين.
همست هي :
– لا تخف ! لا تخف ، يا حبيبي ..
التفت وجهها واقترب من وجهي .. وأحسست على شفتي شيئاً غريباً، لسان حية دقيق ورخص .. كحين تعلق العلقات غير المؤذية أحياناً .

- ٨ -

نظرت الى تحت . كنا نطير على علو شاهق فوق مدينـــة ريفية لا اعرفها ، قائمة على منحدر تل صغير . كانت أبراج الإجراس ترتفع فوق الكتلة المعتمة لأسطحة المنـازل والبساتين . جسر أسود يوصل بين ضفتين. كل شيء ساكت ، غارق في الرقاد . كانت القبب والصلبان تلمع بلمعان ساكت . شارع ابيض يغوص بلا ضجة في المدينـــة ، ويطلع من الطرف الآخر بسكوت ليمت في الحقول الشاسعة المتشابهة .

سألت :

– ما هي هذه المدينة ؟

– انها .. سوف .

– .. سوف في محافظة .. اوي ؟

– نعم .

– اني بعيد عن بيتي .

– بالنسبة لنا ، ليس ثمة مسافات .

قلت :

– حقاً ؟ قوديني إذن الى اميركا الجنوبية !

– هذا ليس ممكناً الآن : أصبح الصباح .

– اننا طيور الليـل ، أليس كذلك ؟.. لنذهب حيث تشائين ، لكن الى أبعد مكان ممكن !

– أطبق عينيك وامسك نفسك !

طرنا بسرعة هبوب الأعصـــار . كانت الريح تدوي في الآذان دوياً مفزعاً .

ووقفنا اخيراً ، لكن الدوي ظل مستمراً . بل على العكس كنت اسمع جلجلة مهددة ، ورعد مصمم .

قالت ايلليس :

– يمكنك أن تفتح عينيك .

– ٩ –

فتحت عيني .. يا الهي أين كنت ؟.. كانت غيوم ثقيلة رمادية تتدافع وتتتالى فوق رأسي كقطيع من الوحوش الكاسرة ... وهناك ، في أسفل ، بحر هائج ثائر .. الزبد الابيض يلمع ببريق الحمى ويغلي بتلال من ماء ، صفائح شعثاء تهجم لتتكسر على صخرة هائلة وسوداء كالقار . كان عويل الإعصار ، والأنفاس الثلجية للجة البحر الجامحة ، واصطخاب الأمواج ، حيث تتردد صرخات مغصة ، وطلقات المدافع البعيدة ، والأزيز الحاد لاسطوانة ، وصرخة غير متوقعة لزمج خفية ، وهيكل سفينة ضائعة في الأفق في الضباب ، كان كل هذا يحدثني عن الموت ، عن الموت وعن الهول ...

أصابني الدوار من جديد وأغلقت عيني ..

– ما هذا إذن ؟ أين نحن ؟

أجابت بوضوح في هذه المرة وبلذة ماكرة كما خيل لي :

– على الشاطىء الجنوبي لجزيرة ويفت ، هذه الكتلة السوداء هي صخرة بلاكفت .. كثير من السفن تحطمت على جوانبها ..

– احمليني بعيداً عن هنا .. أوه ! بعيداً جداً ! إلى بيتي .. إلى بيتي !

كنت أتلوى ، أخبيء وجهي بين يدي .. طرنا بسرعة أكبر . لم تعد الرياح تعول : كانت تطلق صريراً حاداً .. كنت اتنفس بصعوبة .

قالت ايلليس لي :

– ضع رجليك على اليابسة .

كنت أجهد لاسترجع قواي ، لأنسق خواطري .. كان نعلاي يلامسان صلابة الأرض .. كنت لا أسمع دوياً ، كأن كل شيء قد سكت من حولي .. إنما كان دمي يضرب في صدغي بوتيرة مضطربة ، وكان رأسي يدور ، ويدوي في دماغي صوت ضعيف .. نهضت وفتحت عيني ..

– ١٠ –

كنا عند السيد ليمرتي . كنت أشاهد أمامي مباشرة ، من خلال أوراق شجر السيتس ، صفحة الماء الهادئة حيث ما يزال بعض ألياف الضباب منتشراً . إلى اليمين كان حقل القمح بلونه الباهت . إلى اليسار كانت أشجار البستان ممشوقة ساكنة مغطاة بالندى .. كانت أنفاس الصباح قد رجفتها .

كان يسبح في سماء صافية سحابتين او ثلاث ، تبدو كأنها سحب من دخان . كان شعاع القمر يصبغها بلون أصفر .

كانت النجوم تنطفيء . ولا شيء يتحرك رغم ان الطبيعة كانت تفيق في الفتنة الصامتة لعتمة الصباح .

صاحت ايلليس في أذني :

– النهار ! هذا هو النهار ! الوداع !.. الى الغد .

التفت اليها .. ارتفعت بهدوء عن الارض ومرت ببطء امامي رافعة ذراعيها فوق رأسها . وبغتة اتخذ رأسها وذراعيها بهجة الجسد الحار ، ولمع بريق الحياة في عينيها . وفتحت ابتسامة لذة غامضة شفتيها

العقيقتين . . بدت امامي امرأة فاتنـة . . وفي لحـــة قلبت الى وراء وتلاشت كبخار . .

كنت لا أحير حراكا .

بدا لي حين قلبت النظر حولي أن تلك البهجـــة الشهوانية ، ذلك اللون الوردي الفاهت الذي لون الرؤيا ، بقي معلقاً في نسيم الصباح . . كان الفجر قد بزغ .

وشعرت بغتة بانهاك في قواي ويممت وجهي شطر البيت .

حين مررت أمام فنـــاء الطيور ، سمعت أصوات البط الصبـاحية (انها أول من يفيق) ، وكانت الغربان جاثمة على الأسطحة منهمكـة في نفض ريشها ، بعجلة وصمت ، كان لونهـــا الأسود يرتسم على سماء حليبية اللون . . كان سرب منها يطير بشكل دائري ويعود ليقــع صفاً ، دون نعيب . . وتجاوب في الغابة آذان صيـاح لديك دخل بين العشب الخثل الغامر بالندى والعنبية . . كنت أرتجف رجفاناً خفيفاً . آويت إلى سريري ونمت في الحال .

-١١-

في الليلة التالية ، ذهبت إلى السنديانة القديمة . خفت ايلليس لمقدمي كأننا كنا صديقين قديمين . لم أعد أخشاها كما كان حالي في الليلة الفائتة . كنت سعيداً لالتقائي بها ولا أسعى توضيح أمر . كان في نيتي أن أطير أبعد أيضاً فوق أرجاء غريبة .

طوقتني ذراع ايلليس من جديد وارتفعنا عن الأرض .

همست لها :

– لنذهب إلى ايطاليا .

أجابت بصوت عذب وجاد :

– حيثما تشاء ، يا حبيبي .

أدارت هي وجهها نحوي . لم تبد لي شفافة كما كانت بالأمس . كان فيها شيء أكثر أنوثة ورصانة يذكرني بالكائن الفاتن الذي لمحته فيها عند الفجر في اللحظة التي افترقا فيها .

قالت صاحبتي :

– هذه هي ليلة عظيمة . انها نادرة .. فقط عندما سبع مرات ثلاث عشر (تلفظت هنا بعض كلمات غابت عني) تتكشف الاسرار في تلك الساعة .

توسلت اليها :

– ايلليس ! من أنت ؟ أخبريني أخيراً !

رفعت ذراعها البض دون ان تجيب . كان يضيء في سماء سوداء خط أحمر لكوكب في المكان الذي أشارت اليه بسبابتها وسط نجوم صغيرة .

– كيف ينبغي علي ان أفهمك ؟ .. أأنت شبيهة بهذا المذنب الذي يتنقل بين الكواكب وبين الشمس ، تتنقلين بين الرجال و ... ماذا ؟

لكن يدها سترت عيني بغتة .. عندما الضباب الحليبي لواء خاضل صفعني على وجهي .

همست هي :

– إلى ايطاليا ! إلى ايطاليا ! ... هذه الليلة هي ليلة عظيمة ! ..

-١٢-

انقشع الضباب وشاهدت تحتي سهولا لا نهاية لها . كان خدامي يحسان بلمس هواء حار وعذب ، أدركت اني لم أكن في روسيا ، ثم ان السهول التي اشاهدها لا تشبه سهولنا . كان فضاء رحباً بلا حدود موحشاً ، صحراوياً ، اجرد . كانت تلمع بعض مستنقعات هنا وهناك كقطعة مرآة مهشمة ، كنت أرجم بغموض أن البحر ساكناً وساكتاً في بعيد . كانت نجوم كبيرة تتألق وسط السحب الجميلة والكبيرة . كنت أسمع ارتفاع الحان مسرعة متكررة ، بألف نغم ، دون توقف ، بحلاوة وعذوبة .. كم من جمال في ذلك الزفير الحاد والحالم ، في ذلك الصوت الليلي للصحراء ! ..

قالت ايلليس :

– هذه مستنقعات بونتين . هل تسمع نقيق الضفادع ؟ هل تشم رائحة الكبريت ؟

أعدت وعاطفة غم شملتني :

– مستنقعات بونتين ؟ لما قدتيني إلى هذا المكان الكئيب ؟ الأولى بنا ان نذهب إلى روما ؟

أجابت ايلليس :

– انها على قاب قوسين .. خذ الحذر !

هبطنا ببطء . طرنا فوق درب روماني قديم . رفع جاموس بهدوء ،

من تحت مياه المستنقع الموحلة ، رأسه المخيف ، وغرة شعر خشن تنبت بين قرنيه المعقوفين. نظر مواربة بعينين شرستين بليدتين وشخر ونخر ، كأنه اشتم رائحتنا ..

قالت ايلليس :

- روما قريبة .. قريبة جداً .. أنظر أمامك .. أنظر !

رفعت عيني .

ما هذه البقعة السوداء ، الضائعة في أفق سماء ليـلي ؟ أهي قناطر عالية لجسر هائل ؟ أي نهر يجري من تحتها ؟ لماذا هي خربة في بعض نواحها ؟.. لا ، ليس هذا جسراً إنمـا قناة قديمة . ومن حواليهـا تمتد الأراضي المقدسة للحقول ، وهناك ، في بعيد ، قمم هضاب البـــان ، وقفر ظهر القناة الشائبة تشتعل بضياء كان تحت شعاع القمر المعلق في الفلك ..

ارتفعنا على حين غرة لنتوقف فوق خرائب نصب منعزل . مـا هذا ؟ أهو ضريح ؟ أهو قصر ؟ أهو برج ؟.. ضمه لبلاب أسود بقوة في ضمة قاتلة .. وفي أسفل حفرة فاغرة في قبعته المتهدمة كفم مفتوح لحيوان مفترس ضخم .. كانت رائحة كهف ثقيلة تفوح من تلك الأكمة من الحجارة التي فقدت منذ زمن بعيد قشرتها الغرانيت وثوبها الصواني .

قالت ايلليس :

- هنا .. هنا !.. ردد ثلاث مرات اسم شخص رومـــاني عظيم ردده عالياً !

- ماذا يحدث عندها ؟

- سترى .

فكرت لحظة .. ثم صرخت بغتة ، مجتراً الصدى :

– ديفوس كايوس يوليوس سيزار ! .. ديفوس كايوس يوليوس سيزار .. سيزار !

– ١٣ –

لم يكد يتلاشى الصدى الأخير لصوتي حتى سمعت ..

إن من العسير علي أن أصف ماذا سمعت . في البدء كان ضوضاء غامضة ، بالكاد يمكن تمييزها قصف أبواق وتصفيق .. وفي مكان ما في بعيد ، بعيد جداً ، في أعماق هوة لا يسبر غورها ، جماهير غفيرة تموج وتطلق الصرخات والهتاف ، وتصعد ببطء نحوي ، كما في المنام ، في حلم خانق ، يمتد طوال عديد من قرون .. وبعدها يسودّ الهواء فوق الخرائب .. ميزت ظلالاً ، عشرات الألوف من الظلال وخطوط أشياء ، مستديرة كخوذة ، وممشوقة كحربة . كان شعاع القمر ينكسر كبروق زرقاء وخاطفة على تلك الخوادي والحراب – وكان الجيش بكامله يقترب متجمعاً ، متضخماً ، متجمهراً بغضب متزايد .. كنت ألمس ان عزيمته لا تلين ولا تقهر تحركه وان في وسعه أن يستفز عالماً بأسره . لكن الخطوط ما كانت تظهر بوضوح .. وبغتة ، سرت رعشة في تلك الجماهير كأن أمواج شقتها لتفسح الطريق لمار .. وسمعت : « سيزار ! سيزار فينيت ! » .. كانت جلبة الأصوات شبيهة بصحراء يهزها أعصار .. ضجة صماء . وطلع ببطء من فوق الخرائب رأساً شاحباً وقاسياً ، يجلله اكليل من غار ، خافض الطرف ، وجه الأمبراطور ..

إن لغة الناس لعاجزة عن وصف الذعر الذي انتابني . خيل إلي انه يكفي للامبراطور أن يرفـــع جفنيه وأن يشق شفتيه حتى أقضي نحبي في الحال .. انتحبت قائلاً :

- ايلليس .. لا أريد .. لا أريد روما هـــذه الفظة الرهيبة .. لنذهب !.. لنذهب !

قالت :

- جبان رعديد !

انطلقنا على الفور وبسرعة . وواتتني الفرصة لألمح رعود الجيوش تهتف لقائدها .. ثم تلاشى كل شيء ..

-١٤-

قالت ايلليس :

- سرح بصرك فيما حولك وهدىء روعك .

فأطعت . وأذكر ان انطباعي ألاول كان حلواً إلى حد لم أستطع معه الا أن أطلق زفرة فحسب . كان يغشاني ضباب أزرق ، فضي ، عذب ، منير .. في البدء كنت لا اميز شيئاً ثم رأيت تدريجيـاً أطر الجبال والغابات العظيمة تبرز . وفي أسفل ، كانت صفحة بحيرة صافية ، في أعماقها ترتجف النجوم وتتمدد أمواج بهدوء على شطآنها . غمر وجهي رائحة زهر الليمون . كان يصلني متقطعاً صوت امرأة شابـــة قوياً وشجياً . إن ذلك العرف وذلك الغناء جـذباني إلى الأرض فنزلت من عليائي وهبطت .. على سطح قصر منيف من الرخام الابيض . كان

يبدو حفيا وسط غابة صغيرة من شجر السرو . كان الغناء ينتشر من نوافذ مفتوحة على مصارعها . كانت عشرات الألوان من الأزهار المتنوعة تنبت على وجه البحيرة ، وتطلع جزيرة عائمة وسط المـــاء من شجر البرتقال والغـار وتغرق في ضباب منير ، وينتصب . فيهـــا التماثيل والأعمدة الرشيقة والرواقات البهية ..

قالت ايلليس :

– ايزولا بيللا لاغو ماجيوره ..

قلت :

– آه !

فحسب . ورحت اتدحرج ببطء . كان صوت المغنية يصلني أكثر فأكثر وضوحاً وجلاء .. كنت أشعر بانجذاب لا يقاوم نحو داخــــل القصر .. كان بودي ان أرى وجه المغنية التي كانت تهز تلـــك الليلة بذلك الغناء .. وتوقفنا إلى جانب نافذة .

كانت امرأة شابة تجلس أمام البيانو ، وسط حجرة كبيرة مؤثثة على الطراز البومبي ، أقرب إلى الاسلوب الاغريقي منــــه إلى النمط العصري . من حولها تماثيل يونانية وأواني أثرية ، ونباتات نادرة واقمشة من انواع خاصة . كان الضياء الذي يضيء المكان يشع من مصباحين في كأسي كريستال .

كانت العازفة رافعة رأسها قليلا ، مسبلة الاهداب ، تغني لحنـــاً ايطالياً . وتنير ابتسامة خفيفة وجهها رغم العظمة المطبوعة على ملامحها ، بل حتى الصرامة – وذلك دليل على شهوانيـــة صحيحة .. كانت تبتسم .. كان يبدو على نمر فتي ، مثلها ، متكاسل ، شهواني ، انـــه يجيبها على ابتسامتها ، وهو قابع في زاويته وراء اغصان الدفلي ، من

خلال دخان خفيف يتصاعد من مبخرة برونزية قائمة على منصب مثلث الارجل .

كانت الفتاة وحدها . كنت مفتوناً بالموسيقى ، وبالجمال ، وبهجة الليلة وعرفها ، وطغى عليّ ، إلى أعمق أعماقي ، شهد تلك السعادة الفتية ، الصافية ، المنيرة ، حتى اني نسيت صاحبتي ، ونسيت الطريقة الغريبة التي مكنتني من ان أكون شاهداً لتلك الحياة النائية .. كدت اتخطى حافة النافذة وادخل لأبدأ المغنية بالحديث ..

ارتج جسمي بهزة عنيفة كصدمة كهربائية . التفت .. كان وجه ايلليس صارماً ورهيباً ، رغم انه كان شفافاً . كانت عيناها الواسعتين تقدحان غضباً ..

لفظت هي بصوت خفيض وحانق :

– هيا بنا :

ومن جديد رحنا ندور في الظلام ، وكنت أشعر بالدوار .. لكن ، ليس باعة هتافات الجموع الغفيرة الهاتفة للامبراطور في هذه المرة ، انما استأسر بلبي صوت المغنية ..

واخيراً توقفنا . كان اللحن الحاد نفسه يدوي دائماً في اذني ، رغم أني كنت استنشق عبيراً آخر ، مختلفاً كل الاختلاف . صفعتني على وجهي طراوة منعشة كما لو كنا في جوار نهر كبير ، وتنسمت رائحة علاف ودخان وقنب . سمعت ايضاً لحناً طويلا ، ثم لحناً آخر ، ولحناً ثالثاً .. كان في تلك الالحان شيئاً مميزاً خاصاً ، كانت نغماته الثقيلة والرفيعة معروفة لدي إلى حد اني قلت في نفسي دون أن أتردد لحظة :

« هذا روسي ، الذي يغني » .

وفي اللحظة نفسها بدأت أرى يحلاء .

- ١٥ -

كنا نطير فوق شط نهر كبير . أراض زراعية حصدت حديثاً . وكومات من الهشيم ممتدة على يسارنا وتضيع في بعيد . وعن يميننا نهر جليل بصفحته الصافية ينطلق بأمان . ومركبان كبيران راسيان قرب الشاطىء يتأرجحان بهدوء ويهزان صواريهما المرتفعان كسبابتين .. وبتواتر تتجاوب صيحات طيور مجهولة في سماء رائقة واطئة وقاتمة .

سألت أنا ايلليس :

– هل نحن في روسيا ؟

أجابت :

– هذا هو نهر الفولفا .

كنا ما نزال نطير فوق شط النهر .

– لماذا انتشلتينني من ذلك البلد الرائع ؟ هل كنت غائرة ؟ أجيبيني ، هل كانت الغيرة فعلاً هي التي استيقظت فيك ؟

ارتجفت شفتا ايلليس ارتجافاً خفيفاً ، وعبرت ومضة من غضب في عينها .. لم يدم ذلك سوى لحظة ، وسرعان ما عاد إلى وجهها عصمته .

قلت لها عندئذ :

– أريد أن أرجع إلى بيتي .

– انتظر ، انتظر .. هذه الليلة هي ليلة عظيمة . لا يأتي مثلها

في قريب .. ستتمكن من أن تكون شاهداً لـ .. انتظر !

انحرفنا عن الطريق المستقيم ، ورحنـــا نطير فوق الفولفا على علو صغير ، نـكاد نلمس صفحة الماء ، لكن بطيران مختلج ، كما تطير زمج الماء قبل العاصفة . كانت أمواج مزبدة يصطخب تحتنا ، وصفعتنا ريح عاتية يجنحهـا القوي الثلجي .. الضفـــة الأخرى ، الوعرة المنحدر . انتصبت أمامنا في العتمة .. الصخور العامودية والمتصدعة .. اقتربنا منها .

قالت ايلليس :

- اصرخ صرخة حرب قطاع الطرق : زارين - تا - كيلشكا !

تذكرت ذعري عند ظهور الأشباح الرومانية ، كنت تعباً ، وحزيناً حزناً لا قرار له . كان يخيل إليّ أن قلبي يذوب كالشمع . لم أجرؤ على لفظ الاستدعاء مدركاً سلفاً أن شيئاً فظيعاً سيظهر على أثر ندائي .

وانشقت شفتاي رغماً عني وناديت بصورة لاشعورية بصوت ضعيف لكنه متوتر وحاد :

- زارين - تا - كيلشكا !

-١٦-

في البدء ، كما كان الحال أمام الخرائب الرومانية ، ساد سكوت .. ثم بغتة سمعت قريباً من أذني ضحكاً فظيعاً لحمال ، وسقوط غرض في الماء كشلوى .

دققت النظر في الظلمات ، لا أحد يتنفس .. وفجأة ، لغط مصم

جاوب الفضاء صداه ..

كان في ذلك العماء من الاصوات : غرغرة ، صرخات حادة ، شتائم حانقة وضحك - ضحك خاصة - ضربات مجاديف ، ضربات فؤوس ، اصوات أبواب تكسر ، وخزائن تخلع ، صرير صوار ودواليب .. عدو خيول ، قرع نواقيس ، خشخشة سلاسل ، صفير وعويـــل لحريق ، غناء سكارى وأناشيد مقطعة ، شهيق يقطع نيـــاط القلب ، شـكاوي مرهبة ، لعنات فظيعة ، حشرجة محتضرين وصفير قطاع الطرق ، بعاق وعياط ورقصات مدبدبة .. « حق الموت ! أضرب ! أشنق ! فرّق ! اذبح ! نعمّا تفعل ! .. احسنت صنعاً ! لا شكر ! » كانت تلـــك الصيحات تصطخب في اذني . كنت اسمع حتى أولئـــك الرجال الذين يلهثون ، متقطعة انفاسهم ..

ومع هذا ، كان في كل ناحية من حولنا ، قـدر ما تستطيعه العين ان تنفذ في الظلمات ، كان لا يحدث شيئاً ، لا حركة ، لا نأمة ، كان النهر ينساب ، والشط يبدو موحشاً وخاوياً ..

التفتت ايلليس إلى ووضعت اصبعاً على شفتيها .

- ستينكا ! هذا هو ستينكا رازين !

كانت الضجة تصطخب في آذاننا .

- هذا هو ابونا ، حامينا !

كنت لا ارى شيئاً ، لكن خيل الي فجأة ان جسما هائـلا يتقدم صوبي .. دوى صوت فظيـع :

- فرولكا ! اين انت يا أبن الكلبة ؟ أشعل النار في كل مـكان وقطعهم اربا اربا بالفأس ، هؤلاء السفلة !

صفعتني حرارة لهبة على وجهي ، واشتممت رائحة مشيط حريفة . وبلل وجهي مائع دافىء كالدم . سال ضحك وحشي من كل ناحية ..

اغمي علي .. عندما صحوت كنا ننساب ببطء في الهـــواء فوق الغابة التي اعرفها جيداً ، متوجهين صوب السنديانة القديمة .

– هل ترى هذا السراط حيث يضيء القمر من خـلال الضباب ، حيث بتولتان تحنيان رأسيهما ؟ هل تريد ان نذهب إلى هناك !

كنت منهوكاً ، محطماً ، لم استطع سوى ان اهمس :

– إلى بيتي !.. إلى بيتي ! ..

ردت ايلليس :

– انك عند بيتك .

بالفعل ، كنت أمام بابي ، وحدي ، فقد اختفت ايلليس . اقترب الكلب مني وتفرسني مرتابا بي ، وابتعد وهو ينبح .

وبجهد مكنتني قواي من ان اجرر نفسي حتى سريري . ونمت بالثياب التي كنت ارتديها .

-١٧-

طوال صباح الغد كنت أشكو من صداع فظيع واجرر قدمـــاي جراً . بيد اني كنت لا اعبأ بحالتي الصحية . كان توبيخ الضمير يعذبني والاسى المشحون بالغضب يخنقني ..

كنت أزبد ضد نفسي وأرعد .

كنت أردد طيلة الوقت :

– جبان رعديد ! كانت ايلليس على حق .. لماذا كنت أخاف ؟ كان ينبغي لي أن أنتهز الفرصة المواتية .. كنت أستطيع رؤية سيزار ، وبدلاً من ذلك ، رحت اه وأئن . وفررت كطفل أمـــام العصي .. جليـــاً ، فيما يتعلق بشتكا رازين كانت المسألة مختلفة . واني أوافق بصفتي نبيلاً ، وملاكاً عقارياً .. بل حق هنا ، لم يكن ثمة ما أخشاه !.. جبان !.. رعديد !.. لكن ، لعل كل هذا لم يكن إلا حلماً ..

ناديت على ناظرتي :

– قولي لي يا مارت ، في أية ساعة اني آويت إلى سريري البارحة ! هل تدرين ؟

– لا أدري يا سيدي .. متأخراً لا ريب .. انك خرجت ساعـة الغسق .. وبعد منتصف الليل كنت أسمع وقع خطواتك في غرفتك .. انك نمت قبـــل شروق الشمس مباشرة ، نعم ، هو كذلك .. وأول أمس أيضاً .. هل أنت مهموم ؟

قلت في نفسي :

« هذا برهان على أني طرت حقاً .. »

وسألت عالياً :

– كيف تبدو هيأتي اليوم ؟

– هيأتك ؟ اتركني أنظر اليك .. انك تبدو تعبـــاً .. ثم أنت شاحب اللون : ولا نقطة دم في الوجه .

ارتجفت أنا وصرفت مارت .

جلست أمام النافذة ورحت أفكر :

« اذا استمر الوضع على هـــذا المنوال فلن تتأخر منيتي أو أني ساجن .. يجب أن أحسم القضية .. فخطرها جسيم . ان قلبي ينبض بعصبية مفرطة .. ثم اني كلما كنت أطير كان يخيل الي ان دمي يمتص أو أني اضيعه قطرة قطرة ، كما يسيل النسغ من البتولة في الربيع ، بعد الصدمة .. ومع ذلك فالأمر مؤسف جداً .. أما ايلليس فانها تلعب بي كما القط بالفأر .. وإلى ذلك ، لا أظن انها تريـــد بي شراً .. سأسمح لنفسي مرة أخيرة ، فذلك سيتيح لي مشاهدة اشياء كثيرة مجهولة .. وان كانت هي تشرب دمي ؟ هذا رهيب ! وفضلا على ذلك ، يجب الا ينصح أحد بمثل تلك السرعة : الا يقال انه حق في انكلترا قـــد حظر على القطارات ان تسير بسرعة تزيد على مئـــة وعشرين فرسخ في الساعة ! .. »

ذلك ما كنت أقول لنفسي ، لكن قبل ان تدق الساعـة التاسعة كنت اجدني تحت السنديانة القديمة .

- ١٨ -

كانت الليلة باردة ، مغمة ورمادية ، كان يشتم في الجو رائحـــة المطر . كانت مفاجأتي كبيرة لاني لم أجد أحداً تحت السنديانة القديمة . رحت ادور حـــول الشجرة ، وأمشي إلى حافة الغـــابة واعود إلى السنديانة ، مدققاً النظر في الظلام في كل مكان ، صحراء . انتظرت بضع دقائق ورددت اسم ايلليس بصوت يزداد ارتفاعـــاً .. كانت هي ما تزال غائبـــة .. شملني يأس اليم ، وذاب خوفي البهيم ، كنت لا استطيع ان أقبل فكرة ان صاحبتي لن تأتي .

صرخت لآخر مرة :

– ايلليس ، ايلليس ، هل من الممكن ألا تأتي ؟

تحرك غراب أيقظه صوتي على أغصان شجرة مجاورة ، وراح يصفق بجناحيه المشبكة بالأوراق .. وكانت ايلليس لا تأتي .

سلكت طريق العودة ، خافض الرأس . كنت أشاهد أمامي ظلال أشجار السيلبس فوق سد البحيرة السوداء . بـدت لي نافـذة غرفتي المضاءة من خلال شجر التفاح ، ثم غابت النـافذة كأنها كانت عين تترصدني .

وبغتة سمعت صفيراً حاداً يشق الهواء بسرعة .. وضمني شيء اليه .. ورفعني .. كما الباز ينقطع بمخلبيه على الحمـامة ويحملهـا .. ايلليس ! كنت أحس بخدها يلتصق بخدي .. وتطويق ذراعها جسمي . وكرعشة هز همسها سمعي :

– ها أنذا !

كنت سعيداً ومرتعشاً في الوقت نفسه .. كنـا نطير ، قريباً من سطح الأرض .

سألتها :

– أكنت تريدين ألا تأتي اليوم ؟

– وأنت ، هل ضايقك تأخري ؟ انك تحبني إذن ؟ أوه ! أنت لي !

ارتبكت حياء لكلماتها ، فلم أعرف بماذا أجيب .

تابعت هي تقول :

– هناك ما أعاقني ، هناك من كان يترصد لي ..

– ومن يا ترى يستطيع ان يمسك عن .. ؟

سألت هي بدورها كي تتجنب الاجابة بمهارة حسب عادتها :

– اين تريد ان تذهب ؟

– تودين إلى ايطاليا ، قرب تلك البحيرة .. هل تذكرين ؟

أرخت هي قليلا من قبضتها علي ، وهزت رأسها بالنفي .

ولأول مرة لمحت انها ليست بشفافة . كان وجهها بهيا ، وكان لونا ورديا قد حل محل شحوبها الضبابي . نظرت في عينيهـــا .. وشعرت بالخوف . كان يتحرك شيء في قرار نظرها ، بحركة بطيئة ، دائمـــة وخبيثه ، كحركة افعى ملتفة من البرد حول نفسها وبـــدأت الشمس تدفئها .

صحت أنا :

– ايلليس ! من انت ؟ .. قولي لي أخيراً !

اكتفت هي بهز كتفيها .

شعرت انا بشعور مر .. وعزمت على ان انتقم وخطر ببالي ان اطلب اليها ان تقودني إلى باريس :

« هناك ، سيثار فيك عاطفة الغيرة ، على الأقل . »

وقلت لها بصوت مرتفع :

– ايلليس ، ألا تخشين المدن الكبيرة ؟ باريس مثلاً ؟

– لا .

– لا ؟ حتى في تلك الامكنة المضاءة مثل شوارع باريس الكبيرة .

– لا . اذ ان اضواءها ليس هو ضوء النهار .

– حسن ! قوديني اذن إلى شارع الايتالين في باريس .

غطت رأسي بطرف كمها الطويل . وغرقت انا في ضباب ابيض مخدر كالأفيون . غاب كل شيء : النور ، الحركة ، الشعور .. بل فقط بقي الشعور بالحياة - ولم يكن ذلك بالشعور الكريه .

وبغتة انقشع الضباب ، فقد سحبت ايلليس كمها . وميزت انا تحتي كتلاً عظيمة من الأبنية غارقة في الضياء والضجة والحركة .. باريس !

- ١٩ -

بما انني كنت قد زرت باريس لذلك لم يصعب عليّ ان اعرف المكان الذي كانت صاحبتي تقودني إليه . كانت حدائق التيوتيوري بأشجاره البلوط القديمة ، بقضبانه الحديدية وساعته الأبجة . وطرنا فوق القصر الكبير ، وكنيسة سان روش - حيث أسال الأمبراطور نابوليون على درج هذا المعبد الدم الفرنسي ، لأول مرة .. ووقفنا عالياً فوق شارع الإيتاليان ، حيث نابوليون الثالث أسال الدم الفرنسي كذلك . كان يتدافع على الأرصفة الشبان والشيوخ ، رجال بأدراع ونساء أنيقات ، كانت واجهات المقاهي والمطاعم مضاءة بأضواء قوية ، وكانت السيارات والعربات الكبيرة والصغيرة من جميع الأصناف تجري في عرض الطريق ، وفي الاتجاهين ، على بعد النظر . كان الشارع كتلة من ضياء ومن صخب .. الشيء الغريب هو اني لم أشعر بالحاجة للاقتراب من تلك الخلايا البشرية . كان يخيل إليّ ان بخاراً ثقيلاً ، ساخناً وأحمر ، - يصعد إلينا حيث كنا - أكانت روائح ذكية أم نتنة ، لم يكن في وسعي ان اقول ، اذا كانت تتمازج بعدد من حيوات لا تحصى .. كنت متردداً ..

وبغتة سمعت صوتاً نافذاً صادراً عن بنت شارع ، صوتاً كنقرة ناقوس خشبي ، وقحاً كتمجية الوجه . ونفذ في سمعي كلدغة العقرب .

وتصورت لتوي وجهاً متصلباً ، مؤجنـا ، نهما وضيعاً ، باريسياً خالصاً ، بعيني مراب ، باللون الأبيض واللون الأحمر ، وبقرطين ، وباقة صارخـة الألوان من الأزهـــار الاصطناعية على قبعة مقرنة ، بأظافر كمخالب ، بفستان من نسيج صفيق .. وتصورت أحد سكان بورة روسيا يعاكس تلك الدمية المعروضة للبيع .. رأيته ، حيياً الى حد الفظاظة ، محاولاً ان يلثغ بالراء ، مقلداً غلمان مقاهي فيلفور ، ذليلاً ، مجاملاً بحقارة ، متصنعاً التأسف ، متهزراً – وأصابني الغثيان .

قلت لنفسي :

« كلا ، كلا ، فهنا لن تجد ايلليس ما يثير غيرتها .. »

ومع هذا ، لاحظت اننا نهبط ببطء .. وبدت باريس كأنهـا ترتفع إلينا بكل صخبها وبحوها الخانق ..

طلبت الى ايليس :

– قفي .. هل من الممكن ألا يكون الجو خانقاً هنا بالنسبة إليك؟

– ألم يكن هو أنت الذي طلب أن أقودك الى هنا ؟

– كنت مخطئاً . . اني أسحب كلامي . . احمليني بعيداً عن هنـــا يا ايلليس ، أتضرع إليك .. انظري ، هـــذا هو البرنس كوليامينلوف الذي يتسكع في الشوارع .. وهذا صديقه سيرج فاراكسين الذي يناديه باشاراته صائحاً : « إيفان ستيبانوفيتش ، لنذهب الى العشاء بسرعة ، اني دعوت ريغولبوس ذاته ! » احمليني بعيداً عن هذه البيوت المذهّبة ، عن هؤلاء وعن العنزات ، عن المنتديات ، عن جوكي كلوب ، عن الفيغارد ، عن العساكر حليقي الرؤوس ، وعن الثكنات اللامعة من النظافة ، عن رجال الشرطـــة بلحاهم الصغيرة ، عن كؤوس الافسنتين المعكرة ، عن لاعبي الصومينو المنتشرين على أسطحة المقاهي ، عن رجال البورصة ، عن العرى الحمراء المعلقة على السترات والمعاطف ، عن مسيو دوفوا هـذا المتخصص

في التزويج الرصين ، عن المعاينات المجانيـة للدكتور شارل ألبير ، عن المحاضرات الليبراليـة ، عن النشرات الحكومية ، عن المسارح وعن أوبرا باريس ، عن الجهل وعن النكتة الرخيصة .. هيا بنا !. بسرعة هيـا بنا ..

قالت لي ايليس :

– انظر الى تحت ، انك لم تعـد في باريس . أخفضت عيني .. لم تخدعني ايلليس ، كان يمر من تحتي سهول قاتمة تخططها خطوط بيضـاء – طرق ودروب .. وبعيداً جـداً ، انعكاس أضواء عاصمة العالم تصبغ الأفق بضياء الحريق .

– ٢٠ –

حجب الضباب عيني من جديد .. ومرة ثانية غبت عن وعي .. ثم تلاشى الضباب ..

ماذا هناك تحت جسمينا ؟ ما هذه الحديقـة بأشجار الزيزفون المصطفة على خطوط مستقيمة ، وأشجار الصنوبر المشذبـة كمظلات ، وهذه الرواقات والهياكل على نمط بومبادور وتماثيل الشياطين والملائكة باسلوب برنيني .. أهـذه فرساي ؟.. لا ، ليست هي مدينـة الملك لويس الرابع عشر .

وبدا قصر ، مبني على طريقة روكوكو وسط دوحات السنديان .. كان القمر مغطى بالبخار ، يلمع بضيـاء باهت ، وكان ضباب ناعم جداً يهطل من السماء . على صفحة البحيرة ينام ثم يبـدو ظهره أبيض يفقا ، والحباحب تلمع كالجواهر في ظل التماثيل الأزرق .

قالت ايلليس :

– نحن قرب مانهايم .. انها حديقة شنايتزيغ .

قلت في نفسي وأنا أشرئب :

« ها نحن في المانيا إذن . »

كان كل شيء ساكتاً ، الا مطوة يخر ماؤها بعذوبة . كانت تبدو كأنها تعيد ، بلا انقطاع ، الكلمات نفسها :

« نعم ، نعم ، نعم ، دائماً نعم .. »

وفجأة خيل إلي اني أرى وسط الممر بين وشيع الخضرة سواد مولى يتكلف اللطف الرقيق ، يعطي ذراعه لسيدة يحمة مستعارة وروب بروكار ، وكانت هي تتقدم بمهابة على كعبيها الحمراوين . كنت أشاهد .. سترة قصيرة مذهبة ، أكاماً من دنتيلا ، سيفاً صغيراً من حديد على جنب .. وجهين عجيبين ، وجهين شاحبين .. شعرت بالحاجة لرؤيتهما عن قرب .. لكنهما سرعان ما تلاشيا ، ولم يبق الا خرير ماء ..

قالت ايلليس :

– هما حلمان تائهان .. كان في امكاننا الليلة الفائتة أن نرى أشياء كثيرة .. أشياء كثيرة .. أما الليلة فالاحلام نفسها تفر من عيون الرجال .. إلى الأمام .. إلى الأمام !..

ارتفعنا إلى أعلى وتابعنا طيراننا . كانت حركتنا هادئة ومنتظمة حتى انه كان يبدو اننا كنا ساكنين ، وكانت هي الأرض التي تدور من تحتنا . وظهرت من بعيد جبال قاتمة ذات كسور ، مغطاة بالغابات ، وراحت تكبر وتتقدم بجلال صوبنا .. وبعد فترة راحت تمر من تحتنا بذراها وبوديانها وبنقفانها وبقراها النائمة على شواطىء منحدراتها .. وأعقبها جبالاً أخرى .. كنا في قلب الغابة السوداء .

جبال أيضاً ، جبال دائماً .. أخيراً ، غابة رائعة ، قديمة ، شاسعة . كانت سماء الليل صافية ، وكان في وسعي أن أميز بسهولة جميع أصناف الشجر . كانت أشجار الشربين بجذوعها البيضاء الرشيقة تبدو جميلة ، بصورة خاصة .. كنت أحياناً أشاهد في بقعة جرداء ، الغز المتوحش ، العصي واليقظ ، بعرقوبه الضامر ، يرفع اذنيه الكبيرتين ويلتفت برأسه إلى طرف ، برشاقة .

كانت خرائب برج تنتصب على قمة تل اقرع وتظهر بحزن شرفاته المتهدمة . وكان يلمع كوكب آمن فوق تلك الأحجار المنسية .. علا نقيق ضفادع من أعماق بحيرة سوداء كشلوى خفية ، وانقبض قلبي لتلك الأصوات .. وخيل إلي اني أسمع أصوات أخرى طويلة وتواخيه كأنغام عيدان الجزر . كنت في بلد الأساطير ! كان الضباب الناعم والمنير الذي فتنني في غابات سفايتزنغ منتشراً على كل شيء وكان يتكاثف بنسبة ابتعادنا عن الجبال ..

أحصيت خمس ، ست ، عشر ، درجات مختلفة لطبقات الضباب على طنف الصخور . كان القمر يسود فوق ذلك التنوع الصامت . كان الهواء ينتقل بعذوبة وبطء .. أنا ذاتي كنت أشعر بخفة رغم شعوري بالجد وبالأسى ..

– ايلليس ، يجب أن تحي هذه البلاد ..

– اني لا أحب شيئاً .

– كيف ذلك ؟ وأنا ، ألا تحبينني إذن ؟

أجابت بعدم اكتراث :

– بلى .. اني أحبك .

بدا لي ان ذراعها تشد علي أكثر .

قالت ايلليس بحماسة باردة :

– الى الأمام .. الى الأمام !..

رددت أنا :

– الى الأمام !

-٢١-

صرخة حادة مزقت سمعنا وترددت أمامنا .

قالت ايلليس :

– انهـا طيور اللقلاق المتأخرة آتية من الشمال وذاهبة الى بلادك . أتريد أن تنضم إليها ؟

– نعم ، نعم !.. قوديني إليها !

انوفعنا نحوها بسطوة ولحقنا بها في لمحة عين .

كانت طيور كبيرة وجميلة (عددها ثلاثة عشر) تطير على شكل مثلثات، تحدث أجنحتها حركات مباغتة . مشدودة الرأس والرجلين تطير بسرعة فائقة ، والهواء من حولها يصفر صفيراً هائلا . . أي مشهد رائـع لتلك الحياة الرحبة المصممة ، لتلك الارادة التي لا تلين التي تمارسها على ذلـك العلو ، بعيداً عن كل كائن حي !.. كانت تتحدث مـع الذي يطير في مقدمتها دون ان توقف طيرانها ، وتوحي صرخاتها العالية وحوارها تحت الغيوم بكبرياء وجلال وإيمان لا يتزعزع بقواها الشخصية .. كانت تبدو كأنها تشحذ عزائم بعضها البعض وكأنها تقول :

« سنصل الغابة ، مهما بعدت المسافة ! »

وكنت أفكر ان الندرة بين الرجال في روسيا – ماذا أقول ؟ بل في

العالم بأسره – تملك جرأة هذه الطيور !

قالت ايلليس (ولم تك هي المرة الأولى التي كانت فيها تقرأ أفكاري) :

– اننا ذاهبون الى روسيا .. هل تريد ان ترجع الى بيتك ؟

– نعم .. بـل على الأصح ، لا .. اني ذهبت الى باريس خذيني الى سانت بطرسبورغ .

– حالاً ؟

– نعم ، حـــالاً . . لكن غطي رأسي بازارك ، إذ بدأت أشعر بانحراف ..

رفعت هي ذراعها .. لكن قبل ان يشمل الضباب علي ، أحسست على شفتي بلمسة لسان أفعى رخواً غير مقرف ..

-٢٢-

« انتبه ! » تجاوب هذا الصوت في اذني . ورد عليه صوت آخر بلهجة يائسة : « انتبه ! » . وضاع الصوت في أقاصي العـــالم . أصابني الهلع . استرعت ابرة ذهبية نظري : حصن بيير وبول .

ليلة شمال شاحبة !.. لكن في الحق هل كان الوقت ليـــلا ؟.. ألم يكن على الأصح نهاراً باهتاً وعليلا ؟ اني لم أحب قط ليالي سانت بطرسبورغ، لكنني كنت في تلك الدقيقة مرتاعاً .

كان اطار هيكل ايلليس قد زال تماماً ، كما يذوب الضباب في شمس تموز . ولم أعد أرى بوضوح إلا جسمي انا ، ثقيلا وحيداً ، معلقـــاً في الهواء على مستوى عامود اسكندر . كنت فوق سانت بطرسبورغ ، ليس من شك في ذلك . شوارع خالية ، عريضة ورمادية ، أبنية مغطاة

بالجص ، بواجهات غبراء ، غبراء صفراء ، غبراء بنفسجية ، بنوافذ راجفة ، بعناوين ظاهرة ، بدرجات مثقلة بجديد مشغول ، طاولات الباعة المتجولين القبيحة . مراصد الخ .. هذه قبة كنيسة القديس اسحق المذهبة. البورصة ، لا جدوى فيها ومبرقشة . الحصن بحيطانـه الغرانيت . الطرق المرصوفة بخشب متآكل . الزوارق المليئة بالعلف والحطب . رائحة التراب والملفوف والجلد وروث الدواب . البوابات بأردية قصيرة ، ساكنات كتماثيل امام أبواب العمارات . سائقي العربات ملتوين على أنفسهم ، غارقين في سبات ! .. انها هي بعينهـــا ، مدينتنا تدمر الشمالية ! .. كان يمكن تمييز كل شيء ، بوضوح ودقة ، كل تلك الكتلة الراقدة في نوم حزين .

كانت وردة الشفق ، وردة مسلولة ، لم تترك بعد السماء الحليبية ، سماء بلا نجوم ، ولن تتركها قبل الفجر . كان انعكاسها يلون صفحة النيفـا الذي كان يهمس بنعومة ويدفع مياهه الباردة والزرقاء .

تضرعت ايلليس :

– لنذهب !

وقبل ان أتمكن من الإجابة كانت قد حملتني فوق النيفا وساحة قصر الشتاء باتجاه ليتينايا .. سمعت تحتي وقع خطوات وجلبة أصوات : كان فتيان بوجوه كحوليـة يقطعون الشارع ويتحدثون عن دروس الرقص . . صاح فجأة حارس أمام اهرام من القنابل الصدئة ، وقد تنبه من غفوة برجفة : « الملازم ستول ، السابع ! .. » وشاهدت ، بعـد مسافة أبعد ، وراء شباك مفتوح ، فتـــاة في ثوب حريري لا أكمام له ، شبكة من اللآلىء على شعرها ، ولفافة تبغ بين شفتيها ، تقرأ كتاباً لأحـد كتابنا المراهقين .

قلت لإيلليس :

– لنذهب !

وفي رفـــة جفن .. كانت أشجـار الصنوبر ، غير مكتملة النمو ، والمستنقعات المغطاة بالأشنة في ضواحي العاصمة ، تفر من تحت جسمينا.. كنا نتوجه الى الجنوب . ورويداً رويداً اتخذت السماء لوناً أشد عبوساً .. أيتها الليلة الوبيلة ، أنها النهار الوبيل انكما تخلفتما بعيداً وراءنا .

- ٢٣ -

كنا نطير بصورة أبطأ من العادة ، وذلك ما مكنني من رؤية مـا يمر تحت عيني ، المنظر الشامل العام اللانهائي والفضاء الذي لا حـد له لوطني .. الغابات أكوام الأشجار المقطوعـة ، الحقول ، الخنـادق ، الأنهار – وأحياناً ، القرى والكنائس ، ثم بعد ذلك .. أيضاً حقول وغابات وأكوام أشجـار مقطوعة وخنادق . وشعرت بالكآبة وطغى علي نوع من عدم الاكتراث مغم . ولم يكن ذلـك لأني كنت أطـير فوق روسيا ، اوه ! لا ، أبداً ..

هذه الأرض – هذا السطح المستوي – التي كانت تمتد تحتي .. ان كرتنا الأرضية بسكانها الزائلين وأهاليها العاجزين ، المسحوقـين بالحاجـة والحزن والمرض ، المغلولين بكتلة من غبـار حقير ، القشرة الرقيقـة والخشنة التي تغلف هذه الذرة من تراب التي هي كوكبنا ، النتونة التي نسميها بوقار المملكة العضوية ، الرجـال – هؤلاء الهوام الذين هم الف مرة أقل شأناً من البعوض الحقيقي – مساكنهم المجبولة بالوحل ، الآثار الضائعة لحركاتهم الرتيبـة ، صراعهم السخيف ضد القـدر ، والقضاء المحتوم – ان كل هذا حرك الغثيان فيّ .. وأثار قلبي بهدوء ، وأفقدني الرغبة في تأمل تلك اللوحات التي لا تعني شيئاً ، تلك السوق لعرض الباطل ..

طغى السأم على نفسي – بل حتى شعور أسوأ من السأم ... كنت لا أشعر بالحنان تجاه أمثالي . انطفأت جميع انفعالاتي ، واشتملت عاطفة واحدة علي ، لا أجرؤ على تسميتها ، تلك العاطفة هي عاطفة التقزز من نفسي بصورة أرحب وأعمق من سائر عواطفي الأخرى .

نفثت ايلليس :

– تخلى عن هذا ، تخلى عن هذا .. والا ، لن استطيع حملك .. انك صرت عبئاً ثقيلاً ..

قلت لها باللهجة التي أخاطب بها سائق عربتي بعد ان افترق عن أصدقاء موسكوبيين في الساعة الرابعة صباحاً ، بعد أن كنا قد أمضينا السهرة في الجدال حول مستقبل روسيا وأهمية وحدة المصالح :

– اذهبي إلى مسكنك !

رددت وأنا أغلق عيني :

– اذهبي إلى مسكنك ! اذهبي إلى مسكنك !..

– ٢٤ –

سرعان ما فتحت عيني .. كانت ايلليس تشدني اليها بصورة عجيبة ، كأنها كانت تريد أن تقسو عليّ بفظاعة . نظرت اليها وتجمد دمي في عروقي .. ان الذي واتته الفرصة ليشاهد على وجه جاره هلعاً لا اسم له ، وهو لا يعرف له سبباً ، هذا يستطيع أن يفهمني .. الذعر ، الذعر الفظيع شوّه سمات ايلليس وغضن ملامحها . اني قط لم أشاهد ذلك المنظر في وجه بشري . شبحاً من ضباب ، بلا حياة ، ظلا .. وإلى جانب ذلك ، ذاك الفزع القاتل ...

سألت ، أخيراً :

– ايلليس ، ما بك ؟

أجابتني بمشقة :

– انها هي !.. انها هي !.. انها هي !..

– انها هي ؟.. من هي اذن ؟

تمتمت صاحبتي :

– لا تسمها .. وخاصة لا تنادها باسمها .. يجب أن نفر منهـا ، والا ضاع كل شيء .. ضاع .. الى الأبد .. اوه ! انظر .. انظر . هنـاك !

التفت إلى الجهة التي اشارت بيد مرتجفة وشاهدت شيئاً .. شيئـاً حقاً رهيباً ..

كان الشيء مفزعاً إلى حد لم يكن له حدود محدودة .. كان شيئاً ثقيلاً ، مفجعاً ، أصفر قاتماً ، أرقشاً كبض الضب .. نوعاً من الغيم ، من الضباب ينساب ببطء ، كأفعى تنتشر على الأرض .. كان يتقـدم ، يتذبذب ببطء ، بحركة فضفاضة من أمام إلى وراء ومن أعلى إلى أسفل ، كطير جـارح باسط جناحـين يترصد ضحيـة ، وكان الشيء الذي لا اسم له يلتصق بالأرض تارة بحركة تثير الاشمئزاز ، كما تنقض العنكبوت على ذبابة .. ماذا كانت تلك الكتلة الفظيعة ؟ تحت تأثيرهـا المشؤوم – هذا ، كنت أراه كنت أحس به – كان كل شيء يزول ، ويتردى في العدم . كانت تفوح رائحة باردة لنتانة وجيفة .. كان القيء يصعد إلى حنجرتي ، وكان بصري يزوغ ، كان شعر رأسي يقف .. كانت تتقدم دائماً ، تلك القوة المحتومة التي لا يقاومها شيء والتي تـدير كل شيء ، قوة عمياء ، لا حصر لها ومستميلة ، قوة عليمة تختـار ضحـاياها ،

كالباز ، وتخنقهم وتغرس إبرتها الباردة السامة في قلوبهم .

صحت كمجنون :

– إيلليس ! إيلليس !.. إنها المنية ، إنها المنية بعينها .

خرجت نغمة آنة من بين شفتيها . كما لم أسمع مثلها من قبل ، وانطلقنا .. لكن طيراننا كان مضطرباً بشكل عجيب .. كانت إيلليس تترنح ، تتعثر ، تقع ، تنهض لتلقي بنفسها من جانب إلى جانب ، كحجل جريح في مقتل ، أو حين تريد أنثاه أن تضلل الكلب بعيداً عن صغارها ..

ومع ذلك ، كان ينفصل عن الكتلة الرجسة أمواج ومجاس ، طويلة ومتحنة ، وتجري وراءنا .. وارتفع بغتة ظل فارس عظيم يمتطي جواداً أبيض . وصعد إلى قبب السموات .. وازداد اضطراب ايلليس وعلت درجة حرارتها .

صاحت بصوت متقطع لا يكاد يبين :

– انها رأت ! لقد انتهى كل شيء ! أنا ضائعة ! اوه ! ما أشد شقائي ! كان في وسعي أن اغتنم ، أن أشرب الحياة ، أن تتداخلني .. الآن .. انها النهاية .. العدم .

كان ذلك أكثر من تحمل طاقتي .. وفقدت وعي .

- ٢٥ -

حين عدت الى إدراكي ، كنت متمـدداً على ظهري على العشب ، وأحس بوجع في جسمي كله باعثـــه صدمة حادة .. كان الفجر يبزغ ، وكنت أرى بجلاء كل ما يحيط بي . بالقرب مني طريق يحف على جانبيها اشجار سيليس يمتد خلفها غابة القصبان . ظننت اني عرفت المكان ، وجهدت ان أتذكر مـــا جرى لي . وتمشت رعدة في جسدي حين استرجعت رؤيا الجحيم الأخيرة ..

وتساءلت :

« لكن مماذا كانت ايلليس تخاف ؟ هـل من الممكن ان تكون هي خاصة لتلك القدرة ؟ أليست هي خالدة ؟ أم انها تطيع قوانين العطب والهلاك ؟ كيف يمكن أن يكون ذلك ؟ » .

سمعت بالقرب مني أنة . أدرت رأسي . كانت امرأة شابة ترقد على بعد خطوتين مني برداء أبيض ، مرسلة الشعر ، عارية احدى الكتفين . كانت أهدابها مسبلة ، وزبد قرمزي يصبغ شفتيها .. ايلليس ؟ لا ، فقد كانت ايلليس شبحاً ، وكانت أمامي امرأة من عظم ولحـــم . جررت رجلي نحوها وانحنيت على جسمها ..

صحت :

– ايلليس ؟ أهذه أنت ؟

ارتعش هدباها وانفتحا ، وثبتت هي عينيهـــا السوداوين في عيني ، وفجأة التصقت شفتاها بشراهة بشفتي .. كانتا حارتين نديتين فيهما طعم

الدم الحريف .. طوقتني بذراعيها برقة ، كان صدرها الملتهب بنهديها المعقدين يضغط على صدري .

قال صوت يموت :

– الوداع ! الوداع الى الأبد !

وأمحي كل شيء ..

نهضت مترنحاً على رجلي كرجل مخمور ، ومسحت وجهي براحتي عدة مرات ، وتأملت فيما حولي بدقـة .. كنت أجدني على بعد فرسخين من بيتي ، على الطريق الكبيرة لـ .. اوي .

كانت الشمس قد أشرقت عندما دخلت بيتي .

* * *

خلال الليالي التالية انتظرت الشبح ، بلا وجل : يجب ان اعترف بذلك ، انه لم يحضر .

وفي المساء عندما يخيم الظلام ، كنت أذهب الى السنديانة القديمـة ، لكنه ما كان يحدث شيء غير عادي . وفي الواقع ، لم اكن آسفـاً للقطيعة المفاجئة لعلاقاتنـا الشاذة . وكلما كنت افكر في تلك القصة الغامضة ، الـتي لا تأويل لها ، كانت قناعتي تزداد بأن العلم لعاجز عن تقديم شرح مقبول .. وكذلك الأساطير ، وكذلك خرافات الجنيات .

من كانت ايلليس تلك ؟ أكانت هي شبحاً ؟ أم عملاً من اعمال اللعين؟ أكانت جنية ؟ أم عفريتة ؟

كان يخيل إلي أحياناً أنهـا امرأة كنت عرفتها في السابق ، وكنت أجهد طاقتي لأتذكر أين كنت رأيتها .. وكان يخيل إلي أحياناً اني على

وشك التوفيق .. لكن لا ، سرعان ما يمحي كل شيء من جديد كما يعبر الحلم الوسنان ..

في النهاية ، اعترفت أني أبذل جهدي سدى ، كما يحدث في مثل هذه الحال دائماً . كنت لا أجرؤ على أن أفاتح أحداً ، وأن أطلب نصيحة ما خشية أن يظن بي الظنون ويعتقد إني جننت . ثم إني أقلعت عن ذلك – إذ كانت لي هموم أخرى .

ثم كان إلغاء الرق ، توزيع الأراضي ، إلى إلخ .. فضلاً عن أن صحتي كانت قد ضعفت كثيراً : كنت أشتكي من صدري ، ويلازمني الأرق ، وأسعل بلا انقطاع . كان جسمي يهزل . وبشرتي تستحيل إلى لون العاج ، لون الجثة ..

زعم الطبيب أني أشكو فقر الدم ، وذكر كلمة يونانية « انيميا » وارتأى إرسالي إلى غاشتين .. لكن وليكي أقسم بجميع آلهته أنه لا يستطيع دوني أن « يدبر أمره » مع الفلاحين ..

هل كان لي في تلك الشروط أن أفكر ..

لكن ماذا تعني تلك النفحات الصافية والحادة – نفحات هارمونيوم – التي أسمعها كلما جرى الحديث في حضوري عن منية ؟ إنها تزداد ، مع الأيام أكثر فأكثر ، قوة وحدة .. ولماذا تجعلني فكرة حقارتنا ارتجف بألم ؟

(١٨٦٣)

كفى !

مقتطفات من يوميات رسام راحل

—

- ١ -

. . . . . .

- ٢ -

. . . . . .

- ٣ -

قلت لنفسي : « كفى ! » وأنا أصعد بجهد جبلاً وعر المسالك ، يبدأ من شاطىء نهر هادىء . أعدت لنفسي « كفى ! » وأنا استنشق أنفاساً صمغية لغابة سرو صغيرة ، عطرة بصورة خاصة في رطوبة الشفق .. قلت لنفسي من جديد « كفى ! » وأنا أجلس على أرض مغطاة بالأشنة تميل على سمت النهر . وعيناي مثبتتان على الأمواج المعتمة والكسولة التي تحبسها سوق الخيزران الخضراء والزاهية ..

كفى ، كفى تحركاً ، كفى تيهاً : لقد آن الأوان لأدخل إلى نفسي ، ولآخذ رأسي بكلتا يدي ، ولآمر قلبي أن يكف عن النبض .

حسبي أن أترك نفسي تنتشي بمداعبة الأحاسيس العكرة والآسرة ، وبمتابعة كل شكل من أشكال الجمال ، وبمحـاولة القبض على الرعشة من اجنحتها القوية والدقيقة ... أنا تعب ..

ما جدوى الشمس الساطعة – بالنسبة لي – التي تغزو في كل لحظة مجالات جديدة في السماء وتلهبها كهوى منتصر ؟ ما يجـــديني البلبل المختفي ، في الدغل المبلل بالندى ، على بعد خطوتين مني ، في الصمت وفي السلام وفي بهجـــة المساء ، والذي يعلن لي عن وجوده بتغريـد ساحر ؟ كأنه أول بلبل يغرّد ، وانـــه أول من ينشد نشيـد لأول حب .. ومع ذلك ، كانت كل هذه الأشياء موجودة من قبل ، وإنها ترددت آلاف المرات .. وعندما افكر أن الأمور تجري على هذا المنوال إلى آخر الأزمان ، وان ثمة قواعد ثابتة ، قانوناً .. يصيبني الغضب الحزين أي نعم ، الغضب الحزين .

- ٤ -

آهاً ! لقد تقدمت السن بي كثيراً ! فخواطر كتلك ما كانت لتعن على بالي قديماً .. أقول ، قديماً .. وهـــذا معناه : في أيامي السعيدة الماضية ، حين كنت أضطرم كالشمس وأغني كالبلبل .

هيا يجب أن أعترف ، ان كل شيء من حولي غدا باهتاً ، وان الحياة قد أضاعت بهجة ألوانها . ثم ان النور الذي يضيء الأشياء كلها ، والذي يمنحها قوة ومعنى ، النور الذي يشع في قلب الإنسان ، هـذا النور قـــد انطفأ في داخلي .. بل انه لم ينطفىء بعد تمامـاً ، الحق يقال : أنه يمسعس ، وسنان ، بلا ضياء ولا حرارة .

في مرة من المرات ، في موسكو ، اقتربت من حـــاجز شباك من قضبان حديدية مشبكة لكنيسة صغيرة قديمة ، وأستندت عليه . كان الظلام مخيماً تحت القبة الواطئة ، وكان سراجاً منسياً يغمز غمزاً ضعيفاً بضوءه الأغر أمام أيقونـة قديمـــة . كنت أميز بالكاد شفتي السيدة العذراء ، شفتين صارمتين متألمتين ، ومن حولها كان ظلام كئيب يسود ويريد أن يخنق الضياء الضعيف لتلك اللهبة غير المجدية .. لقـــد غدا قلبي الآن كذلك الضوء ، كتلك الظلمات ..

- ٥ -

إني أكتب هذا إليكِ يا صديقتي الوحيدة التي لا تنسى ، اليك التي هجرتها والتي سأحبها إلى آخر أيّامي .. إنك تعلمين ، مع الأسف ! ما الذي فرّقنا .. لن نتحدث عنه اليوم ، هل تريدين ؟ لقد تركتك لكني هنا ، منفياً في هذه الصحراء ، مقصياً عن كل شيء ، إني لممتلىء بك ، وما أزال تحت تأثير سحرك . وأشعر ، كما في الماضي ، بلمس يدك العذب ، يستريح على رأسي المنحنية !

ولآخر مرة أقوم من القبر الأخرس حيث أهجع ، وألقي بنظرة حنان على ماضي كله ، على ماضينا .. ضاع الأمل ، سد طريق العودة ، دون أية مرارة . ليس ثمة من أسف ، والذكرى ، مثلها مثل إلهة قضت ، تصعد ، أنضر من زرقة السماء وأصفي من ثلوج الذري ..

إن ذكرياتي لا تتدافع بطيش وفوضى ، إنما هي تمر ببطء ، الذكرى تلو الأخرى ، كالقامات المتلاحقة لفتيان أثينا التي أعجبنا بها أشد العجب – هل تذكرين ؟ – في اللوحات المنحوتة في الفاتيكان .

- ٦ -

لقد حدثتك عن الضياء الذي يضيء في القلب البشري ، ويضيء كل شيء . بودي أن أذكرك بالزمن المبارك حين كان هذا الضياء يشتعل في قلبي . اسمعي وأتصورك جالسة أمامي ، تنظرين إلي بعينيك الحنونتين ، بتيقظ كبير حتى تبدوان كأنهما شرستين . يا لتلك النظرة التي لا تنسى !

ترى الى من ، الى ماذا تتطلعين الآن ؟ من هو إذن ذاك الذي يتلقاك في روحه ، أنت التي تظهرين كأنك تخرجين من الأعماق المجهولة شبيهة بتلك العيون الخفية ، مثلك ، التي هي سوداء وواضحة ، والتي تنبع من هوات الفجاج الضيقة تحت الصخور .. اسمعي ، يا حبيبتي ..

- ٧ -

حدث هذا في آخر الشهر الثالث ، قبل عيد البشارة بأيام ، بعد فترة قصيرة من التقائنا الأول . ودون ان اشتبه بعد فيما ستكونين لي ، كنت أحملك ، منذ ذلك الحين ، في قلبي ، بالسر .. كان يجب علي ان اعبر نهراً من اكبر أنهار روسيا . كان الجليد على صفحة الماء لا يتحرك بعد ، إلا انه كان كأنه متقبباً وأسود . كان الذوبان قد بدأ منذ ثلاثة ايام . كان الماء يرشح من كل شيء . كانت ريح صامتة تتيه في سماء مكفهرة كان الضياء الحليبي نفسه يضيء الأرض والسماء ، لم يكن ثمة ضباب ، ولا وضوح . كانت الأشياء كلها تبدو قريبة وغير واضحة . تركت عربتي ورائي ، ورحت أمشي حيث الخطى ، ولا اسمع صوتاً سوى وقع أقدامي . كنت أتقدم مغموراً بالمداعبات الأولى والأنسام المبكرة للربيع .. كان يدفع كيانه كله وجع بهيج يستعصي علي الشرح . وكان ينمو ويكبر في كل خطوة ، في كل حركة .. كان يحثني على المضي بسطوة عظيمة الى حد اني توقفت مشدوهاً ، وألقيت نظرة مستطلعة فيما حولي كأني أبحث عن علة خارجية لحماستي .. كان كل شيء سكوتاً ، بياضاً ، خمودا .. رفعت رأسي الى السماء ، وشاهدت سرباً من طير قواطع .

فصرخت عالياً :

- أيها الربيع ! تحية لك ! تحية ، للحياة ، للحب ، للسعادة !

وفي تلك اللحظة نفسهـــا سطعت صورتك ، بقوة ونعومة ، كصبار يتفتح .. انبعثت صورتك وبقيت هنا ، جميلة وفاتنة ، بوضوح . . عندها أدركت اني كنت أحبك .. أنت وحدك .. واني لممتلىء بك ..

- ٨ -

أفكر فيك .. وذكريات أخرى ولوحات أخرى تنبجس أمام عيني ، وفي كل مكان أنت ، على سائر دروب حياتي ، أنت التي أواجه. أحياناً ، أشاهد بستاناً روسيا قديماً راقداً على سفح هضبة ، مضاء بالشعاع الأخير لشمس صيف غاربة . ووراء أشجار الصفصاف الفضية يبدو سقفاً خشبياً لمسكن بمدخنة البيضاء تقذف دخاناً . باب السياج مفتوح كأن يداً مترددة حائرة قد دفعته . وأبقى أنا هناك ، أنتظر ، انظر الى السياج ، الى الرمـل في ممرات البستان ، ويتملكني شعور التعجب والرقة ، وتبدو لي جميع أحاسيسي خارقة ، جديدة .. كل شيء يبدو غارقـــاً في لغز عطوف ومنير . ويخيل إلي اني اسمع وقع خطى خفيفـة . وأبقى هناك ، مترصداً ، كعصفور طوى جناحيـــه ، لكني متهيء ليهب من جديد . ويرتجف قلبي من الخشية واللذة تجاه سعادة دافية ، تجـاه سعادة تطير متوجهة نحوي .

- ٩ -

وفي أحياء أخرى ، أشاهد كنيسة قديمة في بلد بعيد وجميل . وصف المؤمنين يتدافع راكعـــاً . والقبب العالية والعارية والعواميد العظيمـة المرتفعة تشيع بردا صارماً مؤاتيـاً ، وتوقع الأبهة والأسى في النفوس . أنت هنا الى جانبي ، صامتة آمنة كما لو كنت غريبة عني . وكل ثني من ثنايا تنورتك يبقى جامداً ، قدّ من حجر ، وانعكاس الأضواء المختلفـــة للزجاج المتعدد الألوان يرقد عند قدميك على البلاط البـالي . ثم ينتفض الهواء المعتم من البخور بقوة ، ويطوف نشيد الأرغن ، ويهزنا نحن أنفسنا كموجة عظيمة . وأنت تشحبين وتنهضين ويلمسني نظرك لمسا خفيفـا ، ويزلج عليّ ليرتفع الى أعلا ، الى السماء .. ويبدو لي ان الروح الخـالدة وحدها تستطيع ان تنظر بتلك النظرة وبتلك العينين ..

- ١٠ -

وأحيانا أيضاً ، أرى مشهد آخر . لا يسحقنا فيه معبـــد قديم بصرامة أبهته ، إنما هي حيطان واطئة لغرفة مريحة حيث انفصلنا فيها عن العالم بأسره . ماذا أقول ! إننا وحدنا ، وحـدنا في الكون : لا شيء حي سوانا . وخلف تلك الحيطان الرقيقة ظلمات الموت والعدم . إنها ليست الرياح التي تعول ، ولا سيول الأمطار التي تصفع النـافذه : انه العماء الذي يشكو ويئن . إنها عيونه التي تذرف الدمع مـدراراً .

لكن في غرفتنا كل شيء هادىء منير دافىء : إن ثمة شيئاً مسراً ، بريئاً كطفل ، يرفرف من حولنا ، كفراشة ، أليس هذا إحساسك ! اننا جنباً إلى جنب ، رأسانا تتلامسان ، نقرأ كلانا في كتاب واحد . أحس بعرق ينبض في صدغيك . أسمعك تحيين ، وتسمعينني أحيـا . ابتسامتك تولد على فمي قبل أن ترتسم على شفتيك . إنك تجيبين بلا ألفاظ على سؤالي الصامت . إن أفكارك لهي أفكاري كجناحي طير غارق في زرقة السماء .. لقد سقطت الحواجز الأخيرة ، وحبنا هادىء وعميق ، لا يفصلنا شيء ، ولا نشعر حتى بالحاجة لتبادل كلمة أو نظرة .. إننا لا نريد غير أن نتنفس معاً ، أن نعيش معاً ، أن نكون معاً .. دون أن ندرك أننا مع بعضنا البعض .

- ١١ -

أو اني أستعيد تلك الصبيحة الرائعة الخريفية حين تجولنا سوية في حديقة خاوية ، لكنها مزهرة ، لقصر مهجور يقوم على حافة نهر عظيم أجنبي ، وفي نور لطيف لسماء صافية ، لا غيوم فيها .

كيف أشرح كل ما شعرتِ به حينئذٍ ؟.. هذا النهر الذي يجري كلا نهاية ، هذه الوحدة ، هذا الهدوء ، هذه البهجة ، هذا الأسى المحدق ، هذا الجو من السعادة ، هذه المدينة المجهولة والمتناسقة ، نعيق غربان الخريف على أعالي الشجر ، هذه الكلمات العطوف وهذه الابتسامات الحنون وهذه النظرات ، المتبادلة ، الطويلة ، العذبة الأخاذة ، هذا الجمال فينا ، حولنا ، في كل مكان ، كل هذا أكبر من الكلمة الإنسانية .. وهذا المعبد الذي جلسنا عنده صامتين ، محنيي

الرأس من الغصة . وسأذكره حتى ساعتي الأخيرة .

كان كل شيء حولنا ممتلئاً فتنة وسحراً : المارون النادرون بتحيتهم المقتضبة وبوجوههم الطلقة . المراكب الشراعية التي تنساب ببطء على صفحة الماء (كان على ظهر إحداها حصان – هل تذكرين ؟ ينظر ، حالماً ، الماء الذي يعكس منخريه) الخرير الغر للأمواج الصغيرة والقصيرة . الكلاب التي تنبح من بعيد . بل حتى نائب الضابط البذيء والباعق مؤنباً المجندين بخدود وردية ، كان الفتيان المساكين يتمرنون بقربنا المرافق متباعدة والسيقان مشدودة ، كلاب الصيد . كنا نشعر كلانا أنه قط لم يكن في الماضي ، ولن يكون قط في المستقبل أروع من تلك اللحظات .. لكن أف للتحنن والرثاء ! كفى !.. مع الأسف ! نعم ، كفي !

- ١٢ -

انها المرة الأخيرة التي أذهب فيها مع تلك الذكريات . سأقول لها وداعاً إلى الأبد .

هكذا يقضي البخيل عجبه لآخر مرة من ثروته ، من ذهبه ، من كنوزه الحبيبة ثم يغطيها بالتراب الندي .

هكذا فتيلة الصباح قبل أن تنطفىء ، يهب ضوءها بغتة بلهبة وتستحيل رماداً بارداً . ومن مأمنه يتأمل الحيوان الصغير لآخر مرة العشب المخملي والشمس البهية وزرقة المياه الرائقة ، ويتراجع إلى قرار حضرته ويلتف ككبّة وينام . ترى هل سيرى في منامه الشمس والعشب وزرقة المياه الرائقة .

لتكن من تكون فالقضاء هو الذي يقودنا بصرامة لا تلين . أننا لا نشعر بقبضته في أول أمرنا لانهماكنا بجميع أصناف الطوارىء ، وبالسخافات ، وبأنفسنا نفسها أخيراً . ما دام المرء يستطيع أن يبدع أوهاماً وما دام لا يخجل من الكذب فانه يستطيع أن يحيا ، ويجرؤ ان يؤمل . ان الحقيقة الناقصة (لا يمكن وضع المسألة حتى المستوى المطلق) الجزء من الحقيقة التي نظفر به ، يختم على شفتينا في الحال ، ويغل يدينا ويحيلنا إلى عدم . لذلك ، ليس أمام الرجل ، كي لا يستحيل إلى رماد ، وكيلا يقع في اللاإدراك – في احتقار نفسه – ، ليس أمامه غير سبيل واحدة : أن يدير لكل شيء ظهر المجن وان يقول باطمئنان :

« كفى ! »

ان يشبك ذراعيه الواهيين على صدره العقيم وأن يحافظ على كرامته الأخيرة التي تبقى له عندئذ : الشعور بعدمه .

لقد نوّه باسكال إلى ذلك عندما وصف الانسان « بالقصبة المفكرة » ، وحين أعلن ان الكون حين يسحق الانسان أنبل ما يقتله ، ذلك لأنه يعرف انه يموت وهذه هي الميزة التي يختص بها دون الكون . الكون لا يعرف شيئاً . يا للكبرياء الواهية ! يا للعزاء الحقير ! لتكن من تكون يا رفيق المنكود التعس ، في وسعك أن تتفهم معاني باسكال وأن تصدقها فانك لن تقدر قط أن تدحض كلمات الشاعر الرهيبة :

« ليست الحياة الا ظلا تائهاً . ليس الانسان الا ممثلاً بائساً يتطوّس ويتبختر طيلة ساعة على المسرح ولا يسمع عنه خبراً بعد ذلك . ليست الحياة الا حكاية يرويها أبله ، زاخر بالضجة والنزق . لكنها لا تعني شيئاً . » اني رويت عن ماكبث . وآتي على ذكر سحرته ، وأشباحه ، ورؤاه .. يا للأسف ! فليس كل هذا ما يرعبني ، ولا تلاعب الأظلال النورانية في مكان مظلم لهوفمان ، مهما اتخذت تلك الأظلال من أشكال .. ان ما يرعبني لهو هذا بالضبط انه ليس ثمة ما يرعب ، وان ماهية الحياة لبائسة ، خاوية من أية فائدة ، مسطحة كأرصفة الشارع . ان كل من تشرّب بتلك الفكرة ، وكل من شرب من ذلك الصبر لن يستطيع بعد ذلك مطلقاً أن يتذوق العسل المصفى ولا السعادة التامة . وان السعادة في الحب والاتحاد المطلق وعطاء الذات الكامل لن يبقى لها أي تأثير عليه . ان حقارة الإنسان وحياته الزائلة تسحق في الإنسان كل كرامة .

انه أحب ، انه اضطرم هياماً ، انه تفوه ببعض كلمات يائسة عن السعادة التي لا نهاية لها وعن اللذات الخالدات وإذا به لم يبق أثر للدور الذي اكل لسانه المجفف ! وهكذا ففي الخريف المتقدم حين يغطي الصقيع العشب ويبدو متجمداً على تخوم الغابة الجرداء ، يكفي للشمس ان تنفذ من خلال الضباب وتثبت نظرها في الارض الباردة حتى يهب الهوام وتطير بعد لحظة . انها تمرح في أشعة الشمس ، تتحرك ، تصطخب ، تحوم وتركب فوق بعضها البعض .. وما ان تختفي الشمس حتى تتساقط الهوام كرذاذ المطر : انها الخاتمة لعمرها القصير ولحياتها العابرة !

- ١٤ -

قد يقال ، أليس هناك من مفاهيم سامية ، من كلمات عزاء عظيمة : « ديمقراطية ، حق ، حرية ، إنسانية ، فن ؟ » انها لموجودة حقـاً ، وان كثيراً من الناس لا يحيون إلا بها وفي سبيلها . واني لأعتقد ، مع ذلك ، ان شكسبير لو عاد حياً لما انكر مسرحيتين : هاملت والملك لير .. ان بصيرته النفاذة ان تكتشف أي تغيير في خصال الناس : المشهد المبرقش نفسه ، في إخراج مبسط ، يمر أمام عينيه ، برتابة مقلقة . الخفة نفسها ، القسوة نفسها ، الظمأ نفسه ، الآلام الحمقاء نفسها التي يتحملها الانسان باسم . . ماذا ؟ باسم ، ذلك اللغو الذي كان أريستوفان قد هزأ به منذ ألفي عام . ان حيلاً فظة تجذب تلك الهدوية ذات ألف رأس التي هي الجماهير باليسر نفسه كما كانت تفعل فـيما مضى من الأزمان . ان مناورات الحكومات لم تتغير .. كما لم تتغير عادات العبودية ، والكذب في الطبيعة.. الخلاصة، انه السنجاب نفسه الذي تقفز على دولاب لم يعاد رهنه .

من جديد ، سيضع شكسبير على لسان الملك لير هذه الكلمات القاسية : « لا وجود لمجرمين » ، وهذا معناه لا وجود لعادلين أيضـاً ! وسيعلن مثلي : « كفى ! » وسيدير للناس ظهره .. وانـه ، مكان ريشارد الطاغية الفاجع والصموت قد تشد عبقرية الشاعر النقاد . الحاجة لرسم طاغية آخر عصرياً . ففي زمننـــا الحـــاضر ، في قدرة الطاغية ان يأخذ دوره جدياً وان ينام مطمئناً في الليل وان يتشكى من طعام دسم قليـلا ، بينما يحاول ضحاياهاه الذين لم يقض عليهم قضاء مبرماً ان يعزّوا أنفسهم في تصوير الطاغية بملامح ريشارد الثالث ملاحقاً من الأشباح الذين أبادهم ..

لكن ما جدوى كل هذا ؟

ما جدوى تقديم البرهان للذبابات الصغيرة – مع اختيار العبارات المنمقة وصقل الأسلوب – إنها ليست هي إلا هواماً .

- ١٥ -

لكن الفن ، قد تقولون لي .. الجمال .. طبعاً ، إن في هاتين الكلمتين قوة أقوى من سائر الكلمات التي سبق لي أن أتيت على ذكرها . وربما أن في فينوس ميلو واقعاً أكبر مما في الحقوق الرومانية أو في مبادىء ١٨٧٩ . قد يعترض علي – وقد حدث أن حدث ذلك أكثر من مرة ! – إن الجمال نفسه لهو اتفاق اصطلاحي ، بما أن الصيني لا يفهمه بالأسلوب الأوربي . ليست نسبية الفن هي التي تقلقني إنما حشاشته ، وقابليته للفساد ، وعدمه . ففي أيامنا الراهنة ، ربما أن الفن أعظم من الطبيعة ، إذ أن الطبيعة لم تنتج سيمفونيات بتهوفن ، ولوحات رويسدايل ، وأشعار غوته ، إن مدّعين ، عنيدين وثرثارين ، وحدهم في وسعهم أن يزعموا أن الفن يقلد الطبيعة .. بيد أنه مع التمادي تثأر الطبيعة لنفسها ، في وسعها ألا تتعجل ، إذ أن لها الكلمه الأخيرة . إنها لا واعية وخاضعة لقوانين صارمة ، تجهل الفن كما أنها تجهل الخير والحرية . ومن جراء حركتها الدائمة الأبدية ، الأزلية ، لا تقبل الدوام ، والخلود .. الإنسان هو ابن الطبيعة ، لكن الفن مناوىء لجدته ، لأنه بالتدقيق يجهد ليكون دائماً ويكون خالداً ..

الإنسان هو ابن الطبيعة ، لكن الطبيعة هي أم لكل ما هو كائن وهي لا تفضل شيئاً على شيء : ان كل ما ينبت في حضنها لا وجود له

إلا بالاتصال مع آخر ، يجب عليه ان يخلي له مكانه بعد زمن . لا يهم الطبيعة من تحيي أو من تميت ، ماذا تبدع أو ماذا تهلك ، بشرط ان تستمر الحياة ، وإلا يضيّع الموت حقوقه .. إنها لا تكترث بكل ما يجري ، انها تنشر الزنجار نفسه على الاطار الإلهي لتزوس فيدياس وعلى الاسطوانة الصغيرة ، كما انها تخول للعث ان يلتهم شعر سوفوكليس النادر .

الحق ان الانسان هو التالي في قواها المدمرة . لكن أليست هي كذلك قوة الطبيعة العمياء نفسها التي ترفع هراوة البربري الجاهل في وجه أبولون المنير ، والتي توحي إليه بصرخاته الوحشية عندما يبتر لوحة أبيل الكامل ؟ كيف نستطيع إذن نحن معشر البشر الضعفاء، ان تسيطر على تلك القوة التي برأت ، صماء ، خرساء ، عمياء ، هذه القوة التي لا تحتفل حتى بانتصاراتها وتذهب ببساطة الى الأمام ، ملتهمة كل شيء في طريقها؟ كيف يمكننا ان نقاوم الهجمات الدائمة لتلك الأمواج الثقيلة الفظة والتي لا تكل ولا تتعب ؟ كيف أخيراً ، كيف نعتقد بأهمية وجدارة تلك الصور سريعة العطب التي نسوّيها على حافة الهاوية بمادة ماهيتها الفساد ؟

- ١٦ -

هكذا يذهب العالم .. لكن شيللر قد قال : « الزائل وحده هو جميل » . والطبيعة نفسها في تحولاتها المتلاحقة ليست غريبة عن الجمال . أليست هي التي تزيد بكل تلك الدقة دابر مخلوقاتها ؟ أليست هي التي تمنح فورية الزهرة وجناح الفراشة ألوانها الزاهية وخطوطها

الدقيقة ؟ الجمال لا يحتاج الى وجود ثابت كي يكون خالداً، حسبه لحظة واحدة .

حسن جداً . قد يكون كل هذا صحيحاً ، لكن حين يُقصى الانسان وحين يُقضى على الشخصية ، تنعدم الحرية : ان جناح الفراشة الذاوي يولد من جديد بعد ألف عام ، الجناح نفسه ، والمعقول عن الفراشة نفسها . انه تكرار قطعي ومنتظم وغير شخصي ومطلق . . الانسان لا يعاد خلقه كالفراشة . وان انتاج مديه ـ أي فنه ـ إبداعه الحر يضيع الى الأبد عندما يُقوّض .

« ان الابداع لهو خاصية الإنسان .. » لكن أليس غريباً ومفزعاً القول : « اننا نبدع » .. لساعة ، شأننا شأن ذلك الخليفة الذي دام حكمه ، حسبما يقال ، ستين دقيقة ؟

تلك هي ميزتنا ولعنتنا : إذ ان كل واحد من هذه المخلوقات – اذا ما عزل – هو بالتدقيق هو ذاته وليس هو شخصاً آخر : انه هذه « الأنا » التي قد يقال عنها انها كونت عمداً على عين ، حسب خطة مرسومة سلفاً . وكل يشك ، أكثر أو أقل ، في أهميته ، ويشعر انه يمت إلى شيء عظيم وخالد بصلة ، الا انه لا يوجد الا لحظة وللحظة . مغلق عليك في قمقم ، حاول اذن أن تتملص وان تبلغ السماء .

ان اعظم الرجال على وجه الدقة هم الذين يدركون هذا التناقض الجوهري . وإذا كان الأمر كذلك فاسمحوا لي أن أسألكم فيما إذا كانت صفتي « الأعظم » و « العظيم » هما صفتين ملائمتين وصائبتين .

- ١٧ -

ما القول إذن في الذين لا ينطبق عليهم هاتين الصفتان حتى في المعنى الضيق الذي تسمح لغة البشر القاصرة به ؟ ما القول في اعمال الدرجة الثانية والثالثة ، في رجال الدولة ، في العلماء ، في الفنانين ـ في الفنانين بصورة خاصة ـ . ما العمل كي نجدهم على ان تنفضوا عن أنفسهم غبار كسلهم الثقيل وحيرتهم المغمة ؟ كي نجذبهم من جديد الى ساحة المعركة في حين تمتلكهم فكرة : ان أي نشاط يهدف غاية أرفع من الخبز اليومي لهو باطل ومضجر ؟ أية أكاليل تستطيع ان تستهويهم في حين انهم أدركوا عدم جدوى الغار والأشواك ؟ كيف إجبارهم على مقارعة أصنام « الجاهلية » أو « حكم الأحمق » : ذلك الأحمق الكهل الذي لا يغفر لهم اشاحتهم وجوههم عن أنصاب الأمس ، وذلك الأحمق الشاب الذي يريدهم ان يفعلوا مثله ، وان ينبطحوا امام أنصاب اليوم ؟ لماذا إذن يذهبون الى معرض الأشباح هذا ، الى تلك السوق حيث البائع والمشتري يسرقون بعضهم البعض وحيث يتخاطب الناس بصوت مرتفع ، وحيث تسود الضجة ، وحيث كل ما يعرض ويباع حقير وضيع ؟ لماذا إذن « وهم تعبون حتى المخاخ » يجررون رجليهم في هذا العالم حيث الشعوب تتصرف كأبناء الفلاحين الذين في يوم العيد يتمرغون في الطين ليلموا حفنة من جوز فارغ ، أو أنهم يفغرون أشداقهم استحساناً أمام صورة شفيعة .. في هذا العالم الذي يوجد

فيه ما يجب ألا يوجد . وحيث أصيب كل فرد فيـه بالصمم من جراء صراخه الشخصي ، وراح يعـدو مهرولاً إلى غاية يجهلها ولا يستطيـع إدراكها ؟

لا .. .. كفى ! كفى !.. كفى !..

- ١٨ -

الباقي هو سكوت .

(١٨٦٤)

قصائد نثريـــة

—

« يا لنضرة ، يا لجمال ورود زمن خلا .. »

—

كنت قد قرأت شعراً ، منذ زمن بعيد ، أوه ! بعيد جداً . ونسيته بسرعة .. لكن البيت الأول قد حفظته ذاكرتي :

« يا لنضرة ، يا لجمال ورود زمن خلا .. »

اليوم ، إنه الشتاء ، الصقيع قد ذر الجليد على زجاج نافذتي ، شمعة وحيدة تحترق في غرفتي المظلمة . إني جاثم في زاوية الحجرة ، والذكرى تنشد بلا انقطاع :

« يا لنضرة ، يا لجمال ورود زمن خلا .. »

اني أراني جالساً على حافـة نافذة واطئة لمنزل في ضاحية روسية . ومساء الصيف يتلاشى ببطء ، ويذوب في الليل ، مع رائحة الفاغيـة والزيزفون . فتاة واقفة أمام النافذة ، مستندة على ذراعها الممدودة الى

امام . رأسها منحنية على كتفها ، تسأل السماء بسكوت ، كأنها تترقب ظهور أول نجمة . كم من بساطة ومن وحي عميق في نظرتها الحالمة ! كم من حلاوة ومن براءة على شفتيها المشقوقتين على سؤال لم تفصح عنه ! نهدها الذي لم يستكمل بروزه تماماً بعد يرتفع بحنان في عذوبة انفعالاته . ومظهر وجهها الجانبي صافياً ومؤثراً . اني لا أجرؤ على ان أوجه إليها الكلام ، لكنها عزيزة غالية علي .. يا الله ، كم تسرع نبضات قلبي !

« يا لنضرة ، يا لجمال ورود زمن خلا .. »

العتمة تزداد حلوكاً .. ترفرف لهبة الشمعة ، ظلال عابرة تتردد حائرة على السقف الوطيء . الجليد يصر ويغضب وراء الحائط . يخيل إلي اني أسمع دمدمة واهنة ورتيبة :

« يا لنضرة ، يا لجمال ورود زمن خلا .. »

وهذه رؤى أخرى تظهر وتتلاشى .. الضجة السعيدة لعائلة ، في القرية . رأسان صغيرتان شقراوان تركنان الى بعضهما البعض ، تنظران إلي ، بفراهة ، بعيون صافية ، ضحك مكبوت ، يهز خدودهما الوردية . أيديهما معقودتان ، بلمسة رقيقة ، وصوتاهما الفتيان يسألان ويجيبان . وعلى مسافة أبعد قليلاً ، في الظل المضياف للحجرة ، أيدٍ أخرى فتية أيضاً ، تختلط أصابعها على ملامس بيانو عتيق . وفالس لانيه لا يقدر على ان يرتفع على غرغرة الإناء العائلي لغليان الماء .

« يا لنضرة ، يا لجمال ورود زمن خلا .. »

الشمعة ترجرجت وانطفأت . . من هو الذي يسعل هناك بصوت باحّ صاحل ؟ كلبي المنطوي على نفسه ، يربض عند قدمي ويرتعش . .

يا رفيقي الوحيد .. اني لأشعر بالبرد .. اني مجمد .. وانهم ماتوا جميعاً جميعهم ..

« يا لنضرة ، يا لجمال ورود زمن خلا .. »

٩ - ١٨٧٩ -

قفي !

قفي انت ! أريد أن أحتفظ بك الى الأبد كما تبدين لي في هــذه الساعة الراهنة !

لقد سكتت نغمة الوحي الأخيرة بين شفتيك المنفتحتين قليــلا . لم تعد عيناك تلمعان أو ترسلان ومضاتهما . انهما كبتا ، مثقلتان بالسعادة ، مدركتان انهما قد عبرتا عن الجمال ، الجمال الذي تلاحقــه ذراعــاك الممدودتان المنتصرتان والتعبتان !

ما هــذا النور - الذي هو أصفى من ضيــاء الشمس - الدافق على جسدك ؟ ومن هو هــذا الإله الذي بنفَس هــائم رمى بوفرتــك إلى الوراء ؟

انهــا قبلتــه التي تشتعــل على جبينــك الرائــق والأبيض كالرخام !

اللغز قد حل ! السر الخفي للشعر ، للحياة للحب !.. ذلــك هو الخلود !.. لا وجود لغيره ، لا يقتضي الأمر سواه !..

أنت الخالدة في هذه اللحظة .

لكنهــا تمر وتعودين قبضــة من رمــاد ، امرأة ، طفــلة ... سيان !

قبل فترة كنت أعظم من كل ما كان يجري . و « ساعتك »
لن تنتهي أبداً .

قفي ! واسمحي لي أن أتنــــاول القربان من خلودك ، اتركي ومضة
من حياتك الأبدية تسقط في روحي !

١٨٥٩ - ١١ -

الحوريات

كنت ساكناً أواجه سلسلة جبال باهرة مرصوفة على نصف دائرة ، تغطيها غابة فتية وخضراء من فوق إلى تحت .

فوق رأسي ، سماء الظهر الزرقاء ، وأشعة الشمس تمرح في سمت الرأس . وعلى الأرض الجداول تتناغى بحبور ، نصفها مختفي تحت العشب .

وتذكرت اسطورة سفينة يونانية تمخر عباب بحر ايجه في القرن الأول بعد الميلاد .

كان الوقت ظهراً .. والجو ساكناً . وبغتة لفظ صوت بوضوح من فوق رأس القبطان :

– عندما تمر أمام الجزر نادي بصوت جهوري : « انه مات ، بان العظيم ! »

استولى على القبطان الدهش .. والفزع . الا انه عندما كانت السفينة تعوم قرب شواطيء الجزر نفذ القبطان الأمر وصاح :

– انه مات ، بان العظيم !

وفي الحال ، ارتفع من الشطآن المهجررة انات وصراخ وعويل : « انه مات ! انه مات ، بان العظيم ! »

تذكرت هذه الاسطورة ... ومرت فكرة غريبة في خاطري :

« واذا ما أرسلت أنا النداء ؟

لكنه كانت بهجة تمنع ذكرات الموت تسود من حولي ، لذلك صحت بملء رئتيّ :

– لقد بعث بان العظيم !

وفي الحال – يا للمعجزة – ضحك فتي ، صيحات حبور ، ولفظ وضجة تموج في مدرج الجبال المجللة بالخضرة :

« انه بعث ! بان بعث ! »

بدت الطبيعة بأسرهـــا تنتعش ، وتنتشي وتقهقه ، بصوت أعلا من الشمس ، وأطلق حبوراً من تناغي الجداول تحت العشب .. صوت ركض خفيف . . والبيـــاض المرمري لغلائل يهزهـــا النسيم ، والوردي الحي لأجسام عاريـــة تتلألأ فوق الخضرة . . . حوريات يخطرن على سفوح الجبال ..

ظهرن ، دفعة واحدة ، من كل ناحية . شعورهن تخفق على رؤوسهن الملائكية ، أذرعهن يرفعن بانسجام أكاليل الزهور والدفوف ، والضحك ، ضحك الألمب المدغدغ يركض ويتدحرج وراءهن ..

إلهة تتقدمهن . انها تعلو على رفيقاتها قامة وجمالاً ، انها تحمل كنانة وراء كتفها ، وقوساً بين يديها ، وهلالاً من فضة على شعرها .

ديانا ، أهي أنت ؟

وقفت الآلهة على غير انتظار . وفعل الحوريات مثلهـــا . وسكت الضحك . صبغ شحوب قاتل وجنتيها ووسع عينيها المتوجهتين الى بعيد .. ماذا رأت ؟ الى ماذا تنظر هي ؟

التفت أنا وتابعت خط نظره ..

عالياً في السماء ، وراء لحم الارض الواطئة ، صليب ذهبي يرتفع على برج أجراس أبيض لكنيسة مسيحية .. وكانت الالهة قد لمحته .

سمعت وراء ظهري حسرة متقطعة طويلة ، كاهتزاز وتر انقطع . . عندما التفت لم أجـــد أثراً للحوريات . . كانت الأشجار على خضرتها السابقة – وفي بعض النواحي كانت تختفي أصداف بيضــاء لا تـكاد ترى في الفرجـات الضيقة لتشابك الأغصان . أكانت تلك غلائل الحوريات أم كان ذلك بخاراً متصاعداً من أعماق الوادي ؟.. لست أدري .

إلا أني أسفت أشد الأسف على الإلهات المتوارية !

– ١٢ – ١٨٧٨

كلبي

اننا إثنـــان في هذه الغرفـــة : كلبي وأنا . . في الخــارج تعول العاصفة وتنوح .

الحيوان يواجهني وينظر إلى عيني .

وأنا أثبت عيني في عينيه .

يبدو عليه انه يود لو يفضي إلي بشيء . انــه أخرس . لا يتكلم أبداً ، ولا يفهم على نفسه . لكن انا انى لأفهم عليه .

اني أعرف ان الانفعال نفسه يعضنا ، وان ليس من فارق بيننا . اننا مجبولان من طينة واحدة ، واللهبة الصغيرة التي ترف في دخيلتي تتذبذب أيضاً في أعماقه .

الموت آتٍ ويحرك جناحيه الضخمة الجليدية .

« انها النهاية » .

وقط أبداً لن يدرك أحد ما كانت تلك اللهبة الصغيرة التي كانت تحترق فينا .

لم يكونا هما رجلاً وحيواناً يتبادلان النظر . انما كانا زوجــا عيون متشابهين يتساءلان.

وفي كل زوج منهما كانت ترفض الحياة نفسها مرتجفة عــلى الاخرى .

– ٢ – ١٨٧٨

غـــداً ! غـــداً !

واها ! ان كل يوم يمر لفارغ ، كئيب ، مضجر ! ولا يخلف أثراً ! وكم سباق الساعات سخيف !

ومع ذلك فالانسان شره ، نهم ، انه ليتمسك بالعيش ، انه لمؤمن بنفسه ، بوجوده ، بمستقبله .. كم من آمال يبنى على الغد !

لكن لماذا يتصور هو اذن ان اليوم الذي يأتي لن يماثل اليوم الذي عاشه ؟

انه لا يفكر حتى في هذا .

ومن جهة اخرى انه لا يحب أن يفكر – وهو في هذا يحسن فعلاً .

« غداً ، غداً ! » يعزي نفسه في كل يوم الى ان يلقي به هـــذا الغد في القبر .

وعندما يصير المرء في القبر لا يفكر البتة – سواء شاء أم لم يشأ .

٥ – ١٨٧٩

—

اللغـة الروسية

في ساعة الشك ، عندما أتساءل ، مغمومـاً ، عن مصير وطني ، فأنت عزائي الوحيد ، يا سندي الوحيد ، أيتهـــا اللغـــة الروسية ، العظيمة ، القوية الحرة ، الصريحة !

إذ لولاك كيف لا أقنط ممـا يحدث في بـــلادي ؟ لكن ليس من الممكن ألا أعتقد ان لغة كهذه لم تعط شعب عظيم !

– ٤ – ١٨٨٢

من مطبوعات مكتبة الطلاب

وشركة الكتاب اللبناني

١ – الجريمة والعقاب	دوستويفسكي
٢ – راسبوتين ونساء القياصرة	غستون لرو
٣ – المرأتان	البرتو مورافيا
٤ – مغامرات كارلا	» »
٥ – امرأة في الثلاثين	بلزاك
٦ – المتصيدة	»
٧ – حب وانتقام	الكسندر دوماس
٨ – الغريب	البير كامو
٩ – غراميات مدام لافايت	نيزلوف
١٠ – ذكريات من بيت الموتى	دستويفسكي
١١ – خفايا الحياة الجنسية	فريدريك كهن
١٢ – العصيان	البرتو مورافيا
١٣ – البؤساء	فيكتور هيجو
١٤ – الحب الأول	إيفان ترجينيف
١٥ – الزوجة الضائعة	بلزاك
١٦ – ابكي يا بلدي الحبيب	آلان باتون (تحت الطبع)
١٧ – مذكرات الأميرة دي لامبال	(تحت الطبع)

١٨ - الملكة مجنونة حباً	جانين فيلار (تحت الطبع)
١٩ - البحر والقدر	أرنست همنغواي (تحت الطبع)
٢٠ - أبطال حتى الموت	« « (تحت الطبع)
٢١ - عشيق مدام ارنو	جوستاف فلوبير (تحت الطبع)
٢٢ - كولمبــــا	ماريميه (تحت الطبع)
٢٣ - الحب الزوجي	البرتو مورافيا (تحت الطبع)
٢٤ - طفولة ومراهقة	تولستوي (تحت الطبع)